صوفي وايت

حيث أنتهي



"رواية عميقة مكتوبة ببراعة"
- الجارديان

رواية

ترجمة: نهال نور

لُغة للنشر والتوزيع

حيث أنتهي

صوفي وايت

ترجمة: نهال نور

تحرير: إيزيس عاشور

إخراج فني: ضياء فريد

الطبعة الأولى مايو 2024



First published 2022 by Tramp Press

Originally published as WHERE I END

رقم الإيداع: 2024 /9407

ISBN: 9789778829006

إلى جين، التي ظلّت تستمع لقصصي المجنونة لأكثر من ثلاثين سنة، وهي تقريبًا مَن طلبت مني أن أكتب هذه الرواية.

شكرًا على كل شيء يا صديقتي.



أمي.

تصدر أمي صوت صرير في الليل، ويصدره المنزل أيضًا معها. أستطيع أن أسمع جريان خرير الماء في جسدها من خلال حائطنا المشترك الرقيق، تمامًا كالمياه التي تملأ جدران المنزل. أكره هذا الصوت. يطغى صوت الراديو وحفيف الرياح والطنين الهادئ للكهرباء على تلك الضوضاء نهارًا، ولكن في صمت الليل، تتدفّق أعضاؤها، وتبدو حية بشكل مختلف عما تبدو عليه في ضوء النهار. يجبرني هذا التدفق على التفكير في إفرازاتها، في احتياجاتها، في تلك الأمور التي تعتني جدتي بها، ولكني سأضطر للتعامل معها يومًا ما قريبًا. لا أريد ذلك، وهذا يضايقني. أكره جسدها؛ إنه مريع.

أحيانًا نجدها في أماكن عشوائية صباحًا، لكننا لا نراها تتحرك أبدًا، بل نجدها بالصدفة. قد تكون ملتفة حول نفسها وقابعة على السجادة الصغيرة في الممر، تلك السجادة التي تفضي إلى الباب الأمامي القديم، ذلك الباب الذي لا نستخدمه أبدًا. لقد ضاع مقبضه منذ مدة لا أتذكرها، ومن دونه فهو ليس أكثر من مجرد مستطيل خشبي ناعم. لا حاجة لتركيب ألواح خشبية على الباب لإغلاقه للأبد، فحينما تبحث يدك عن المقبض ويقابلها اللاشيء، يصبح هذا كافيًا جدًا تمامًا وكأنه قفل، بذلك الأمر محسوم. بدت أمي المكوَّمة أمام الباب الأمامي - هذا الباب الذي لا يعد بابًا في الأصل - كهاربة فشلت في الهرب.

بيتي.

يقول الكتيب الدعائي «هذه الجزيرة كنز». لم يمسها بشر، منطقة برية، نقية. ولكنها لا تبدو كذلك عندما تسكن فيها، وقلائل هم من يسكنون فيها. تبدو في الواقع عكس ذلك الوصف تمامًا؛ تبدو يائسة ومعزولة. تنفصل الجزيرة عن المحيط، تخترق السماء، وكأنها مقدمة سفينة غارقة. لا يوجد بالناحية المرتفعة سوى الجروف، أما في الناحية المنخفضة من الجزيرة، فهناك شاطئ رملي واسع، رماله رمادية كبرادة الحديد. تكوّن الرياح أشكالًا على سطح الماء، وإن

جلست على الشاطئ لفترة، فسوف تلطخك باللون الرمادي، وسيمتلئ شعرك وفمك بشظايا الشاطئ. لقد زرت شواطئ على البر الرئيسي سابقًا، ولم تكن كشاطئنا، فالرمال على تلك الشواطئ ساكنة ولامعة ونظيفة. إنها رمال لا تغزو، بل تقبع منصاعة، وتخضع للبحر.

لا أستطيع أن أحدد أي جزء من الجزيرة أكرهه أكثر. الجروف ملتوية، يمكنها أن تجذبك، أما الشاطئ فلا يبدو محفوفًا بالمخاطر هكذا، ولكنه يترك شعورًا غامضًا في بطني عندما أقف وأتطلع من هناك. أظن أنني أستطيع أن أرى الجزء المختبئ في الجزيرة، ذلك الجزء المغمور بالماء. يهرب مني تحت سطح الماء، بينما تغرق ألواح الجرانيت ثانية في السواد. لا يعجبني أن كل ما أستطيع رؤيته من الجزيرة ليس إلا جزء صغير من كينونتها البشعة، أو أن باقي الجزيرة كامن أسفلنا. أشعر أنني يجب أن أظل حذرة ويقظة كلما ذهبت للشاطئ. يجب أن يظل الجزء المغمور بالماء بالجزيرة على مرأى بصري. أترقب الخطر، تمامًا كما كنت أشعر في طفولتي، عندما كنت أستيقظ في الليل وأسير بحرص في الممر المؤدي للمرحاض، بينما ألصق ظهري بالحائط كي أرى كل ما حولي.

عندما أواجه الماء على الشاطئ المعدني، تلوح بقية الجزيرة خلفي، كموجة كبيرة. «انتبه لما خلفك! انتبه لما خلفك!» كما صرخوا في تلك المسرحية التي أخذني إليها بابا(1) على أحد مسارح البر الرئيسي في طفولتي. مقاعد مخملية نصف عارية وأكواب آيس كريم بلاستيكية مليئة بجيلي أخضر وأحمر مسكّر. ذهبنا إلى الحفلة الصباحية للعرض المسرحي حتى يستطيع بابا أن يضعني على متن القارب بعدها مباشرة. قال الرجل على متن القارب على مضض، والذي كان من سكان الجزيرة، إنه سوف يعتني بي ويتأكد من وصولي إلى البيت. ظل يبصق بجوار قدميّ طوال الطريق حتى يمنعني من الاقتراب أكثر من اللازم. وصلت إلى البيت.

يستعمل الصيادون المراسي القديمة، والواقعة بجنوب الجزيرة، أما العبّارة

فترسو بالمرسى الجديد بعد الشاطئ، والذي تم بناؤه في السبعينيات، عندما كانوا يظنون أنهم قادرون على إنقاذ مصنع الحياكة القديم. يقبع المصنع حزينًا على بعد ما يقرب من ميل من هذه الناحية، على جانب الطريق الحقيقي الوحيد على الجزيرة. المصنع هو المبنى الوحيد ذو الطابقين بالجزيرة، ويعود الفضل في بنائه إلى التمويل الحكومي الهزيل نفسه الذي جلب للجزيرة الكهرباء في الخمسينيات. صب الغرباء جام اهتمامهم بشكل غريب على «الحفاظ» على أسلوب الحياة بالجزيرة كما هو، وكان واضحًا أنهم هم جهلة كل الجهل بحقيقتها. فُرِض مصنع الحياكة على المجتمع المحلي للجزيرة لأنه، كما قالوا، «يخلق فرص عمل ويحافظ على تراث الصناعات اليدوية بالجزيرة وأسلوب الحياة بها». كلما جاء ذكر الموضوع، كانت جدتي تُعلِّق بصوتها المتحشرج الخشن: «أغبياء!». فشل المشروع، وتهدَّل المبنى، على حوائطه الجبسية نوافذ صغيرة، وسقفه نصف متآكل بفعل عوامل التعرية، ما يجعله يبدو منهزمًا. كان من المفترض أن يساعد المرسى الجديد في نقل الأغطية والسترات الشهيرة بها المنطقة، ولكن مات المصنع. صار من الصعب تبرير إنتاج صادرات الجزيرة، فلن يستطيع أحد أن يدفع لعمال الجزيرة ما يكفي كي لا يغيروا مجال عملهم. صار الصيد مجال العمل الرئيسي الآن، ومعه قضاء الساعات حتى تعود القوارب ويتم عدُّ الصيادين للتأكد من وصولهم جميعًا.

إن وقفت على الشاطئ المعدني-الرملي لفترة، غالبًا ما ستأتي رياح شرقية لتدفعني نحو جزيرتنا ذات الأنياب، وإلى الحافة العالية حيث تنتهي الأرض. بين الشاطئ والحافة ميلان من الجدران الحجرية التي تثقب صخور الجزيرة كالمسامير. الجدران في كل اتجاه، ولكن بلا نمط أو منطق. شُيِّدت من شظايا الحجر الجيري الذي ينكسر من صخور الجزيرة، وينتصب كالأسنان. لا يوجد أسمنت بالجدران، ولكنها لا تنهار أبدًا، رغمًا عن الزاوية الحادة لأرض جزيرتنا، وعن الرياح الشديدة والأمطار الغزيرة التي تغمرنا.

بين الجدران منازل متفرقة، وفي منطقة معينة في وسط الجزيرة، تتكتل مبانٍ صغيرة عديدة في نهاية طريق الجزيرة: الحانة والمتجر الذي يعمل أيضًا كمكتب بريد، والكنيسة، مبنى بسيط. بداخلها قاعة صغيرة بها مقاعد مبعثرة قابلة للطي. يأتي الكاهن المؤقت من البر الرئيسي مرة شهريًا، وتقريبًا لا يفعل أكثر من إعادة ترتيب مقاعده المتهالكة. لا يمانع سكان الجزيرة وجوده، ولكن يعلم الطرفان أن زياراته روتينية ليس إلا. يرسله الأسقف ليبيع بضاعته، ولكن يعلم سكان الجزيرة أن البحر هو الرب. يعلمون أن الدين استعراض مسرحي بائس، مجرد رجاء بنزول الرحمة على أناس فقدوا طريقهم، والبحر يضحك على مثل هذه التوسلات. المراسي القديمة على بعد مسافة صغيرة من هنا، فالمياه دائمًا قريبة منك أينما كنت على الجزيرة.

بعد المرور بالمساكن التي تبدو كالطفح الجلدي على سطح الجزيرة، تبدأ الجزيرة في الانتصاب بشكل أكثر حدة. جوانب الصخور الرأسية للحدود الشمالية والجنوبية تقطر ماء عند انخفاض الأمواج، وكأن باطن الجزيرة يرتفع هو الآخر، بدلًا من أن ينحسر المحيط وحده. تنمو تلك الحشائش الطويلة باهتة اللون بين شقوق الجزيرة وفي اتجاه ظهرها، وكأنها شعر مصفف. تذكرني بشعرها. ظهر الجزيرة مرتفع جدًا عن باقيها، إلى درجة أنك لن ترى حدودها إلا إذا تسلقت أعلى قمة بها، وهذا ما لا يفعله أحد. يفضّل سكّان الجزيرة أن يولوا وجوههم شطر الاتجاه الآخر، نحو البر الرئيسي في الشرق، فهم يفضلون أن يتظاهروا أن ظهر الجزيرة غير موجود، خوفًا من أن يصيبهم الولع به، ويجذبهم إليه، وهو ما حدث بالفعل سابقًا. بيتنا آخر بيت قبل ظهر الجزيرة.

بيتي.

لا أفهم بيتي، فلم يشرح لي أحد ماهيته من قبل. تصميمه من الخارج معكوس، وإن دُرت حوله سوف ترى ذلك بنفسك: يومًا ما كان يطل على باقي الجزيرة. يومًا ما كان الباب والنوافذ الرئيسية يطلون على الجدران والشاطئ البعيد، على

المراسي القديمة وجيراننا. يمكن رؤية آثار باهتة لزخارف قديمة على واجهته. تتأرجح بقايا سلة زرع معلّقة في اتجاه يمين الباب حين كان على اليمين. كان هناك برميل على اليسار به نباتات. أما الآن، فتجويف هيكل الباب المُتقشّر وإطارات النوافذ المربعة محشوّة بشرائح الحجر الجيري المسننة نفسها التي بُنِيَت منها جدران الجزيرة، محشورة ومكدّسة بإحكام بالغ، حتى أن مهمة إرغام كل كتلة من الحجر أن تَسكُن في مكانها كانت شاقة لا محالة. مَن تولوا هذا؟ هل نزفت أيديهم وملأتها الكدمات بينما أتموا المهمة؟ صار البيت يحدّق بشكل مخيف فيمن حوله، فقد تم تكميمه وأُغلِقَت عيناه وفمه بصخور مشققة مكوَّمة فوق بعضها. صارت اللوائح المستقيمة غُرَزًا فولاذية خاطت منزلنا وسكّرته. الداخل أسوأ.

---

(1)وردت في النص الأصلي بكلمة Dada وهو اللقب الذي ينادون به الأب بالأيرلندية (المحررة).

1

يتم التوصُّل إلى قرار القضاء على هذا «الشيء» ببطء، كالضوء عندما يملأ غرفة بعد ليلة ليلاء. يبدأ الأمر هكذا:

أكون في فراشي عندما تقطع أولى أصوات الصباح الصمت وتجدني. إنها أصوات مفاصل فراشها، والتي تخترق الغرف العارية بالبيت بأنين هادئ ومستمر، عالي النبرة ومُلِح، يدل على بداية يوم خاوٍ جديد. يشُقُّ الصرير جسدي مع أنه بعيد في الغرفة المجاورة: يقطع صدري، ثم يهبط عند أعلى ذراعيّ، يزعجني ويوقظني من عدمية النوم الطيبة. الصرير كالاحتكاك والبكاء، يعيدني إلى نفسي، حيَّة بشكل كامل مع الأسف.

بعد مرور فترة الحرية في أثناء النوم، أعود مقيَّدة لحياتي. نعيق الحيوان القبيح ما هو إلا صوت الرافعة المستخدمة فوق فراشها. تتداعى الحبال في الناحية الأخرى من حائط غرفتي، وتتحرك بصعوبة وتدريجيًا على امتداد العوارض الخشبية المثبتة أسفل سقف غرفتها المجاورة. تصرخ مفاصل الفراش.

يهدأ الصرير عندما توقف جدتي ما تفعله لبرهة حتى تعيد إحكام الحبل، وأستطيع أن أسمع صوت لهاثها. نبدأ يومنا دائمًا بسحب «الشيء» الراقد على الفراش، وننهيه بإعادته لمكانه ليلًا.

أعلم أن عليّ أن أساعد جدتي، ولكني أشعر أن السير في اتجاه الغرفة المجاورة كل صباح ما هو إلا نزول إلى الهاوية. أنزلق في حفرتي، تلك الحفرة التي سأقضي يومي في محاولة الخروج منها. ولكن يجب أن نقوم بواجبنا، فعواقب الإهمال وخيمة بالنسبة إلينا تمامًا كما هي وخيمة بالنسبة إليها. الإهمال فقط يؤدي إلى تراكم مهام أكثر على كاهلينا.

«لحظة واحدة، أنا قادمة»، أصيح مخاطبة جدتي. أضع قدميّ على الأرض وأقف، وأسرع في اتجاه الصالة قارسة البرودة في الصباح، ثم أدخل غرفة

«الشيء». أجد جدتي(2) منحنية أمام مقدمة الفراش، تحاول جاهدة الإمساك بالحبل ضد قوة الجاذبية. أساعدها وأمسك بالحبل من الأعلى بقوة، مستخدمة يديّ الاثنتين، أجذبه إلى الأسفل بشدة، حتى تستطيع هي أن تربط الحلقة الموثوقة في نهاية الحبل منذ سنوات حول خطاف مثبّت في الأرض، من المفترض أنه تم تثبيته في الوقت نفسه تقريبًا. لطالما كنت أتعامل بحرص شديد مع الحبل منذ أن كنت في الثامنة من عمري وخففت قبضتي حوله قليلًا. أفلت الحبل القديم الخشن من بين يديّ، فسقط ظهر السرير على الأرض واصطدم رأسها مباشرة بالخشب اليابس. حينها كنا نبعد الوسائد عن الفراش في أثناء عملية الرفع، لأنها كانت تعلق أحيانًا في زاوية السرير بينما يرتفع جسدها، ولكننا لا نفعل ذلك الآن. جرى نهر صغير من الدم من تحت رأسها وانساب على حافة إطار الفراش. تفوهت جدتي باللعنات بينما تحركت نحوها متجنبة الدم وأدارت رأس «الشيء» القابع على الفراش لتفحص الجرح. لاحظت أن دمي يلطخ يديّ فقط عندما مددتهما نحو الحبل كي أعيده إلى مكانه. تمزقت يداي. لا أذكر الشعور بالألم، بل فقط صدمتي لرؤية الدماء. كنت قد اعتدت دماءها في تلك المرحلة، ولكن لم أكن قد رأيت دمائي أنا قط. ضُمدَت يداي لعدة أسابيع بعد هذا الحادث، وصرت أكثر حرصًا في أثناء عملية الرفع. نظفنا الأرض من دمائها، ولكن دمي لا يزال يلطخ جزءًا صغيرًا من الحبل، لكن صار لونه بنيًا وخفيفًا. لا يلاحظه أحد إلا نحن.

الحبل والحلقة والخُطّاف جزء لا يتجزأ من حياتي، ولكن أظن أنهم لم يكونوا موجودين منذ زمن. أظن أن جدتي وبابا يومًا أمسكا بزمام الأمور فيما يتعلق بـ«الشيء» القابع بالفراش، وقررا أنهما بحاجة إلى استخدام معدات ثابتة لحل المشكلة الدائمة.

يجب أن أنظر إليها الآن بعد تثبيت الحبل في مكانه. أشغل نفسي بترتيب الوسائد على مقدمة الفراش، تلك المقدمة التي رفعناها للتو. أستطيع أن أرى

أعلى رأسها. شعرها الأجرب وأسنانها وأظفار قدميها كلها «اللا لون» نفسه؛ مُصفَّاة من اللون. لا أستطيع أن أرى أسوأ ملامح وجهها من هذه الزاوية، فقط أرى بروز عظمة وجنتها وخدَّها الممتد الساقط أسفلها. دائمًا ما يبقى فمها مفتوحًا قليلًا إلا إذا ربطناه وأغلقناه، وهذا ما كنا نفعله كثيرًا كي نستطيع أن نطيقها. أُمسّد طرف الوسادة، وأنا حريصة على تجنب لمس خصلات الشعر التي شردت عليها. أقرر أنني سأنظر إليها في غضون لحظات. يحتاج الأمر مني إلى طاقة لا أملكها دائمًا.

جدتي واقفة عند حافة الفراش، تعيد ترتيب الأغطية، وتومئ لزوجة ابنها في طقس تحيتها الصباحية البالية لها. تخاطبها باللغة الأيرلندية قائلة: «اليوم يوم جميل». دائمًا ما تبدأ جدتي بإخبار «الشيء» بحالة الطقس، وكأن اليوم هو اليوم الذي سيُغري «الشيء» بالنهوض من الفراش عندما تسمع خبر أن اليوم جميل بالخارج.

تخبرها جدتي أن كل لياليها كانت هادئة بغض النظر عما حدث. الليالي ليست عادية طوال الوقت، ولكنها هادئة، فنحن لا نسمع «الشيء» القابع بالفراش يتحرك أبدًا.

أخرج ببطء من غرفة النوم إلى الردهة، بينما أخاطب جدتي قائلة: «سوف أسخن المياه». أما هي، فترفع الأرجل وتفحص الحفاض. نأخذها إلى المرحاض في النهار، ولكن ليلًا تعلمنا الدرس منذ زمن بعيد، نستعمل حفاضًا. كم أكره ذلك. لطالما كان تغيير الحفاض وظيفة جدتي، ولكنني كبرت، وصار عمري عشرين سنة تقريبًا، وأصبح من العيب أن أقف وأشاهد جدتي تجابه الأطراف الثقيلة الميتة وحدها.

عادة الآن أنني أرجل «الشيء» القابع بالفراش إلى الأعلى وأشاهد جدتي تنحني وتقوم بعملها بينهما. لقد انحنت جدتي بين أرجل نصف نساء الجزيرة، فقد كانت قابلة قبل أن أولد، وكانت أول مَن يحمل كل طفل يولد على الجزيرة. كنت

أنا آخر طفلة زلقة تمسكها وتحررها باستخدام المشبك والمقص، لكن لست أدري لماذا كنت الأخيرة. تقول إنه لم تعد هناك حاجة لخدماتها، ولكن تكررت الحوادث منذ ذلك الحين. ولد طفل في قارب في منتصف الطريق إلى البر الرئيسي وكان على وشك الموت متأثرًا بالبرودة حين وصلوا إليه. تولت نساء أخريات هذه المهمة على الجزيرة فيما بعد، ولكن تكررت الحوادث العثرة، حتى بدأت الأمهات يسافرن إلى البر الرئيسي قبل موعد ولادتهن بوقت طويل، وظللن هناك حتى يولد الطفل.

«لماذا لا يطلبونك؟» أكرر السؤال على مسامع جدتي كلما تترك الجزيرة على متن قارب مع الصيادين شابة نضج جنينها. كل مرة ترد قائلة: «لا يحتاجونني بعد الآن». ولكنها في الواقع تعني أنهم لا يرغبون في وجودها بعد الآن. لا يرغبون في وجود أي منا من الأساس.

(لم يرغبوا في وجودي قط)

عجيب حقًا أن يكون رد الفعل على وجودك إما تجاهلك أو التحديق إليك. يحدّق إليّ الأطفال بعيون واسعة وأفواه سوداء غبية عندما أخرج إلى الجزيرة، أما الكبار فيفعلون العكس؛ لا ينظرون إليّ إطلاقًا. يرونني قادمة أحيانًا بطرف أعينهم فيستديرون بعنف ويبتعدون. كانت الأمطار تنهمر بشدة يومًا بالقرب من المراسي القديمة، وكنت متدثرة بغطاء رأس السترة الخضراء الشمعية التي يحتفظ بها بابا على الجزيرة. رأيت ريني روش تقترب مني. كان نادرًا لسكان الجزيرة أن يقتربوا بهذا الشكل، وسمحت لي الحقيبة البلاستيكية الشفافة التي كانت ترتديها أن أرى الخبز والعلب المعدنية التي تحملها. اقترابها بهذا الشكل سمح لي أن أفحص كل تفاصيلها.

يشبه سكان الجزيرة بعضهم بعضًا نتيجة لانتقال المادة الوراثية بينهم لأجيال عدة. لقد ترسخت في شكل مميز وكريه. لجدتي وبابا الشكل نفسه نوعًا ما، أما أنا فبدرجة أقل، لأن أمي من خارج الجزيرة.

لسكان الجزيرة جميعًا مظهر الخائف والمحطَّم، كأنهم أجزاء من الجزيرة انفصلوا عنها والآن يتحركون جيئة وذهابًا. رؤوسهم تبدو ككتلة مشوهة، وعيونهم وأنوفهم وأفواههم يزاحمون بعضهم بعضًا على وجهوهم ويتمركزون في وسطها، أما الذقون والفكوك فهي بارزة مثل النتوءات الصخرية التي تمتد إلى المياه على الناحية المنخفضة من الجزيرة. لونهم الطباشيري الرمادي يشي بعدم وجود فوران الحياة بداخلهم. إن جرحت أحدهم، أظن أنني سأرى أعضاءه متحجرة ومُعَلَّقة بالخواء الداخلي. حتى الأطفال بالجزيرة متكلسون، فصراخهم وضحكاتهم تموت بداخل حلوقهم.

***

كانت ريني روش تحدق إلى الأرض، ولهذا لم تلحظ مَن القادمة أمامها إلا بعد أن وصلنا إلى الطرفين المتقابلين لبركة مياه كبيرة، والتقت أعيننا في انعكاسنا فيها، وأدركت أنني بيني وبينها ستة أقدام فقط. تراجعت إلى الخلف حتى كادت تقع وبصقت على الأرض. جحظت وابتعدت عيناها عني بسرعة بالغة، لدرجة أنني سألت نفسي إن أصابها شعور بالغثيان خلف مُقلتيها.

حاولت أن أبتسم كما دربتني جدتي بين الحين والآخر ولكن بلا فائدة، لأن ريني كانت قد استدارت بالفعل وأسرعت في الاتجاه الذي جاءت منه. قطعت الطريق الصخري المؤدي إلى بيتنا بخطوات غاضبة. لا يعنيني أن ريني هربت، ولكن كنت في حالة مزاجية سيئة لأنني شعرت بوخز في شفتيّ بسبب تلك الابتسامة المفاجئة التي شقَّت بشرة شفتيّ الجافتين.

***

عندما كنت أصغر سنًا، لم أدرك أن هناك رد فعل مختلفًا عما اعتدته لرؤية الناس لي، ثم ذهبت إلى البر الرئيسي للمرة الأولى. كنت سأزور طبيبًا معينًا، وتعيَّن علينا أن نمشي من المرسى إلى عيادته. كنت مريضة، وآلمتني معدتي كلما

فكرت فيما سيحدث في تلك الزيارة، فقد كان عمري ثماني سنوات، ومما سمعت من حوارات جدتي وبابا، ظننت أن هذا الطبيب سينظر بداخل رأسي ويقرأ أفكاري. أخافتني الفكرة، فهل سيعرف ماذا فعلت بالقطط؟ هل سيصله مدى استمتاعي بما فعلت؟ ثِقلها وهي تنزاح عن راحتيّ... تلك الكائنات التي ليس لها حول ولا قوة وهي تُقذف للأعلى في اتجاه السماء. هل سيعرف بما أشعر تجاه «الشيء» القابع بالفراش؟ قررت أن أحاول أن أفرغ رأسي، فتخيلتني أفتحه وأنحني إلى الأمام وأفرغه من كل هذا الحساء البشع في الشارع، قبل أن يمد يده ويتحسس مخي كالأعمى، ممشطًا خيوط الأفعال القاتمة المتشابكة بين أصابعه كالأحشاء.

ولكن لم يكتشف الطبيب شيئًا في تلك الزيارة، لقد تحدثت إليه بالكاد.

بل اكتشفت *أنا* شيئًا: لا يحدق إليّ الجميع أو يهربون مني. عند خروجنا للشارع بعد زيارة الطبيب، شعرت أنني أكثر هدوءًا، وبدأت أركز فيما أراه حولي. كانت المدينة منظّمة. هناك على الجزيرة طريق واحد أسفلتي للسيارات القليلة التي تسير بها، يصل هذا الطريق إلى منتصف الناحية المنخفضة من الجزيرة. تتفرع الطرق الأخرى كالعناكب من هذا الشريان الأسود الناعم. كل الطرق الأخرى غير ممهدة ومتمردة: ترتفع وتنخفض بالتناغم مع انحناءات الجزيرة. أهلكتها الأقدام التي وطأتها على مر سنين عديدة. تقود بعضها إلى أكواخ ومزارع حيوانات أو حقول وأراضٍ، والبعض الآخر يقود إلى حدود الجزيرة الجانبية بشكل مباشر. بالطرق مسحة من الحشائش بمنتصفها وبعض الصخور الرمادية اللينة المكسورة على الجانبين. الطرق القديمة منها منحوتة بعمق شديد في الجزيرة، حتى أنك لا تستطيع أن ترى ما هو أسفل الجوانب العالية. من السهل أن تختلط عليك الأمور وتُلفَظ في مكان غير متوقَّع.

الدرب المؤدي إلى منزلنا هو الأخير على الجزيرة، ومنزلنا هو المحطة الأخيرة قبل الوصول إلى حدودها. من الصعب تمييز دربنا القصير هذا من الحقول

الواقعة في مهب الرياح على الجانبين؛ لا أحد غيرنا يطأه، فلم تهلكه الأقدام. تغطي الطريق صخور ضخمة عنيدة وشجيرات هنا وهناك. تقع الحقول في مهب الريح في هذه المنطقة لأن الأرض تبدأ في الارتفاع فيها، ولذلك لا أحد يترك حيواناته هنا. لا نملك أي حيوانات كي نعتني بها إلا بالتأكيد تلك التي نعرفها جيدًا. من المثير للضحك أن نجدها أحيانًا في الحقول، ممددة في رطوبة الصباحات الرمادية.

أما في المدينة بالبر الرئيسي، فالطرق متوازية ومتعامدة على بعضها بعضًا في نظام مثير للإعجاب. بدت المباني وكأن لم يشيدها بشر لشدة إتقان بنائها. حتى حركة الناس كانت مختلفة: كانوا يسيرون بثقة وتركيز.

لا يخطو سكان الجزيرة خطوات عادية عندما يتحركون من مكان لآخر، بل تنزلق قدمهم المثنيّة والمتوترة من تحتهم إلى الأمام، ثم تتبعها الأخرى. تتمسّك أقدامهم بالأرض وكأن رفعها عنها مخاطرة غير محسوبة. نظر إليّ الناس على البر الرئيسي بلا مبالاة: لا مبالاة حلوة، رائعة، بل غير معقولة حتى الآن. لقد صعّبت عودتي للجزيرة وإنكار الإقصاء الذي أتعرض له. المقارنة بين الجزيرة والبر الرئيسي تعني أن ألمي الذي حملته منذ زمن قد بدأ يتبدل إلى «شيء» آخر أكثر إيلامًا. أفزعني هذا «الشيء»، ولم أعرف الكلمة التي تصفه لمدة طويلة.

---

(2)وردت في النص الأصلي باللغة الأيرلندية **Móraí** وهو اللقب الذي ينادون به الجدة بالأيرلندية (المحررة).

2

في المطبخ، أملأ الغلاية بالماء وأضعها على عين الموقد المتوهجة، وعلى العين خلفها، أضع الشوفان واللبن. المكان قارس البرودة، رغم أن هذا اليوم الصافي بشهر مايو يتباهى بنفسه في الخارج. الجو دائمًا بارد هنا لأن الحائط الذي يستند إليه الحوض والطاولات وسلال القمامة هو الحائط الحجري للمنزل، أما الحوائط الأخرى كافة فتغطيها مادة عازلة مبعثرة عشوائيًا وألواح خشبية. كان هذا الحائط معزولًا هو الآخر، ولكن حين اضطروا لوضع «الشيء» في الفراش إلى الأبد، جُرِّد هذا الحائط من ألواحه ليصنعوا منها فراشًا يسهل تفكيكه وتلك الحواجز التي يمكن تعديل طولها. عندما سألت جدتي عن سبب استخدام تلك الألواح، قالت باقتضاب: «لم يكن بمقدورنا أن نأتي بحِرَفي ليصنعها. لا يجب أن يأتي أحد إلى هنا».

الحائط دون أي عازل يعمل كموصِّل للبرودة، فهو مصنوع من خليط من الحجارة، أصغرها بحجم اليد وأكبرها بحجم الرأس. رُصَّت تلك الحجارة في مكانها منذ مئات السنين ولم تتحرك، تمامًا كالحوائط الحجرية الموجودة على الجزيرة كافة، بلا أسمنت ولا أي هيكل داعم. لا ينقطع حفيف الرياح من بين أحجار الحائط. تكون تلك الغرفة مظلمة جدًا في النهار، حتى أنه لا تظهر أي حجارة جيدًا، وكأن ضوء النهار حولها يداهمها بغتة ويخبئها. بدلًا من أن تتعلق عيناي بالحجارة، أراها تختفي في شبكة ضخمة غريبة، ويتوهج الحائط كله. باقي الحجرة عادية: يغطي الأرض مشمَّع شبيه بالسيراميك وقد بدأ ينثني عند الأطراف، وهناك غسيل على منشر متهالك يحيط به سخانان كهربائيان. تغطي الأطباق في الحوض بواقي حساء أمس الرمادي. هناك مفتاح صغير عالق بين حجرين في الحائط فوق الحوض. الفتحة العالق فيها صغيرة جدًا، حتى أن بابا دائمًا ما يطلب من جدتي أن تحضره له عندما يكون هنا.

أُدخِل إصبعي في الفتحة الجافة وأنتزع المفتاح بصعوبة. فوق محمصة الخبز

على يمين الموقد، هناك ما يذكرني بـ«الشيء» القابع في الغرفة المجاورة: مزلاج صغير يجب أن أمد يدي كي أصل إليه. إنه مغلق طوال الوقت، ويجب أن أتحرك على أطراف أصابعي كي أدخل المفتاح بحرص وأرفع المزلاج، ثم أفتح الباب. كل شيء حاد هناك: السكاكين والمقصات وماكينات حلاقة بابا والمفك وفتّاحة الزجاجات، وحتى الأقلام الرصاص والجافة. تُضاف أشياء جديدة كلما وَجَدَت استخدامًا جديدًا خطيرًا له. كنت صغيرة للغاية عندما بدأنا في استخدام هذا الدولاب. لا أعرف تحديدًا ماذا فعلت بالسكاكين، ولكني أعرف ما فَعَلتهُ بالمفك. أختار السكين المُسنَّن، وأقطع شرائح خبز الصودا، وأضعها بحرص في المحمصة. قد تتفتت.

نخبز يوميًا، فمن الأفضل ألا نضطر للذهاب إلى المتجر كثيرًا. عادة ما تَزِن جدتي المكونات الجافة ليلًا وأقوم أنا بالخبز صباحًا. يقبع الصحن الأزرق الثقيل بجوار المحمصة، وبه دقيق القمح الكامل والشوفان المطحون وبيكربونات الصوديوم والملح. تعرف يداي طريقهما، فأصُب اللبن الرائب والقشدة دون تفكير. أعجن الخبز ثم أضعه في قالبه ثم في الفرن، في الوقت نفسه الذي يستغرقه تحميص خبز اليوم السابق.

أسمع جدتي تتنهَّد في الغرفة المجاورة، ربما بسبب الحفَّاض. يقشعر بدني. أتوقف لبرهة كي أسمع ما يجري، فأسمع صوت جلبة وأنفاسها الثقيلة الدالة على الإجهاد. عليّ أن أدخل، فأنا في التاسعة عشرة من عمري الآن، ويقولون إنني سأصبح وحدي هنا بعد بضعة أيام فقط لا غير. جدتي ستذهب للعمل في المتحف الجديد طوال الصيف، وسأكون وحدي هنا من الأربعاء إلى الأحد من كل أسبوع. المتحف الجديد جزء من خطة البر الرئيسي الكبرى للجزيرة. يتشدقون بأنها «عودة إلى الماضي! قطعة محفوظة بشكل كامل من حياة الجزيرة القديمة». إنها خطة متغطرسة.

لقد جاؤوا إلى مصنع الحياكة القديم الربيع الماضي وعقدوا اجتماعًا مفتوحًا.

جرَّ ساكنو الجزيرة أقدامهم المتعبة إلى هناك. كانت جدتي معهم لأنها عَمِلَت بالمصنع بضع ساعات كل أسبوع قبل إغلاقه. كانت فكرتهم متوقعة: إن ظلت الجزيرة عديمة الفائدة للبر الرئيسي، فعليها أن تُدر دخلًا من السياحة.

خابت آمال الفريق المَرِح عندما أدركوا أن جدتي من أكبر سكان الجزيرة سنًا، وأنها ولَّدت أمهات نصف الموجودين في الغرفة، وأن لغتها الإنجليزية جيدة. ظنوا أنها ستكون الوسيط بينهم وبين سكان الجزيرة، ما أثار ضحك جدتي لاحقًا. إنها تتحدث الإنجليزية بسبب الأغراب الذين جاءت بهم إلى الجزيرة (جدّي الميِّت وأمي الصامتة). هؤلاء الأغراب سبب تجنُّب سكان الجزيرة لنا، والكلمات الأجنبية التي نستخدمها أكبر دليل على خيانتنا. المتحف مجرد ترس في ماكينة أكبر. تبحر العبّارة - مجرد قارب صغير - منذ العشر سنوات الأخيرة. جاء السياح إلى الجزيرة ولم يجدوا ما يفعلوه هنا. سيحتاج الناس إلى أن يجدوا ما ينفقون عليه أموالهم هنا إن استمرت العبّارة في جلبهم إلينا. تبحر العبارة في الصيف دائمًا صباحًا ومساءً، تاركة سيَّاحًا مرتابين على تلك القطعة من الصخر، وحاملة آخرين قضوا يومهم هناك، يبتسمون في مهب الرياح، ويتساءلون في قرارة أنفسهم عن سبب الرهبة التي تعتمل بداخلهم. توقعت جدتي أن تلك الرهبة والرياح والملح ستأكل آمالهم في أن يجعلوا الجزيرة مزارًا سياحيًا بالتدريج.

تغلي المياه وأصب الشاي، يسعدني أنني مشغولة، حتى لا أضطر أن أسأل جدتي إن كانت بحاجة إلى مساعدة. غطاء المنضدة في المطبخ دائمًا لزج ولا يجدي معه التنظيف. أخرج الأطباق والسكاكين والمربى والزبد، وأسرع إلى الموقد كي أقلب «البوريدج»، عصيدة الشوفان. أجده جاهزًا، فأصبه في صحن. سوف يبرد بينما نأكل، فلا نستطيع أن نعطيه لـ«الشيء» القابع بالفراش وهو شديد السخونة، لا توجد إشارة لنا تخبرنا أنه ساخن بشكل لا يحتمل. أنادي قائلة: «الإفطار جاهز»، وأنزلق في مقعدي، مولية ظهري إلى الحائط الذي تأتي منه

الرياح. تنضم إليّ جدتي، وتولي ظهرها إلى الحائط أيضًا، وتخبرني أنها «كانت مبتلة قليلًا»، وكأنني طرحت عليها سؤالًا أو أظهرت أي علامة على الاهتمام بالأمر. سوف نغير ملابسها بعد أن نأكل.

بابا قادم غدًا، فهو آخر يوم جمعة بالشهر، وهذا موعد زيارته عادة. يظل معنا لمدة أربع وعشرين ساعة بالضبط، ويأكل ثلاث وجبات معنا (عشاء وإفطار وغداء)، ويقضي بعض الوقت في حجرة الشيء، ثم يعد النقود التي يتركها في درج التسريحة ويمضي. أكره الأكل في أثناء وجوده، لأننا نضطر إلى سحبها من حجرتها ووضعها على مقعدها، ونتظاهر أننا دائمًا ما نتركها هنا في ركن المطبخ في أثناء الغداء والعشاء، ولكن في الواقع لا نفعل ذلك. لا نخبر بابا بالحقيقة.

بعد أن نأكل كعكة التفاح، نحرك مقعدها بعيدًا عن المنضدة ونحمله من ظهره وأرجله وننقله بملل إلى حجرة الجلوس، وهي أشبه بضريح نجلس فيه فقط مع بابا عندما يزورنا مرة شهريًا. نغطي منطقة الخصر بشال منسوج بغرز ضيقة من القطن والموهير كي نخبئ الأحزمة التي تربط «الشيء» بالمقعد.

نبدأ التحضير لزيارة بابا في اليوم السابق له، أي اليوم. نحمم «الشيء» ونجففه. ملابس جديدة، ملاءة جديدة. نغسل شعر «الشيء» وأسنانه. نضع «الشيء» في حوض الاستحمام كل يوم خميس، ولكن في أيام الخميس التي تأتي قبل مجيء بابا، نأخذ وقتنا.

أضع الزبد على الخبز ثم أضع المربى. الملح والسكر والدهون لذيذة. تهب الرياح خلفي من خلال الحائط، تتخلل شعيرات رأسي الدقيقة وتوقفها. أنصت للرياح، وأحاول أن أسمع صوتًا آخر غير حفيفها، ولكن لا صوت آخر اليوم.

3

أحضر لها «البوريدج» في الفراش وأطعمها وهي جالسة عليه، ثم توضع في مقعدها. مسند الفراش يساعدها على الجلوس بشكل مستقيم، إلى درجة أنك قد تظن معها أنها ستفتح فمها وتتكلم. لا تتكلم، فلم أسمع صوتها قط. أقف بجوارها على الناحية اليمنى من الفراش، رغم إمكانية إنزال حاجزه، إلا أنني لا أهتم. الجلوس دلالة على الحب، ولكن هذا أشبه بالمعاملة التجارية، مجرد مهمة مملة.

كان ذلك الفراش مكاني في طفولتي تمامًا كما هو مكانها. أتسلقه وأجلس على طرفه، وتتدلى قدماي في الهواء تمامًا كما تتدلى على التلال خلف منزلنا. حينها كنت أحفزها للحركة أو الكلام. كنت أدفن وجهي في شعرها، وأضع ذراعيَّ حول جسدها المتيبس والمتصلب. كنت أرغم ذراعيها العنيدتين على احتضاني. كانت كجزيرة، أحاول أن أستعيدها. بدأت تؤلمني تلك المحاولات بمرور الوقت. تسببت في ألم في صدري وأحزنت قلبي. آلمتني المحاولة أكثر من عدمها، ولهذا توقفت عن المحاولة. لا أعرف عمَّ كنت أبحث تحديدًا؛ كنت أحاول تلبية احتياج لم أجد له مسمًّى. كان كجوع يثقل ذراعيَّ، شيء لم أره قط بعينيَّ. أشارت لمحات الأمومة التي كنت أراها على الجزيرة إلى وجود لغة كاملة لا أعرف عنها شيئًا، لغة اللمسة التي تأتي دون تفكير، تلك اللمسة التي لا تنتظر مقابلًا: أيدي تُرَبِّت على وجنات، وشفاه تطبع القبلات وكأنها تترك رسالة ما. أمهات الجزيرة يمددن أيديهن لأطفالهن خارج المتجر، والأطفال يتجاهلوهن في ضجر، وهم مدركون تمامًا أن أمهاتهم سوف يدعمنهم دائمًا وعلى أهبة الاستعداد ليمددن إليهم أيديهن المُحِبَّة. لا أحد يمد إليَّ يده أبدًا. يدا جدتي عمليتان، فهما فقط تؤديان مهامًا بعينها. حتى عندما أكون مريضة، تجس جبيني بظهر ذراعها. أحيانًا أتخيل أن تلك الصغيرة ما زالت هنا في الحجرة معنا عندما أجلس في غرفة «الشيء» طريح الفراش، ولا تزال تلصق وجنتها بـ«الشيء» وتحتضنه وتضع يديه على وجهها، ولا يحدث أي رد فعل.

لذلك لا أجلس على الفراش. يولّي الشيء رأسه شطر الاتجاه الآخر، بعيدًا عني، فأديره إليّ من فكّه كي يواجهني. عينا «الشيء» مفتوحتان، لكنهما دائمًا تنظران للأسفل، وتتحركان بسرعة في محجريهما. لا ينظر إليّ «الشيء» بشكل مباشر أبدًا. أقلّب «البوريدج» كي يتجانس، وأبدأ في إطعامه. يأكل دون أن يُحدِث فوضى، فلا أحتاج إلى مريلة أو منديل مائدة أبدًا لـ«الشيء» طريح الفراش. نعطيه طعامًا سهل البلع: «بوريدج» للإفطار ومزيج مطحون من اللحم المغلي والخضروات على الغداء والعشاء، ومسحوق «البودنج» باللبن كحلوى.

تقول جدتي إن إطعام «الشيء» أخطر ما نقوم به، لأن طريحي الفراش معرضون للاختناق بسهولة، أو أن يصابوا بالالتهاب الرئوي إذا دخل الطعام أو الشراب في المكان الخطأ. تقول جدتي إن نقلها إلى المستشفى هو أسوأ ما يمكن أن يحدث. لا أفهم السبب، ولكن أشعر أن هذا مرتبط بحمايتنا لأنفسنا وليس مصلحة «الشيء» طريح الفراش. توقظ فكرة أعين الغرباء التي قد تخترق منزلنا وتدرك مدى التعفن الذي أصابه شعور بالعار العميق بداخلي. لا أدري كيف تبدو البيوت الأخرى، ولكن أعرف أن حالنا ليس عاديًا بناء على هذا الاستعراض الذي نؤديه لبابا كل شهر.

تصبح قضماتها بطيئة عندما تشبع، ونادرًا ما تأكل كل ما في الصحن. أتأكد من أنها لم تُحدِث فوضى. أبقي عينيّ على أجزاء صغيرة من وجهها كل مرة، فأنظر إلى كل جزء وحده، وهذا أسهل بكثير من النظر إليه كله في الوقت ذاته. أسلوبي في النظر إليها بشكل مجزأ يحميني من الصورة الكاملة القذرة. على الرغم من فساد الفم الذي يستسلم له طعامها، لا تترك مسحة واحدة من «البوريدج».

4

عليّ أن أُحرّك «الشيء» من الفراش إن أردت تحميمه، فأُنزِل حاجز الفراش الجانبي. هناك حزامان معلقان على مسمار مُثبّت بالحائط بجوار الفراش. أُمرر أحدهما أسفل جسدها كي أربطه حول صدرها، والآخر أدسه أسفل فخذيها وأربطه هو الآخر. أفُك أزرار ثوب النوم الذي ترتديه بينما أثبت الحزامين. كل أثواب النوم التي ترتديها بها فتحة من الخلف من الرقبة إلى الطرف. أسحب المقعد الذي نستخدمه كي نحرك الشيء. الأمر بسيط: أضع المقعد بجوار الفراش حيث يوازي زاويته ثم أمد يدي وأسحبها من الحزامين تجاهي وإلى المقعد. أفك الحزامين وأعيد ربطهما حولها كي أثبتها إلى المقعد، ثم أُميل المقعد حتى يستند إلى رجليه الخلفيتين وأسحبه من الخلف خارج الغرفة. حفرت أرجل المقعد آثارًا على أرضية البيت. الأرضيات مليئة بقنوات سببها تحريك المقعد، تلك القنوات التي تمثل خريطة عالمها. القنوات الأعمق هي التي تمتد من حجرة نومها إلى المرحاض ومن حجرة النوم إلى المطبخ. أما القنوات التي تمتد من المطبخ إلى حجرة الجلوس فهي ليست أكثر من مخالب باهتة على الخشب.

أدفع وأسحب المقعد في طريقنا إلى المرحاض. يلمس كعباها الأرض أيضًا ويحتكان بها بفعل حركة المقعد. أستطيع أن أقوم بهذه الرحلة مغمضة العينين، فقد حفظت عن ظهر قلب كل شق وكل عقبة في الطريق تتطلب دفعة معينة كي نتخطاها. المنطقة الملساء هي تلك المنطقة التي تلتقي فيها الطرق إلى المطبخ والمرحاض وتتقدم بشكل مباشر إلى الصالة. ثم نأتي إلى مرحلة ضبط سريعة للمقعد في النقطة الفاصلة بين الاتجاه يسارًا إلى المطبخ أو إلى الأمام نحو المرحاض. يجب عليّ أن أعيد المقعد إلى وضعه الطبيعي على أرجله الأربع، ثم أمسك الرجلين الخلفيتين وأثبتهما في الشقوق الصحيحة.

إعادة المقعد إلى وضعه الطبيعي على أرجله الأربعة دائمًا ما يتسبب في أن تعلق ساقاها بشكل غريب بين المقعد والأرض، فتنعقدان بشكل عشوائي

وتكونان بحاجة إلى إعادة ضبط. أواجهها وأنحني كي أمسك كل ساق - قبضتي تنغلق بشكل كامل حولها فيكون من الصعب التفرقة بينهما وبين رجلي المقعد الخشبيتين - وأضبطهما بشكل مستقيم ثانية وأعود إلى موقعي خلف المقعد. ستتدلى قدماها وتتأرجحان على أي حال، ولكن يجب أن أضبطهما، لأنني لم أفعل في مرة من المرات، فعلقت قدمها بشظية من الخشب البارز بالأرض وتمزق الجلد وكأنه ورقة. لم أرَ أثر الدم الذي تتبعنا حتى وضعتها في حوض الاستحمام. صَرَخَت فيّ جدتي حينها، فأي نوع من الإصابات خطر على طريحي الفراش.

وصلت بها إلى المرحاض الآن بأرضياته ذات اللون الأخضر المثير للغثيان، ولكن تغطي الأرض بشكل كامل تقريبًا دوّاسات من المطاط. البرد قارس. الأسطح السيراميكية المغطاة بالصقيع شديدة البرودة، لدرجة أنني عندما ألمسها لا أستطيع أن أدرك على الفور إن كانت أصابعي تلمس سطحًا شديد الحرارة أو سطحًا ثلجيًا. دُكَّ سقف هذا المرحاض منذ سنوات، كاشفًا عوارضه، أما السطح أعلاه فقد تآكلت منه أجزاء، ما يجعل هذا المرحاض أشبه بقناة مستقيمة باتجاه سماء الجزيرة التي لا ترحم، لا غرفة عادية. العوارض السميكة بالسقف هي التي تساعدنا على تحميمها واستخدامها للمرحاض، فمن أحد العوارض فوق حوض الاستحمام تتدلى بكرة وحبل يسير من خلالها. يؤدي أحد طرفي الحبل إلى وتد كان جزءًا من قارب سابقًا، ولكن صار مثبّتًا بالحائط الآن. يتدلّى الطرف الآخر على حافة حوض الاستحمام، وهناك شريطان منسوجان مثبتان بالناحية الأخرى التي يتصل بها خُطّافان كبيران. أنشغل بفك الأحزمة حول جسدها وإعادة ربطها، بحيث يتم فكها من المقعد وتكون حول جسدها فقط. أُنزِل الأكتاف القطنية لثوب النوم الذي ترتديه، وأثني الذراعين والكفين عند الحاجة حتى يتسنى لي أن أحرر ثوب النوم منها. أسحبه من أسفل الحزام الملتف حول صدرها، ثم الحزام الملتف حول قدميها.

أحاول أن أنظر إلى أجزاء صغيرة من جسدها، تمامًا كما أفعل مع وجهها. أبحث فيه عن كدمات أو قُرَح جديدة، وأتأكد أن قرح الفراش القديمة قد التأمت، فيجب أن نراقبها كلها عن كثب. إن جسدها حقًا مجرد بقايا إنسان، ولكن علينا أن نراقب تآكله على أي حال. تذكّرني جدتي دائمًا أن أي مشكلة صغيرة لا نهتم بها قد تترتب عليها عواقب وخيمة بالنسبة إلينا. مزعجة هي طيّات جسدها، فرغم كونها أقرب إلى جثة هامدة متيبسة، تجد البكتيريا والفطريات الانتهازية فيها شيئًا من الحياة، وتتكاثر في الأماكن التي ينثني فيها جلدها ويكون سميكًا. أرفع ثدييها واحدًا تلو الآخر كي أزيل قطع القطن الصغيرة التي نضعها تحتهما كي نقلل من احتكاك الجلد ببعضه بعضًا. البشرة تحت ثدييها حمراء ورطبة. سأنضح المنطقة بمطهر بعد أن أنتهي من تحميمها.

أفُك الحبل من الوتد المثبّت بالحائط. أستطيع الآن أن أحرك الخطافين إلى الأحزمة المربوطة حول جسدها عندما يرتخي الحبل. أترك أحد الخطافين الباردين على بشرة ثديها. بالتأكيد هذا يمكن أن يُشعرها أنني أضع على بشرتها علامة كالبهائم، ولكنها تظل ساكنة، بينما تتحرك عيناها بسرعة في محجريهما. أزيل عنها الخطاف، وأربط الأحزمة، ثم أجذب الحبل حتى يصير مشدودًا. يرتفع جسدها، فأعيد ربط الحبل بحرص حول الوتد. أولي وجهي شطر الوتد، وأخطو خطوة إلى الوراء، ثم أدفع المقعد للجانب بقدمي حتى أستطيع أن أقف وظهري نحوها وأقود جسدها إلى الخلف نحو حوض الاستحمام، بينما أخفض جسدها إليه تدريجيًا. أفك الأحزمة عندما يلمس جسدها حوض الاستحمام، وألف الخطافات إلى الأعلى وأبعدها. أمزق الشرائط اللاصقة عن الحفاض الذي وضعته عليها جدتي وأجذب مقدمته إلى الأسفل. تتصاعد الرائحة، رغم عدم مرور وقت طويل على وضعه. تفوح من الأجساد غير المستخدمة رائحة كريهة. تفوح منها رائحة أسوأ من رائحتنا، لأن الرائحة تتخمر في الثنايا. إنها آسنة، إنها تتعفّن. ننظفها بين مرات الاستحمام، ولكننا نقاوم مدًا من بحر زنِخ. نقاوم، ولكنه يعود ثانية، وهكذا. لا تزال رائحتها مقرفة، كرائحة البراز والفاكهة العطنة.

أفتح الصنبور ويمتلئ حوض الاستحمام حولها ببطء. أمسك خرقة زرقاء من الكومة الموجودة على الرف أعلى الحوض: الخرقة الزرقاء للجسم، والبيضاء للوجه. أضع الصابون على الخرقة ثم أمررها على طول الحواف المموجة لصدرها وأضلاعها. أحشر الخرقة في المنخفضات العميقة بعظمة الترقوة. أمررها على كتفيها، وأعرج بها إلى تجويفي إبطيها. يداها مشكلة، فقد تآكلتا إلى درجة العدم تقريبًا. أدخل سبابتي اليمنى من خلال الخرقة بين ما تبقى من أصابعها. لقد اعتدتها، ولا أبالي بها، ولكن في كل مرة أرى فيها يديها، ينتابني الاشمئزاز. يداها مهترئتان. لا يتبقى من أظفارها سوى أظفار إبهاميها. تنتهي معظم أصابعها عند المفاصل. لقد تآكلت سبابتها اليمنى بالكامل، وتمتد العظمة كمعول صغير خارج من اللحم.

يداها ملتئمتان الآن، إن جاز هذا القول. لكن الجروح القديمة تنفتح كل بضعة أشهر وكأنها حريق يشتعل ثانية. الجروح ملتئمة اليوم، فأكمل تحميمها بسرعة. من خلال الخرقة أمرر أصابعي بين أصابع قدميها، وأفرك ساقيها وركبتيها وفخذيها، ثم بين ساقيها. ألقي الخرقة بالحوض بجوار الباب وأسحب أخرى بيضاء من الكومة. أركع وأقترب من وجهها، عيناها تتحركان بسرعة في محجريهما العميقان كالأسماك المضطربة التي يتم اصطيادها في البرك الصخرية على الشاطئ.

دائمًا تقول جدتي إن الوجه هو أكبر مشكلاتنا. حتى إن أردنا الخروج بها من المنزل فلن نستطيع. ربما كان باستطاعتهم أن يخرجوها من المنزل في البداية، ولكن كلما مرت السنوات وأصبح شكلها أكثر إثارة للاضطراب، تصير احتمالية إظهار «الشيء» (إظهارها) للآخرين شبه مضحكة لشدة جنونها.

تقول جدتي: «سيقولون إننا فعلنا ذلك بها».

(ألم نفعل؟)

تقول أيضًا: «في البداية كنت أظن أن إخراجها من المنزل كي تكون وسط أهل الجزيرة أمر بالغ الخطورة *عليها*، ولكن الآن صار ذلك بالغ الخطورة علينا نحن». لا تستطرد جدتي في شرح كلامها أبدًا.

لا أفهم ذلك، وتعبيرات وجه جدتي تكون خاوية كلما سألتها مثل تلك الأسئلة، ولهذا لا أتعب نفسي بالسؤال. الإجابات التي حصلت عليها غامضة للغاية، حتى إنها مثيرة للغضب أكثر من عدم وجود إجابات من الأساس.

البداية التي تتحدث عنها جدتي هي عندما كنت صغيرة جدًا، أظنها تعني بعد يوم ميلادي مباشرة. لم يخبرني أحد بشكل مباشر، ولكن عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، سمعت بابا يتحدث إلى «الشيء» في غرفته. كانت كلماته كالغصة في حلقه، فخرجت في شكل شهقات متقطعة. لم أشهد بكاء الكثير من الناس في حياتي، فقط ساكنو الجزيرة وهم يسيرون خلف النعوش، وأحيانًا نساء الصيادين على الشاطئ. قد تبكي جدتي، ولكن لم أرها تبكي قط. أظن أنني كنت أبكي وأنا أصغر سنًا، ولكني توقفت عندما صار بلا جدوى. ذلك اليوم عندما أتممت عامي الثاني عشر وانتظرت كعكة عيد ميلادي (لا نعرف يومًا محددًا لميلادي، فقط أعرف أنني أتمم سنة جديدة كل شهر يوليو)، سمعت كلماته المختنقة بينما تحدث إلى «الشيء» طريح الفراش: «أتذكر كل شيء كلما كبرت، لا أستطيع أن أتحمل. كلما كبرت، يمر الزمن، ولكن لا يقل الألم. أفتقدك».

أتذكر أنني شعرت بالضيق، وسألت نفسي: «لم تفتقدها؟ إنها هنا طوال الوقت، ولكنك لا تأتي لتزورها، وأنا هنا، ولكنك لا تقول لي إنك تفتقدني أبدًا».

يكرهنا سكان الجزيرة، لكني لست متأكدة منذ متى تجذّرت تلك الكراهية. وِلدت جدتي هنا على أرضية هذا الحمام نفسها. عائلتها كلها من ساكني الجزيرة، أما الرجل الذي تزوجته فلم يكن من ساكني الجزيرة، بل من البر الرئيسي. لا أظن أن المشكلة بدأت حينها. الصور التي رأيتها لبابا وهو ولد صغير تملأها الوجوه الباسمة: جدتي جالسة على شاطئ الرمل الرمادي، وشعرها الأسود الداكن يطير

إلى خارج نطاق عدسة الكاميرا، بينما تحدق إليها، وبابا وهو طفل بدين بين ركبتيها. صور لبابا وهو في العاشرة، في الثانية عشرة، في الخامسة عشرة وهو جالس في قارب *والده*، ممسكًا بالشباك في الصيف. تلك الصور موضوعة على رف مرتفع، تكاد ألا تراها إلا إذا بحثت عنها، وهذا أفضل، فإن تعليقها سيكون إدانة لأسلوب حياتنا الحالي، ليس إلا.

حتى صور بابا بعد أن جاء بأمي إلى الجزيرة تفوح بأمل غريب عليّ.

تلك الصور ليست حتى على الرف، بل في الخزانة الجانبية تحت الوثائق والجرائد القديمة. إنها قليلة، ويبدو أنها التقطت في اليوم نفسه، ويظهر فيها بابا وشابة وهما يضحكان. شعرها شاحب اللون للغاية وجسدها صغير، ولكن يغلب عليه بطن حامل ضخم في وقت التقاط الصورة. بطنها كبير إلى درجة يصعب تصديقها، وفي كل مرة أتذكر الصورة، أقول لنفسي إنني لا بد أنني أظنه أكبر من حجمه الحقيقي وأكثر وحشية، فأعود للصورة، وأكتشف أنه حقًا شيء ضخم يسيطر على جسدها الصغير.

الأسئلة التي حاولت طرحها من قبل أسئلة بسيطة:

ماذا حدث بعدما جئت *أنا* إلى الوجود؟

هل هي مريضة؟

هل ستتحسن؟

كيف كانت؟

مَن فعل هذا بها؟

رد فعل جدتي هو أن تكبت مشاعرها، وتتمتم لي باللغة الأيرلندية: «لا تتحدثي عن هذا الموضوع». تتغير ملامحها وكأنها تختفي بداخلها، فأعرف أن حديثي بلا جدوى. رجوتها وتوسلت إليها وصرخت فيها بين الحين والآخر، ولكن تجهم

وجهها أكثر، وأجد نفسي كل مرة أضرب رأسي بحائط صمتها.

هناك سؤال لم أطرحه قط. في تلك الليالي التي نجدها بعيدة عن الفراش، بينما ترنو يداها المهترئتان إلى العدم، تؤرقني هذه الفكرة: هل يحاول «الشيء» طريح الفراش الهرب؟ هل نحن السبب في حالتها؟

أجلس بالقرب من حوض الاستحمام كي أبدأ في تنظيف وجهها، فأضم إبهامي وسبابتي معًا من خلال الخرقة كي أمررها على طرف عظمتي وجنتيها. وجهها تنقصه الدهون، فتتدلى منه تلك العظمة الشبيهة بالسكين. الظلال بالأسفل تُظهر بشرتها المشدودة ومِفصل فكّها وحتى علامات على وجود أسنانها الخلفية بالداخل، لأن فمها مفتوح كالعادة، وتعلو شفتيها القشور. فمها من الداخل جاف بشكل غريب. إنه بئر جافة. تُطعم وتُسقى كثيرًا، ولكن تيار الهواء الداخل لفمها لأنه مفتوح دائمًا يسبب تبخُر الرطوبة خلال دقائق. لسانها شاحب كالغبار. أنفاسها بطيئة وعالية الصوت، ولكن ربما يعود هذا إلى سكون جسدها. يُصدر الهواء صوت صرير بينما يدخل صدرها، حتى يصل إلى نهاية الشهيق، ثم تسمع صوت طقطقة في عمق الجزء الخلفي من جمجمتها، ثم لا شيء للحظة، قبل أن يدور النَفس وينزلق للخارج، محدثًا صفيرًا ضعيفًا.

أخيرًا يأتي دور تجويفي عينيها. أمرر أطراف أصابعي على عظمتي محجريهما وأمسح ما حولهما بحرص كي أزيل أي تراكمات من الغبار أو القذارة أو الغمَص. لا تغمض عينيها حتى عندما أؤدي هذه المهمة الدقيقة، بل تتحركان من ناحية للأخرى. لا تهدأ العينان أبدًا. لم أرَ جفنيها مغلقين قط. هل ينام «الشيء»؟

انتهينا الآن. لديها القليل من الشعر بحاجة للغسيل. غسيل شعرها كان يطيل وقت تحميمها للضِعف، لأن بابا يحب شعر «الشيء»، ولكننا قصصنا شعرها كله منذ سنوات، ولصقت جدتي وخيطت الشعر الطويل الشاحب والخشن كالأوتار المصنوعة من أمعاء الحيوانات إلى قبعة شبكية ضيقة وصغيرة. نضعها على رأسها وننزعها الآن حسب الحاجة. ولا يسأل بابا عن الشعر، مع أنه لاحظ ما

فعلناه بالتأكيد، فمنظره غير طبيعي.

أمسك قطعة الفوم السميكة التي تقف بين نهاية حوض الاستحمام والمرحاض، تلك التي نُزِعت من المقعد الخلفي لسيارة مهجورة منذ سنوات. ملمسه غير مستحب وخشن قليلًا. تلتصق الألياف الصغيرة ببشرة يدي الخشنة. ألقي قطعة الفوم على الأرض تحت البكرة مباشرة، ثم أفك الحبل من حول الوتد خلفي، وأدور كي أسحب الخطافين للأسفل ثانية. أقودهما إلى الأحزمة بحرص كي لا أجرحها، فهذان الخطافان صدئان، وأكثر حدة من تلك الموجودة فوق الفراش. أرخي طرف الحبل ناحيتي للأسفل كي أخلق مقاومة تمنع الخطافين من الانفلات. أعيد الإمساك بالحبل، وأتكئ إلى الخلف كي أضع ثقلي ضد الجاذبية. أرفعها كأنها شيء أنقذه من مياه الخليج. إنها حطام. يكاد يغوص الجلد أسفل قفصها الصدري وكأنه شراع صغير في مهب الرياح، والعظام هي ما تبقيه في مكانه. وعند الجانب السفلي، تهبط فقرات عظامها كعارضة السفينة. بينما تمر على حافة حوض الاستحمام، تؤدي زاوية البكرة إلى تأرجح بدن «الشيء» أمامي. جسدها هزيل، ولكن على الرغم من ذلك، له ثِقَل، ويجب أن أتعامل معه بحرص كي لا أنزلق. تتساقط من جسدها المياه بغزارة فوق طرف حوض الاستحمام وتقطر على قطعة الفوم بالأسفل. عندما يستقر جسدها، أرفعها قليلًا ثانية، حتى يصبح جسدها في مواجهة صدري، وهذا يجعل تجفيفها أسهل بالنسبة إليّ، فأتمكن من تجفيفها من جانبيها ومن أسفلها. يتوقف تساقط المياه من جسدها تدريجيًا، حتى يتحول إلى قطرات، لا أكثر. إنها تتلألأ. يخبرني ضوء النهار الباهت الذي يصل إلينا في قاع الحفرة التي نحن فيها أن الوقت يقترب من الظهر. لقد استغرق ذلك مني ساعتين تقريبًا وسئمت. الزمن في هذا المنزل ثقيل وبطيء الحركة. تباطأ كل شيء منذ زمن كي يتماشى مع وتيرة الحياة بهذا المنزل. أظن أن الدم في عروقنا يسير ببطء هو الآخر.

يستغرق التعامل معها وقتًا أطول من دون جدتي، ولكن عليّ أن أعتاد ذلك.

سوف تنشغل جدتي بالمتحف بدءًا من الغد وحتى انقضاء معظم أيام الصيف. أمرر يدي على بركة المياه التي دائمًا ما تتكون في تجويف معدة «الشيء» طريح الفراش، ثم أفحص القُرَح. نُقلِّبها ونُقلِّبها ونُقلِّبها في الفراش، ولكنها معركة مستمرة. الأمر شبيه بإصابة القارب بالصدأ، فعندما تتشقق البشرة، يتآكل الجلد السليم بسرعة. نشطفه ونجففه. تجفيفها بالغ الأهمية، فأي رطوبة سوف تؤدي إلى الالتهاب. نعيد لصق الجلد الأسود الميت في مكانه. أحيانًا نحتاج إلى قصه وإزالته، وتظل هي صامتة بينما نقوم بذلك. لا تُظهر شعورها بالألم، هذا إن شعرت به بالأساس.

إنها معلقة أمامي الآن بشكل أفقي، ورأسها ساقط إلى الخلف، بينما تتدلى أطرافها. تمر عيناي عليها، وأفحص كل مستعمرة من مستعمرات الجروح الحالية.

تظهر الجروح المتعفنة عند الأماكن التي تضغط بها بجسدها على الفراش، وتتنوع في اللون والملمس. معظمها حاليًا ليست بهذا السوء، بل مجرد بقع حمراء هنا وهناك، ولكن أحفظ أماكنها كي أضع البطانات على تلك المناطق عندما تعود إلى الفراش. نستخدم دوائر من الفوم وجلد الغنم كي ندعم جسدها ونوزع ثقلها، كي لا يكون متمركزًا في مكان واحد.

هناك واحدة بحالة سيئة الآن خلف كتفها اليمنى، وأراقبها عن كثب منذ فترة، وترُد إليّ النظرة دون أن تغمض ولو للحظة. إنها تشبه عين الزواحف، أو على الأقل تشبه الصورة التي أعرفها عن الزواحف من قراءة الموسوعات القابعة على الرف بغرفة الجلوس. القرحة بحجم راحة يدي تقريبًا بالنظر إلى أطرافها. لونها أصفر من المنتصف ومليئة بالقيح، تحيط بها دائرة سوداء ينطفئ لونها تدريجيًا حتى تتحول إلى طبقة من القشور الحمراء. في قلبها حدقة ضيقة بيضاوية حيث ينشق الجلد. إنها حفرة عميقة لدرجة أن لونها أسود تمامًا. المرة الأخيرة التي رأيت فيها حدقة العين تلك، لم أستطع أن أقاوم الحاجة لمعرفة مدى عمق هذا الشق. رفعت فراشها حتى أتمكن من أن أقف خلف كتفها، وانتظرت حتى

ذهبت جدتي لحقل زراعة الخضروات، وجئت بسكّين. أشعلت عود ثقاب وتركت الشعلة تُسَخّن طرفها حتى حرق عود الثقاب أطراف إصبعي، ثم اتجهت بالسكين نحو تلك حدقة العين اليقظة. اقتربت منها ثم أدخلت الناحية الساخنة برفق في تلك الحدقة التي تشبه حدقة السحلية. توقعت أن تُغمض العين ولو للحظة، ولكن لا، كان يبدو أنني بإمكاني أن أضغط كما أحب. انتفضت أمي قليلًا، ولكن لم تصدر صوتًا، فهي حيوان مطيع. كان بإمكاني أن أضغط كما أحب، ولكني أوقفت نفسي، فإن ساءت حالة العين، ستكون مشكلتي ومشكلتي أنا وحدي، سأعاني أنا من تقيحها.

عند فحصي لها الآن، أجد أن العين تسوء، وتبدو أكثر حيوية. العين تكبر وتبكي، وتُظهر علامات حيوية أكثر من تلك التي تظهرها أمي.

تجفيفها أشبه بتلميع قطعة قديمة من الأثاث، فهي أمي التي تماثل القطع العتيقة «الأنتيكا». تجف مقابض كوعيها وكاحليها وركبتيها جيدًا، ولكن يجب أن أبذل جهدًا عظيمًا كي أجفف مناطق أخرى. بشرة فخذيها وأردافها وظهرها وثدييها - أي مكان يجب أن تتراكم فيه الدهون - مشدودة كجلد الطبلة وشفافة وعُرضة للتشقق.

خدش صغير وستنسكب كل دواخلها. مع أنني أشارك في عمليات جسدها الحيوية القذرة يوميًا، إلا أنني لا أصدق أن لها أعضاء داخلية من الأساس. إن فتحنا بطنها، أتخيل ألا نجد إلا قمامة مطبخ وماء صدئ ينسابان للخارج.

تقُر جدتي أمام الباب المفتوح ومعها مجموعة المعدات التي ستستخدمها لاحقًا لتنظيف الأرض. تهمهم دون أن تلتفت إليّ: «دعيها تستخدم المرحاض، لقد استغرقت وقتًا طويلًا». أراقبها بينما تتحرك على الأرض المشوهة، ثم تجلس على ركبتيها أمام حفرة كبيرة على مستوى باب غرفتي نفسه. يخرج الهواء من رئتيها في تنهيدة عميقة بينما تجلس على الأرض. يجب أن نولي اهتمامنا دائمًا للخدوش التي يحدثها «الشيء» طريح الفراش في الأرض قبل مجيء بابا. لقد

أتقننا طريقة التنظيف. كنا سابقًا نغسل الخشب الملطخ بالدماء حتى تتكون رغوة وردية اللون، ولكن هذا لا يزيل البقع أبدًا. الآن نترك الخدوش حتى تجف تمامًا، ثم نحفرها حفرًا من الأرض باستخدام ورق الصنفرة وقطع من الخشب، وأحيانًا بالإزميل. أشعر بالقلق بينما تأخذ جدتي ورقة صنفرة من الصندوق الحديدي المليء بالشحوم. أريد أن أنظف الأرض بنفسي، ولكن لا أريد أن تعرف جدتي ذلك، لأني لا أريدها أن تسأل نفسها عن سبب رغبتي تلك.

أنادي عليها قائلة: «ظهرك يا جدتي! يمكنني أن أنظف أنا الأرض»، بينما لا تزال يداي تثبتان الجسد المطيع المعلق أمامي.

تَرُد قائلة: «لا. ضعي «الشيء» على المرحاض قبل أن يتسبب في فوضى»، بينما تبدأ في صنفرة الأرض.

أنتهي من تجفيف «الشيء»، وأبدأ في العملية المعقدة المتمثلة في توصيله إلى المرحاض. لا توجد سوى عارضة خشبية واحدة بالسقف لبكرة هنا في المرحاض، ولهذا عليَّ أن أستخدم حبلًا إضافيًا وأعقده فوق المرحاض كي أجذبها إلى أعلى مقعد المرحاض ثم أخفض جسدها إليه. نظام غير مثالي، نستخدم العديد من الحبال، تمامًا كالمقاعد الخشبية التي نستعملها، فتنفتق الحبال وتُفرَك أرجل الكراسي حتى تصبح مجرد جذوع.

كنت مرة على البر الرئيسي مع جدتي، في العاشرة تقريبًا من عمري، ورأيت رجلًا جالسًا على كرسي متحرك، فسألت جدتي لم لا نشتري واحدًا نحن أيضًا. كان ردها لاذعًا بشكل مبالغ فيه. قالت: «الإشاعات منتشرة عنا بما يكفي، لا نريد أن يرانا الناس نحضر كرسيًا متحركًا للمنزل أيضًا».

لم أدرِ ما الإشاعات المنتشرة عنا حينها، فعندما تكون الإشاعات عنك، لا يخبرك الناس إياها، وحتى إن أرادوا إخبارك، فسكان الجزيرة لا يتحدثون إلينا من الأساس. أذكر أنني سألت نفسي إن كان سبب الإشاعات أن بابا لا يعيش معنا.

هل يظنون أنه خسيس لأنه يترك أمه المسنة لتربي له ابنته؟ لا أظن أنهم يعرفون شيئًا عن زوجته، «الشيء» طريح الفراش.

ولكن مع مرور الوقت، بدأ حائط إنكار سكان الجزيرة لوجودنا في التصدع بسبب أسئلة أطفالهم عنّا. عندما يبدأ طفل الجزيرة في الكلام، كان لا بد له أن يسأل عنّا، فالأطفال مهووسون بغيرهم من الأطفال. يرون أنني أشبههم شكلًا، ولكنني حيّرتهم. لم أذهب للمدرسة، وعندما كبرت، لم أذهب للمدرسة الثانوية على البر الرئيسي. لم أذهب للمتاجر في الأيام المشمسة باحثة عن الآيس كريم بالشوكولاتة. لم أخرج من المنزل إلا نادرًا، فقط كنت أذهب للسباحة في الشاطئ الرمادي، رغم توبيخ جدتي لي، أو أتسلق التلال على طرف الجزيرة، حيث لا يذهب أحد سوى السائحين التائهين. أطعموا الأطفال فتاتًا عنّا. أظن أن تفاصيل القصة التي حكوها للأطفال كانت دائمة التغير وغير محددة، ولكن ظلت البشاعة واحدة. أعرف هذا لأن بعض تلك التفاصيل تسرّب إليّ من خلالهم، فكانوا يتهكمون عليّ بشكل خاص. يقولون إننا مجانين ونجلب الحظ التعس وأشرار وخونة. كنت أكبر بجوار هؤلاء الأطفال الذين يتهكمون عليّ، وكانوا هم من يعرفونني مَن أكون. اعتبرت كلماتهم حقيقة، فأنا مجنونة وأجلب الحظ التعس وشريرة وخائنة، ولكن لا أعرف السبب.

أحيانًا كنت عندما أمر بجوار سكان الجزيرة البالغين، أتعثر بعبارات أكثر تحديدًا يقولونها.

يتمتمون باللغة الأيرلندية: «إنها ليست على قيد الحياة».

سمعتها للمرة الأولى عندما كنت أتجول ناحية المتجر، وخرج منه اثنان من سكان الجزيرة أمامي، ولكن خفضا أعينهما مباشرة ولم يرفعاها أعلى من قدميّ. بصقا بسرعة واستدارا، وسقطت عبارة «إنها ليست على قيد الحياة... إنها ليست على قيد الحياة» من فميهما كالحصى وقبعت على الأرض خلفهما. في البداية ظننتهما يتحدثان عن شخص آخر. شخص ميّت.

ثم بدا أنني أسمع تلك الكلمات في كل مرة أقترب من أحد سكان الجزيرة. كانت ثقال في كل مكان. لقد تركت شفاههم المشقوقة وتعلقت بي وكأنها رائحة ما. بدا لي وكأن الأرض نفسها تلفظ «إنها ليست على قيد الحياة»، التي يقولونها بالأيرلندية، كلما مشيت عليها. رددتها الرياح التي تهب من خلال الصخور المفككة لجدران الجزيرة، ومن ثم حائط مطبخنا الذي يزأر بها هو الآخر. ولكنها ليست ميتة. كم أتمنى لو كانت ميتة. إنها آفة لعينة، ولكنها ليست ميتة.

«إن كانوا يظنون أنها ميتة، لم لا نخبرهم أنها حية؟»، قمت بشنّ هذا السؤال كالحرب على جدتي في مراهقتي. أغلقت فمها، أغلقت فمها بشدة حتى تجعد ذقنها وبدت أقبح من المعتاد. هزت رأسها. هزت رأسها علامة على الرفض «لا، لا، لا» كثيرًا جدًا على مر السنين، حتى إنني ظننت أنني أسمع صوت طقطقة أسنانها مع كل هزة رأس.

توقفت جدتي عن تنظيف الأرض، وقد رفعت إحدى ركبتيها عنها، ودارت إليّ وحدقّت ثم قالت: «عليكِ أن تستمري في عملك».

قلت: «سأستمر. آسفة».

كانت الأفكار والأسئلة تسرقني أحيانًا، وتمر الدقائق قبل أن أعود للتركيز على المنزل وتلك الحياة، ويغلي نفاد صبر جدتي وعدوانيتها بين كل ذلك.

أتأكد من موضع «الشيء» فوق مقعد المرحاض النتن، ثم أنزله. يستقبلها المرحاض كمهد فاسد. تقابل رأسها ورقبتها صندوق السيفون أولًا، ثم يستقرا على وسادة رطبة نحتفظ بها هناك. أستمر في خفض جسدها، ولكن تظل رقبتها مسترخية، ورأسها متراجع إلى الخلف لدرجة أنها تحدق في الحائط خلفها. أحرك جذعها حتى يصل جسدها إلى وضع الجلوس، ثم أفك حزام القدم وأخفضه حتى أستطيع أن أفتح ركبتيها. أتمنى لو نتركها تتبرز في حوض الاستحمام، ولكن هذا يحمل معه احتمالية عدوى كبيرة. أريح الحبل على الوتد ثانية كي

آخذ قسط من الراحة، فهذا عمل شاق. إنها ثقيلة رغم مظهرها المتهالك. للجسد الميت وزن، ومع أنها لا تزال حية، إلا أن الموت بالتأكيد يتقدم نحوها، فقط انظر إليها. إنها في عداد الموتى.

يتساقط منها البول ولا أكثر. أنتظر لبضع دقائق، ثم أضم يديَّ حول خصر «الشيء» وأضغط على أحشائه، وهذا ينجح. تضغط يداي وتعتصر خصر «الشيء»، وتخرج منه الفضلات. أجذب دلوان بهما خرق من القماش إليّ، أحدهما به خرق التنظيف وآخر به خرق التعقيم عندما تنتهي. أرفعها وأسرع في إنهاء هذه المهمة الأخيرة، فأنا أريد أن أساعد في تنظيف الأرض.

أفك العقدة فيتحرك جسدها إلى منتصف المرحاض، وتصدر البكرة صريرًا مزعجًا. آخذ فستانًا نظيفًا ومطبقًا من الرف فوق المناشف وألفه حول جسدها المعلق، أدخل ذراعيها في الأكمام، بينما أمرر القماش القطن بنقشته الوردية تحت الأحزمة. أجلس القرفصاء أسفلها وأزرر الفستان من الظهر، وأخيرًا أنزلها لتجلس ثانية على المقعد.

يشتري بابا كل الفساتين من متجر في البر الرئيسي، تعرفنه البائعات هناك جيدًا، ويتأكدن من وجود نوعية الفساتين المفضلة لديه عندهن: فساتين طويلة بأزرار أمامية. يطلبن نقوشًا جميلة للفساتين، منطقة الصدر فيها على شكل قلب، ويتكهنن حول هذا الزوج الذي يشتري الملابس لزوجته. أخبرهم الكثير من الأكاذيب. يقبل التغليف الناعم الذي يقدمنه له، وكل مرة يزورهن يزودهن بأكذوبة جديدة كي ينسجنها في قصة حياته. زوجته مريضة. يعيشان في «كاسيلفراين»، ولم ينجبا قط. تحب اللون الأبيض والنقوش الرقيقة. تشكر السيدات على اختياراتهن. شعرها طويل وباهت. إنه يحبها. يعيشان في هدوء، ولكنهما سعيدان، سعيدان جدًا جدًا. إنها قصة خيالية يستطيع أن يحيا فيها بابا معظم الوقت كلما أغلق عينيه في مواجهة الضوء الخافت بشقته الصغيرة.

نفسد عليه أحلامه عندما يأتي إلى هنا.

لون هذا الفستان لبني، وعليه نقشة زهور القرنفل. منطقة الرقبة فيه مفتوحة ومربعة، ويُغلق مباشرة أسفل العظام النحيفة لكتفيها الشبيهة بزعنفتي السمك. تبدو بعض الفساتين غريبة الشكل عندما ترتديها معكوسة، ولكن هذا النظام يناسبنا. مهمتي الأخيرة هي غسيل أسنانها.

الجزء العلوي من المقعد خلف رأسها منفصل عن المقعد ذاته ومثبت بمفصلتين صغيرتين. هناك مزلاج (الذي قد تجده في الناحية الداخلية للباب) نستعمله كي نبقي الجزء العلوي من المقعد في وضع قائم. ولكن عندما نكون بحاجة لغسيل أسنانها أو فحص فمها، نفتح المزلاج، فيعود الجزء العلوي إلى الخلف ومعه رأسها. أضع معجون الأسنان على الفرشاة، ثم أحركها بحرص حول الشفاه المهترئة لتنظيف أسنانها. أعيد الجزء العلوي الخشبي من المقعد إلى مكانه وأغلق المزلاج عندما أنتهي، فينتفض رأسها وتعود إلى وضعها الأول.

أخيرًا هي جاهزة، فأدير المقعد بحيث يواجه الناحية الصحيحة لسحبها عودةً لغرفتها. أربطها بالأحزمة إليه، وأسحبها إلى الفراش. أمر بالصالة، وأسمع صراخ الخشب مع الاحتكاك به، وصوت هسهسة وفرك جدتي للأرض بورق الصنفرة. أصوات تشبه صوت حيوان بشع. تملأ الضوضاء رأسي وتتلاعب بأعصابي. نذهب يمينًا ثم ندخل غرفة النوم. أضعها في مواجهة النافذة، وهي طريقتي في المزاح، فالنافذة مغلقة بالحجارة. تتسرب خطوط رفيعة من الضوء من بينها، لكن لا ترى منظرًا. ترتاح يداها في حِجرها وكأنها في حالة من السلام.

أعود للصالة، وآخذ ورقة صنفرة وأخرى من الخشب من الصندوق الحديدي. لا تزال جدتي جالسة على أربع، تنظف قطعتها من الأرض بإصرار.

أقول: «سأنظف أرضية حجرة النوم».

ردها هو هز كتفيها. تشبه الحيوان الملجم وهي جالسة على الأرض هكذا.

5

أبدأ بأبعد ركن عن الباب في حجرة النوم، وأجلس على ركبتيّ. أمرر أصابعي على الأرضية الخشبية الجافة المليئة بالبقع، بينما تبحث عيناي عن الخدوش. أحيانًا يُسهّل البحث باللمس مهمة العثور عليها، وهي الحقيقة التي لن أخبر جدتي بها أبدًا. لقد بدأت تخفق في أداء هذه المهمة. إنها قوية بما فيه الكفاية لصنفرة الأرض، فهي كحيوان مدرب، ولكن مع ضعف نظرها، لا ترى العديد من الخدوش.

أما أنا فثاقبة البصر ودقيقة. تسهل ملاحظة الخدوش على أرضيات منزل لا يتغير فيه شيء قط، فهي دليل على حبسنا المطول. ظللت لسنوات طويلة أظن أن تلك الخدوش نوع من أنواع ردود الأفعال يقوم بها «الشيء» طريح الفراش، وكأنها حاجة ملحة باقية منذ أن كانت على قيد الحياة. ظننت أنها تعتقد أنها تنظف الأرض مثلًا.

لا نراها أبدًا وهي تُحدث الخدوش، ولكن ما بعد إحدى تلك النوبات قبيح، لأنها تفزّم أصابعها بخدوشها المحمومة.

تقول جدتي إنهم حاولوا بكل الطرق أن يبقوا يديها ساكنتين، ولكني لا أتذكر ذلك لأنني كنت صغيرة جدًا. تقول إنهم قيّدوا يديها، فبدأت تستخدم قدميها. قيّدوا قدميها، وقيّدوا جسدها كله، فبدأت تعض شفتيها بأسنانها، فأحدثت ضررًا بالغًا، حينها قرروا ألا يقيدوها مساءً، وأن يشلُّوا حركتها بالأدوية المنومة. يبتاع بابا الدواء، وبلا شك يحتاج إلى الكذب كي يبتاعه، ونسحقه ونضعه في عشائها. لكن الليالي ليست هادئة دومًا. لا نسمعها، ولكنها أحيانًا تستطيع أن تستيقظ وتخترق سطح قبر المخدرات التي نعطيها لها. لهذا صارت يداها بهذه البشاعة.

ولكنها لا تزال تستطيع أن تفرك الأرض وتخدشها وتحفر فيها باستخدام قطع اللحم تلك.

العظمة الآن ظاهرة في إصبع يدها اليمنى، وقد بدأت في الحفر. لا تعلم جدتي.

الرائحة في الركن الذي أجلس فيه هي رائحة اللحم والمعدن، أشعر بها في فمي. الدم يغطي الخشب بلونه البني الصدئ، وأسفل رأس قائم الفراش مباشرة، هناك الحرفان المحفوران:

Sí

أبدأ في فرك ورقة الصنفرة على الأرض كي أغطي صوت حركة لوح الأرضية أسفل الفراش. أفرك وأفرك، بينما أرفع الدفتر والقلم الرصاص من أسفل لوح الأرضية، ثم أعيده إلى مكانه. ينفتح الدفتر على آخر صفحة تمت الكتابة فيها، فأضيف Sí بسرعة إلى مجموعة الحروف التي تشكل ما يشبه الكلمات المكتوبة في الدفتر. أضع الدفتر وبداخله القلم الرصاص أسفل المرتبة على يميني، بينما تدور عيناي إلى باب غرفة النوم، فلا أرى سوى قدمي جدتي وهما تتحركان مع حركتها بينما تنظف الأرض. من المهم أن أخبئ الدفتر، لكن يجب أن يكون قريبًا من متناول يديّ إن وجدت حروفًا جديدة.

سَرَت بجسدي صدمة أشعلت نارًا بداخلي منذ ثلاث سنوات عندما وجدت ما يشبه حرفًا للمرة الأولى وسط خدوش الأرضية في هذه الزاوية من حجرة النوم. قمت بواجبي، ونظفت حرف الـ«P» المفكك الذي وجدته، ولكن ظلت صورته في خيالي لعدة أيام. لم أفكر حتى في تدوينه، فلِم أكتبه؟ انفجار حرف الـ«P» كان حدثًا متفردًا في حياتي التي تخلو من الأحداث. لم تبدُ كتابته مهمة لي. ولكن بدأ الشك يأكلني بالتأكيد. هل رأيته حقًا؟ هل كان حرف «P» أم مجرد خدش عشوائي بالخشب؟ هل كان هناك حقًا؟ أرهقتني الأسئلة، وتلاشى يقيني. حاولت أن أتحسس طرف إصبعي الذي مررته على أطراف حرف الـ«P». صار الحرف نفسه غائبًا، فلا أشعر إلا بغيابه. خُفت أن تتلاشى الذكرى من عقلي من كثرة زيارتي لها والتحقق من حدوثها. لقد استعدت اللحظة كثيرًا، حتى صارت

ذكرى ضبابية، وصارت كالأحلام. حاولت أن أتخيل حرفًا آخر كي أختبر نفسي، فوجدت أنني أستطيع أن أحفر حرف «R» بشكل مقنع في ذاكرتي بدلًا من حرف الـ«P»، فانزعجت للغاية. صارت حقيقة وجود حرف الـ«P» المحفور مشوشة، وللمرة الأولى بدأت أشك في عقلي: هل لا يجب أن أثق بعقلي أو بنفسي؟

أزعجتني رؤياي للـ«P/R» وخيانة الذاكرة لعدة أشهر بعد ذلك. عدت إلى تلك المنطقة في الأرض التي كانت فيها الـ«P» أو الـ«R» أو اللاشيء قبل أن أستخدم عليها ورق الصنفرة. حدّقت إلى المنطقة حتى بدت لي عودة شبح الحرف، ولكن بدأت عيناي في العصيان بعد عدة دقائق من التحديق، فتتلألأ منها الدموع وتنغلقان من تلقاء أنفسهما، وعندما أنظر إلى الرقعة ثانية، يختفي شبح الخدش.

سألت جدتي إن كانت قد رأت شيئًا أو حتى ظنّت كذلك، ولكن بدا أن السؤال أرعبها وأغضبها في الوقت نفسه.

«لا تبحثي عن شيء، وحينها لن تظني أنك رأيت شيئًا. هل تريدين أن تعودي للطبيب؟» سؤال جدتي هذا كان تهديدًا.

كنت في السابعة عشرة من عمري حينها، وشبه واثقة أن الطبيب لن يتذكرني. حينها كانت قد مرّت عشر سنوات منذ زيارتي له، ولم تسفر الزيارة عن نتيجة تُذكر. فحصني بلا جدوى ولم أقل له شيئًا. قال بابا حينها إن هذا إجراء «احترازي»، ولم أفهم معنى هذه الكلمة حينها، وحتى الآن وأنا أعرف معناها فلا تبرر هذه الزيارة. أتذكر عددًا من المصطلحات الغامضة منذ ذلك اليوم: «قابلية» و«غير طبيعية بشكل مرضي» و«توريث».

لا أعرف معناها، ولا أعرف كيف تنطبق عليّ، ولكن يبدو أنها تدور في فلك أمي، وأنا جُرمها السماوي التَعِس. هل يحاولون أن يعرفوا إن كنت سأصبح مثلها؟ أريد أن أعرف أنا الأخرى، ولكن من الصعب أن أعرف بينما أنا لا أعرف ماهية مَن هو *مثلها*. إن ظهور حرف الـ«P» قد قلب عالمي رأسًا على عقب، هذا

العالم الذي كانت هي فيه كائنًا عاقلًا بالكاد، مجرد شيء. كانت أصوات صرير أنفاسها وانتفاضها أحيانًا كرد فعل للألم والحركات المكررة بلا معنى (مثل الحك ومضغ وقطع لحمها لنفسها) دليلًا على الحياة، ولكن الحياة في أكثر صورها بدائية. دمَّر حرف الـ«P» استيعابي للموقف الذي فيه أحيا تمامًا، فهي تعني أن «الشيء» يفكِّر، وأنه يحاول أن يتواصل مع مَن حوله. ربما لهذا السبب وجدت أنه من الأسهل أن أقنع نفسي أنني اخترعت حرف الـ«P» الذي رأيته.

ثم جاء الحرفان:

LE

كانا أصغر من حرف الـ«P» بكثير، وفي الزاوية نفسها، ولكنهما مخبآن بالقرب من قطعة الخشب الصغيرة المثبتة أسفل الحائط. كان يوم ثلاثاء ممطرًا في شهر أبريل، عندما وقعت عيناي عليهما في أثناء عملية الصنفرة المعتادة وفتحت فمي مندهشة. تركت الزاوية وتحركت باتجاه المقعد حيث يجلس «الشيء»، ونظرت إليها. عينا «الشيء» تتحركان كالعادة أسفل جفنيها، وكأنهما ظل يتراقص يمنة ويسارًا أسفل عتبة باب. لم أرَ شيئًا جديدًا في يديها المهترئتين على الفور، فقد كانتا مجرد كتل ثقيلة وطرية كالعادة. أجزاء من أطرافها الميتة لؤلؤية وناعمة كهذا الكمال المستحيل الذي تراه داخل الأصداف، ولكن الأطراف نفسها (الرأس واليدان والقدمان) مُنكَّل بها لدرجة صعوبة التعرف عليها. ثم لاحظت شيئًا لامعًا في فوضى يديها فاقتربت وحاولت أن أفهم ما أرى. كانت هي المرة الأولى التي ألحظ فيها العظمة الصغيرة البارزة كالسِن من سبَّابة يدها اليمنى. لمستها فارتَجَفَت، ثم عادت لسكونها ثانية.

ذهبت إلى غرفتي وأحضرت الدفتر، وأخذت قلم رصاص من خزانة المطبخ المغلقة، وعدت إلى الزاوية وكتبت «LE» في الدفتر، ثم وضعت الصفحة على الأرض وبدأت أظلل الحرفين برفق كي لا أترك مجالًا للشك. هل هناك طريقة أخرى كي أجعل تلك الحروف جزءًا من الواقع؟ تلك الرسائل غير آمنة على

أسطح رقيقة كالعقل والخشب، لأنها يمكن أن تضعف بسهولة بالغة. كنت بحاجة إلى دليل إضافي على هذا الحوار الجديد المكسَّر.

ضمدت يديها هذا الصباح، ولكن تركت العظمة الصغيرة مكشوفة. وعلى الرغم من هذا، لم أرَ علامات جديدة لعدة أسابيع. اتبعت الحروف والعلامات نمطًا غير منتظم دفعني للجنون منذ ذلك الحين، فأحيانًا أجد الكثير لعدة أسابيع، ثم لا شيء، وتصمت الأرض ثانية.

الأصعب من ذلك أن مجهودي كان يذهب هباء لأنني لم أتوصل إلى معنى للحروف التي أجدها، مع أنني حريصة على تدوين كل حرف وكل رمز وكل مقطع جديد. لا أجد رسالة عامة، بل بالعكس، كلما أضيف إلى الكلمات تصبح أكثر فوضوية. كنت لا أملك إلا أن أتمنى أن يجيب «الشيء» عن بعض أسئلتي عندما بدأ الأمر.

ماذا حدث بعد ميلادي؟

هل «الشيء» مريض؟

هل سيتحسن «الشيء»؟

كيف كان من قبل؟

مَن فعل بـ«الشيء» ذلك؟

ولكن لم تنكشف أي إجابة، لا توجد رسالة مهمة أو لغز صعب يمكن حله. الإجابة - إن كان لك أن تسميها هكذا - هي أن الخدوش التي يحدثها «الشيء» ما هي إلا أفعال تشير إلى هوسه، هذا «الشيء» اليائس المحتار، أمي.

وعلى الرغم من أنني أكتب العلامات التي تحفرها في الأرض، فإنني أعرف أن كل هذا هباء. لقد صارت علامة على هوسي *أنا*. لا أريد أن أتوقف. فماذا لو؟

ماذا لو، ماذا لو، ماذا لو...

(هناك إجابة يومًا ما؟)

6

تصل «رايتشيل» إلى الجزيرة في 29 مايو، وفي اليوم نفسه، تترك جدتي الجزيرة بعد الإفطار لأن هذا يومها الأول في المتحف. يمر تيار رياح غربي خفيف على الحقول في الناحية الغارقة بالجزيرة، ويُحدث تغييرًا لا أشعر به في تلك اللحظة.

«مع السلامة»، أقولها لجدتي باللغة الأيرلندية، ولكنها تغلق الباب بعنف قبل أن أكمل جملتي. سيأتي بابا لاحقًا. اليوم خاوٍ أمامي. أمرر إصبعي على الدهن والمربى في طبقي الفارغ ثم آخذه إلى الحوض، أسفل الضوء الأصفر الشبيه بالقيء بالمطبخ، فالنوافذ المغلقة بالحجارة تؤدي إلى اضطرارنا لتشغيل النور حتى في نهار الصيف. أنظف بواقي الإفطار، وأسحب سلة الخضروات الطويلة إلى أعلى الحوض. يتسبب تحريكي للبطاطس المتربة في ظهور سحابة من الطين في الهواء. أخرج المفتاح من مخبأه وأفتح خزانة المطبخ وأجد المقشرة وسكين التقشير. أقشر البطاطس فوق الحوض، ثم أستخدم السكين في اقتلاع تلك البراعم على سطحها وأشطفها. ألقي البطاطس في القدر الكبير وأملأه بالماء. آخذ بضع ثمرات من الجزر من السلة وأنظفها من الطين والتراب، وأضعها هي الأخرى بقدر الماء. أخرج إلى الصالة بعد أن بدأت طبخ وجبة الغداء. تلمس قدماي المدربتان الوديان الموجودة بالأرض بشكل مسطح، ولكن أبقي أصابع قدميَّ مثنية حتى لا تلمس حواف تلك الوديان. لا حاجة للحرص في أثناء المشي، فأنا أعرف جغرافيا هذا المكان جيدًا. ألقي نظرة سريعة عليها بينما أمرُّ أمام باب غرفتها. لقد أجلستها على المقعد قبل الإفطار، وتم إطعامها، وترتدي الفستان نفسه ذا النقوش الوردية الذي ألبسته لها أمس. لقد ارتدته وهو نظيف، لهذا من الممكن أن ترتديه اليوم أيضًا.

أواصل السير حتى أصل إلى غرفتي، أرتدي بنطال جينز رماديًا غامقًا و«تيشيرت» قديمًا مهترئًا مرسومًا عليه برج إيفل. هذا الـ«تيشيرت» جزء من

الملف غير الرسمي حول عائلتي الذي أجمعه منذ سنوات. إنه دليل: يومًا ما سافر هؤلاء الناس الذين يعيشون في هذا المنزل إلى باريس. ولكن لم تسافر جدتي، أنا واثقة من ذلك. لا بد أن بابا و«الشيء» طريح الفراش هما مَن سافرا. لا أستطيع أن أتخيل شكلها. لديَّ فكرة عما قد تبدو باريس: مبانٍ أنيقة رمادية ذات أفاريز منحنية للداخل، جسور وشوارع واسعة يسير بها أناس واثقون من أنفسهم وهادئون كمَن رأيتهم على البر الرئيسي. ذُكِرت باريس في كتاب الجغرافيا في فصل حول العواصم.

منذ عام مضى، إن جاء يوم كهذا، حيث تكون جدتي مشغولة وقد تم إنهاء المهام المنزلية، كان سيُطلب مني أن أؤدي الواجب المنزلي المدرسي. كانت المدرسة دائمًا فكرة مرفوضة، ولكن عندما أتممت عامي العاشر، أحضر بابا الكتب المدرسية والدفاتر ووضعها على منضدة من خشب الجوز في زاوية بغرفة المعيشة. تجّهمت، فكنت فقط أريد أن أجلس بجوار النافذة.

قال بابا: «اعتبريهم نافذتك». وضع يده أعلى برج الكتب، وبدا حزينًا بشكل يصعب فهمه. سمعتهما يتحدثان تلك الليلة في حجرة الجلوس.

قال لها بابا: «أعلم أنك تبذلين الكثير يا مامي».

بدا صوته معذبًا.

ردَّت جدتي: «أقوم بواجبي».

ردَّ: «إنها مشكلتي أنا، لا يجب عليكِ أن...».

قالت: «عليها أن تتعلم شيئًا، وإلا ستصبحان بلا فائدة هما الاثنتان».

تحدثت جدتي بلا مبالاة. خيَّم الصمت حتى ملأه بكاء بابا.

وهكذا أستطيع أن أقرأ وأكتب. عرفت معلومات عما لا أمتلك وتعلمت أفعالًا لن أقوم بها من خلال الكتب. بدا بعضها غير جذَّاب، كالعمل والامتحانات، إلخ.

أما الأشياء الأخرى فكانت محيرة بالنسبة إليّ؛ كانت حياة الأطفال بكتبي بسيطة لدرجة يستحيل فهمها، يتحدثون فقط عن الكرات المفقودة في الحدائق والحيوانات الأليفة الجديدة. فهمت المبادئ الأساسية، ولكن عندما كان يزورنا بابا كل شهر، كنت ألحظ أنني لا أتعلم بالشكل الصحيح. صرت كائنًا غريبًا كبر جسده، ولكن ظل عقله صغيرًا.

أحضر لي كتبًا أكثر وحاول أن يسألني عما أذاكر، وكنت أرد بابتسامة خاوية، فيتألم ويبتعد. لقد كنت وما زلت عديمة الأهمية مثلها في نهاية المطاف. لا بد أن هذا سبب تخلصه منًا. أضفت هذه النظرية إلى الملف. رحماني من ملل الدراسة عندما وصلت إلى الشاطئ بعد بحر المراهقة المضطرب، وتخرجت بلا احتفال.

قالت جدتي: «ربما حصلت على القدر الكافي من التعليم، أو حتى القدر الذي سوف تحتاجينه». لم ينبس بابا ببنت شفة، فقط جلس برأسه الذي يشبه الإسفنج وملامحه المتجهمة. أظن أن بابا هو أكثرنا حيوية، فهو يستولي على المشاعر كافة في هذا المنزل الذابل. يملأه الذنب ويضغطه الشعور بخيبة الأمل. تنساب من عينيه الدموع كالماء الآسن. رحيله مثير للراحة.

أما اليوم، بلا واجب منزلي ولا جدتي تراقبني، أستطيع أن أمضي الساعات كما أحب. أضع المنشفة التي تشبه رائحتها رائحة لوح الكرتون وملابس السباحة بحقيبة ظهري، وأيضًا أضيف السترة الكبيرة الصوفية إلى محتويات الحقيبة، مع أن الطقس يبدو معتدلًا حتى الآن. أرتدي حذاء الجري ذا الجلد المتقشر القديم وأضع الحقيبة على ظهري. أذهب إلى غرفتها وأسحبها بالمقعد نحو المطبخ، حيث أتركها أمام الطاولة في مواجهة حائط المطبخ الذي يشهق ويزفر بفعل الرياح. منزلنا يواجه الغرب، ولهذا يصدر صوت فحيح ولهاث، حتى في يوم من ألطف الأيام كهذا اليوم. أحضر كوبًا نظيفًا، ثم أضع ذراعيها على الطاولة وأسحب يديها حول الكوب حتى يبدو وكأنها تمسكه. يداها مضمدتان الآن بعد آخر نوبة من الحك. مفرش الطاولة اللزج يحتفظ بذراعيها في مكانهما. أتجه للباب كي

ألقي نظرة على المشهد، وأضيق عينيّ لأدقق النظر. تبدو وكأنها إنسانة، تبدو شبه طبيعية. أنا راضية عن المنظر، حتى أن صوت فحيح الرياح بالجدار يدل على رضاه هو الآخر عن المشهد. أطفئ النور، فيحل الظلام على «الشيء» الجالس إلى الطاولة. يتوقف فحيح الرياح القادم من الجدار للحظة كي يُسمَع صرير أنفاسها، وقبل أن يصل «الشيء» إلى نهاية شهيقه، أغلق الباب وأبدأ يومي.

7

لا يزال الوقت مبكرًا، والشمس تشرق من حافة المحيط، ولكن السماء الرمادية تخيّم على الجزيرة بشكل مباشر، وتقف فوقها وكأنها لوح من الجرانيت. ستمر الشمس فوق حافة هذا المستنقع خلال بضع ساعات وتختفي. إنه يوم لطيف جدًا بالجزيرة، فتوقف هبوب الرياح أخيرًا، ولكن الثمن الذي ندفعه مقابل ذلك هو أن الغطاء الرمادي سيظل مكانه. الناحية السفلى من الجزيرة واضحة تمامًا من مكاننا المرتفع هنا. تنحدر الجزيرة تدريجيًا حيث رسخت قدميّ حتى تصلا إلى النقطة التي تمتلئ فيها بالمياه وتنحدر نحو المحيط، هناك عند الشاطئ الدائري العاري بالناحية الشرقية. هناك أسبح. السباحة غير معروفة على الجزيرة، وهي إحدى الضغائن التي يكنونها ضدي. إنها قاعدة لدى سكان هذه الجزيرة أنهم لا يمارسون السباحة. إنهم حتى لا يتعلمونها، ورفضهم التعلم هذا يضرب بالعقل عرض الحائط، فكل سنة يغرق بعضهم. يعمل نصف سكان الجزيرة بالمحيط، سواء كانوا يمارسون الصيد أو يبحرون بالعبّارات إلى البر الرئيسي. يبحرون بتلك العبّارات من وإلى البر الرئيسي طوال فترة الصيف، ويحضرون المسافرين المرتدين سترات النجاة، ولكن لا يرتدي سكان الجزيرة سوى الكنزات الصوفية الثقيلة المُحاكة من صوف خشن كالحبال بأيدي النساء الماهرات في حياتهم. لتلك الكنزات تأثير عكسي، فهي لا تنجي من الموت، بل تقتل. إنها تتآمر مع البحر كي تجتاحهم وتجذبهم للأسفل، لدرجة أن احتمالية غرقهم مغزولة في كل كنزة، كطريقة معينة في الغزل - أنماط وأشكال مُحاكة في الأكمام أو الرقبة - كي تساعد في التعرف على عائلة كل جثة تُنتشل. لا يصعب التعرف عليهم من قبل ذويهم فحسب، بل يصعب التأكد أنهم بشر في المقام الأول.

دائمًا ما أذهب لألقي نظرة على الموتى حين يأتون بهم. مشاهدة تأثير تلك المياه القاسية على اللحم مثيرة للعجب. لا يتم انتشالهم بسرعة أبدًا. دائمًا ما يعلقون بعيدًا عن الشاطئ من قبل المد والجزر اللذين لا يرحمان لمدة أيام أو

أسابيع. أظن أنهم يظلون غارقين حتى يفعل بهم البحر ما يشاء، ودائمًا يفعل البحر ما يشاء.

لا تعود الجثث في حالة مناسبة لجنازة بنعش مفتوح أبدًا، بل دائمًا ما تكون منتفخة. إن لم يتعفن الجلد، فإنه يعاني من أجل الاحتفاظ بالأهوال الموجودة بالداخل. قد يكونون موتى، ولكن الجسد نفسه مليء بكائنات حية محبة للموت تحتفل بالوليمة. يتم التعامل مع كل جثة بشكل مختلف عندما تصل إلى الشاطئ، فالجلد الباقي على العظام قد يسقط عنها إن تم لمسه، وهذا يعتمد على المدة التي قضتها الجثة في المياه. أحيانًا تكون ملابس الرجل نفسها هي ما تحتفظ بجسد شبيه الإنسان في مكانه. أحيانًا تسفر محاولات سحب الجثث بعيدًا عن المحيط القاتل عن نتائج كارثية، فينسلخ الجلد ويصبح شبيهًا بالـ«بوريدج». عادة ما تسقط الأطراف عن المفاصل، فيصبحون بلا أيدي وأرجل. تقول جدتي إن هذا بسبب تعرض الجسد لعوامل قاسية، أي مد وجزر المحيط. ولكن أعلم أن سكّان الجزيرة يعتقدون أن هذا فعل متعمد لتعجيز الرجال، وحرمانهم من وسائل الهروب القليلة التي قد تكون متاحة لهم. يتهامس سكان الجزيرة عن تلك الأطراف اليائسة التي تتلاطم بالأمواج وتنزلق بلا حول ولا قوة من الأحبال. تتحوَّر الفكرة وتنتشر كالمرض من دون أدلة تدحضها. الجزيرة مريضة بعدة أمراض، والمياه ملوثة ببقايا رجالها المتعفنة.

أما الجثث التي تحتفظ نوعًا ما بشكلها قبل الوفاة هي التي يلفظها البحر وهي شاحبة وملوثة بالشحم بشكل مثير للعجب. لحم تلك الجثث لا يتحول إلى ما يشبه قمامة المطبخ، بل يكون مشدودًا، مُشكلًا طبقة صلبة حول عظامهم وأعضائهم. لقد بَنَت تلك الجثث قبرها الخاص بموجب تعليمات البحر. سمعت أن هذا يحدث للرُضَّع تحديدًا، ولكن غرق رضيع نادر جدًا. إنه كارثة تحدث مرّة في العمر، وتسبب حزنًا عميقًا بالجزيرة لعدة أسابيع. يقول بابا إن هذه الظاهرة تدعى «الشمع القبري»، وتتكون في دهون الجثة. يقول أيضًا إن تلك المياه لا

تتفرّد بتكوينها، ولكن يؤمن سكان الجزيرة أن كل ما يفعله البحر عقاب خاص لهم. أما أنا، فأعتقد أن تشويه البحر لهؤلاء الرجال أمر لا مفر منه. الجزيرة عدوانية، والبحر يقتل الرجال ويتقيَّأهم لنا كي نعرف ما ينتظرنا جميعًا.

ولكن لا يتعلم سكان تلك الجزيرة السباحة أبدًا، إطلاقًا، وهذا لأنهم يؤمنون بالخرافات، فيعتقدون أن تعلم السباحة لهو نوع من الغطرسة، ومحاولة فجّة وغبية في السيطرة على الطبيعة. يظنون أن هذا سيجلب المشكلات من البحر. يتعامل سكان الجزيرة مع البحر وكأنه والد قاسٍ وغير متزن يجب عليهم إرضاؤه. عليك أن ترضخ للبحر إن أراد أن يبتلعك، وهكذا يستسلم الرجال للمحيط عندما تحيط الأمواج المارقة الخبيثة (التي تكثر حول الجزيرة) بالقوارب.

أستغرق عشرين دقيقة حتى أقطع الطريق إلى الشاطئ. تطالني قوى الطبيعة في كل خطوة، فالهواء الملحي السميك يضرب أنفي وفمي كالطوفان، ومع أن الطقس لطيف، فإن رأسي لا يزال يطن بالبكاء ذي الصوت الناشز للرياح التي تتسلل بين الأحجار المفككة بالحوائط. هذا الصراخ برأسي يلازمني دائمًا، حتى أنني كثيرًا لا أستطيع أن أتأكد إن كان يحدث فعلًا أم أنه مجرد صدى بداخلي.

أراد بابا أن أتعلم السباحة.

سخرت منه جدتي، وقالت: «ماذا؟ هل تظن أن الوضع كان سيختلف بأي شكل إن كانت هي تعرف السباحة؟».

أستمسك بتلك المعلومة. هي. «الشيء»؟ «الشيء» طريح الفراش؟

إن كان باستطاعة «الشيء» السباحة...

لديَّ الآن معلومة جديدة. هل آذتها المياه؟

أخذني إلى رجل بالبر الرئيسي كي يعلمني. وقف الرجل بجواري في مياه

تصل إلى خصره بمستطيل بارد وقاسٍ محفور بالأرض وبحجرة باردة وقاسية يُسمع بها صدى الصوت، وبدأ يعلمني السباحة على ظهري. لم تكن لتلك المياه عديمة الشخصية علاقة بالمحيط الذي أعرفه. لَعَقَت المياه أذنيّ بحنان.

قال الرجل: «سأتركك الآن، وسوف تطفين إن امتلأت رئتاكِ بالهواء».

تركني، فاستنشقت الهواء عندما شعرت بجسدي يغوص بالمياه قليلًا وبسطته في وضع مستقيم، بينما ضبطت اتزاني بالمياه. فوجئ الرجل فهتف: «لقد أحبّت السباحة، إنها مثل «سيلكي»، حورية بحرية!».

وقف بابا على الحافة، وكان الضوء يسطع من خلفه، فلم أرَه بوضوح. كان وجهه مظلمًا، حتى بدا وكأنه قد أُقتِلِع من مكانه.

ردَّ: «لا يهمني أن تصبح سبّاحة ماهرة، فقط علّمها ما يكفيها كيلا... أنت تفهمني».

كان الصوت الصادر من تلك البقعة الخاوية قلقًا.

علّماني ما يكفي، وعلّمني البحر الباقي. أنا سبّاحة ماهرة الآن، وهذا ما لم يصبو كل منهما إليه. منعت جدتي وبابا العوم، وصادر بابا بدلة السباحة، قائلًا إنه أراد أن أتعلم فقط «عند الضرورة». كنت أسبح بملابسي الداخلية ومن دون منشفة. استمرا في محاولات منعي، واستمريت أنا في عصيانهما. لم يكن الأمر بيدي، فقد كانت السباحة ملاذًا بالنسبة إليّ. كانت القيود المفروضة على حياتي هائلة، حتى أن إحساس الغمر بالمياه، تلك الحالة الفريدة، كان جارفًا. كنت أنتشي وأنا في البحر.

كان شعورًا غامرًا إلى درجة أنني لم أفهمه في البداية: هل كنت في خطر؟ أم أنني أعيش حالة جميلة؟ ردَّ عليّ البحر بطريقة لم يرد عليّ بها أحد قط؛ احتضنني وجذبني. لم يحبني البحر، فأنا لست غبية، لا أحد يحبني، ولكنه لم يتجاهلني. كنت أقمّط نفسي بغطاء الفراش في طفولتي كي أخلق شعور

الاحتضان الدافئ، ولكن أفسد المجهود المطلوب هذا الوهم. لم أضطر إلى أن أصطنع شعور العناق حول جسدي في البحر، فهو يكتسحني، يتسلق جسدي بينما أشق طريقي بداخله. البحر يريدني.

جدتي هي من أقنعت بابا في نهاية المطاف، ولكن ليس في وجودي. سمعتهما يتحدثان في المساء كالعادة. تتبع محادثاتهما نمط ثابت طوال الوقت؛ يتبادلان جملًا خاوية، حتى يتنهد بابا، وتقول جدتي بالأيرلندية: «حسنًا». جرت المحادثة كما يلي في حالة السباحة:

«إن ذلك لتحدٍ للقدر». على الرغم من إيمان بابا العميق بالمنطق، فإنه كان مستسلمًا للخرافات تلك المرة.

«لا تسير الأمور هكذا. ليس لها علاقة بها».

«ولكن يبدو... إنها...» تلعثم، فسمعته يبتلع لعابه ويتنهد، ثم حاول مرة ثانية وقال: «إنه قبر. إنها تقف في قبر...».

قالت جدتي بصرامة: «لا شيء يسعدها». ثم استطردت: «أعرف هذا الشعور. سنسمح لها بذلك، وسوف يفتر اهتمامها بالأمر كله».

صمتا، وفي الصباح التالي، كانت ملابس السباحة معلقة على مقبض باب غرفتي.

لا أسبح يوميًا، فهذا ضرب من ضروب الجنون، بل قد يكون انتحارًا أكيدًا في بعض الأيام. ولكن عندما يكون اتجاه الأمواج مناسبًا، وعندما لا تتلاطم بشدة، أذهب إلى البحر وأشعر وكأنني شخص مختلف. ينحسر الصراخ برأسي، وأشعر وكأنني جزء من العالم. يملأني شعور بأن لي هدفًا واضحًا بينما أحفر طريقي في البحر بيدي المقبوضة، وكأن هناك مستقبلًا يتكشّف أمامي. لست مجرد ذليلة أحيا عند نهاية فراش أم نَتِنة، بل أنا حية، ولو لفترة قصيرة.

يتلألأ الضوء على الشاطئ الرمادي أمامي، فأسرع حتى تصبح الأرض أسفل قدميّ رمالًا داكنة تشبه المسحوق. هنا تتحول خطواتي السريعة إلى خطوات مهزوزة، وهذا يحدث دائمًا على الرمال. البحر يربك خُطانا، يشلُّنا حتى قبل أن ندخله. أتوجه نحو الصخور اللامعة الحدباء الموجودة على الشاطئ على يميني، حيث أضع حقيبتي ومنشفتي تجنبًا لقسوة رمال الشاطئ. أنزع عني ملابسي بينما أضع عليّ ملابس السباحة في الوقت نفسه، ثم أكوّم بنطالي الجينز والتي-شيرت فوق حقيبة ظهري.

***

تُقاطع صرخة غريبة عنّي صرخات رأسي التي تدوي بلا انقطاع فينتفض جسدي مستيقظًا. ألتفت يسارًا بسرعة، ثم يمينًا ولا أرى أحدًا. أجد نفسي في حالة تأهب من فوري، فقد تعرضت لتجارب سيئة على الشاطئ. أطفال يصرخون ويضحكون، رجال الجزيرة الذين يفرحون لرؤياي، فيتحرشون بي على الرغم من استهزاء أصدقائهم بهم. يصيحون «إنه مستعد لممارسة الجنس مع أي شيء، فلتستغلي الفرصة»، يقولونها وكأن صديقهم لا يفعل أكثر من مجرد التبول، شيء لا يعتد به. ينتهي من الاستمناء ويقف، ثم يتحرك نحوي ويقف على يميني بمسافة بوصات قليلة، ثم يتبول بالفعل. يلمسني بوله المغلي.

«إن هذا الشيء ملعون. يحسن بك أن تغمُر عضوك في المياه المقدسة». يضحكون ويبتعدون بينما يبصقون على الأرض.

أنظر خلفي فأرى مصدر الصرخة. هناك رضيع على الرمال. إنه على بُعد جسد رجل تقريبًا من النقطة التي تتحول فيها مياه البحر إلى رغوة. لا أستطيع أن أربط الحقائق ببعضها بعضًا، إنها غير منطقية.

رضيع على الشاطئ

يبدو لي أنه عارٍ من النقطة التي أقف فيها. إنه صغير السن لدرجة أنه ثابت

بمكانه نوعًا ما، لأنه ربما لا يفهم حتى ماهية يديه حتى الآن. عيناه بلا لون محدد. إنه ليّن كالعجين. جمجمته بحجم راحة يد رجل، ولكنها ضعيفة لدرجة لا يمكن تصورها. أعلم من كتب العلوم أن مخه لا يزال يغزل أجزاءه معًا تحت تلك البشرة المشدودة. هذا التغير في هيئة البشر يستمر إلا ما لا نهاية. لقد لاحظته وراقبته طيلة حياتي: نكبر ثم نضعف، نكبر ونضعف. الرضيع لا يتحرك، ولكنه يصرخ مرة أخرى، بينما أتحرك نحوه وأفكر فيما أفعل به. من الممكن أن أضعه في حقيبتي وأحضره لجدتي، ولكن لست أدري إن كان هذا خيارًا صائبًا. لا أريد أن أحضره إلى الحانة أو المتجر كيلا يظن سكان الجزيرة أن لي علاقة به. قد لا يقبلون الطفل إن كنت أنا من تقدمه لهم.

أنا الآن واقفة أمامه، وأرى أنه يرتدي الملابس بالفعل، يرتدي بيجاما قطعة واحدة بيضاء قطنية. أرى أن الرضيع صغير للغاية. إنه صغير لدرجة أن بشرة رقبته لينة وقبيحة، إنها بحاجة للتسمين. إنه منطوٍ على ذاته وكأنه لا يزال محبوسًا ببطن امرأة. هناك معطف مطر مفروش على الرمال بجواره، فأفهم أن الرضيع كان موضوعًا فوقه، ولكنه استطاع أن يتحرك ويحرر نفسه منه بشكل ما. أتحرك بعيدًا عن الرضيع قليلًا فأرى أن هناك أسفل المعطف فستان وحذاء طويل الرقبة، كالأحذية التي تستخدم في رياضة المشي بالجبال، وعليه طبقة من الطين.

أسمع رنين كلمة «أهلًا!» من البحر خلفي. أستدير بسرعة وقد ملأني الشعور بالهلع.

هناك امرأة تخرج من البحر. أتراجع بسرعة، بعيدًا عن أشيائها، بعيدًا عن رضيعها، وقد نسيت أنها ليست من سكان الجزيرة.

تكرر: «أهلًا»، ثم تستطرد باللغة الأيرلندية: «مرحبًا...؟».

تستمر خطاي في التراجع على الرمال. إن رآني أحد سكان الجزيرة أقف أمام

طفل هكذا، فسوف يبعدني عنه ويبصق على الأرض، وهذا أسلوبهم في اتقاء شر شيء ملعون.

عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، كنت واقفة خارج المتجر، عندما سقط طفل «أونيا ريليا» في الماء من على المُنزَلَق الذي يستخدم لسحب القوارب أو دفعها للمياه بالمرسى. تركت رضيعها الأصغر سنًا بعربته وركضت بأقصى سرعة تجاهه. لفتت صرخاتها انتباه سكان الجزيرة، فاحتشدوا كما يفعلون دائمًا، وقفز بعضهم في المياه لكي يساعدوا الطفل. بينما وقف البعض الآخر وعلى وجههم نظرة خاوية، وهم على استعداد لمشاهدة الكارثة أو الفرج، أيهما كان. حينها سمعت صرخة ضعيفة تأتي من عربة الرضيع بالقرب من يميني، فتحركت وأمسكت مقبض العربة الذي يشبه حرف الـ«U» وبدأت أهزها برفق، بينما قلدت الأمهات اللاتي كنت أراهن على الجزيرة وهن يحاولن تهدئة أطفالهن، «ششششش». رأتني إحدى فتيات عائلة «سوليفان» في البداية، فصرخت «ابتعدي» وجَرَت نحوي.

هاجمني ثلاثة منهم مع أنني لم أحاول حتى المقاومة، يصرخن ويبصقن ويدفعنني. استمرين في مطاردتي حتى صرت بعيدة عن الرضيع، وعُدن إلى عربته، وظللت في مكاني، قريبة منهن حتى أستطيع أن أسمعهن إذا لمّحن لما فعلته ولم كان فِعلًا بغيضًا إلى هذا الحد. أردت أن أفهم. ظللت أراقب الناس بينما عادت «أونيا» وملابسها تقطر بللًا إلى العربة وابنها ملتفًا حولها؛ حينها كانت مجموعة من النساء العابسات يحرسن العربة. ابتلعت المجموعة «أونيا» وابنها، وبدأت المحادثات تتوقف وتُستأنف، وصوتها يرتفع وينخفض. شقُّوا صفهم كي يشيروا إليّ أحيانًا، فشعرت أنهم يدبرون خطة ما. علم جزء مني أن عليّ أن أترك المكان، ولكن جزءًا آخر (مثيرًا للشفقة) كان لديه أمل أن «أونيا» قد تأتي وتشكرني على محاولة تهدئة رضيعها.

فُضّ الجمع وخرجت «أونيا» من بينهم، تقدمت ناحيتي وهي تنظر للأرض.

اقتربت مني جدًا، أقرب من أي من سكان الجزيرة أو حتى جدتي. رأسها المنكس كان قريبًا جدًا، لدرجة أنني استطعت أن أرى الخط الأبيض لفروة شعرها الذي يقسم رأسها حيث صففت شعرها المموج. بحركة بسيطة، كان من الممكن لي أن أُقبّل تلك البشرة الرقيقة. رأيت الأمهات يفعلن ذلك مع أطفالهن. بصقت

عليّ ثلاث مرات ثم ابتعدت. لا بد أن هذه هي الخطة التي قررن أن ينفذنها كي يعكسن مفعول التعويذة التي ألقيتها. هجرني الأمل في الشُكر، كان مثيرًا للشفقة، واتجهت للبيت، بينما التصق بتنورتي وساقيّ العاريتين بصاقها.

السيدة التي تناديني الآن خارج المياه تقريبًا. أصابع قدميها مدببة وخطواتها خفيفة بينما تخطو بالمياه الضحلة. ترتدي حمالة صدر متينة بيضاء وسروالًا داخليًا أبيض ضخمًا ذا خصر مرتفع جدًا حتى أنه يكاد يلامس ثدييها. أستطيع أن أرى حلمتيها وشعر عانتها من خلال الملابس البيضاء الرطبة. جسدها، حجم جسدها يذهلني، وأنا خجولة. تبدو جميلة وبصحة جيدة ولذيذة. جسدها كبير ومِعطاء، يتدفق ويرتجف. تنتاب يداي رغبة مُلِحّة في لمسها، لذا عليّ أن أضمهما في قبضة كي أتأكد أنهما لن تنطلقا إلى الأمام وتتحسساها. لم أرَ جسمًا كهذا في حياتي.

أدرك أن «الشيء» طريح الفراش بالبيت، هذا الحطام، كان جسده يشبه هذا الجسم يومًا، فيستيقظ بداخلي رعب كامن. ماذا حدث لـ«الشيء»؟ ماذا حدث لجسد «الشيء»؟

«هل تتحدثين الإنجليزية؟»، تخاطبني باللغة الأيرلندية، وتبتسم وكأن أحدًا لم يكشر لها عن أنيابه من قبل في حياتها كلها. أنظر للرضيع على الأرض، ولا أصدق مدى ثقتها في تلك الجزيرة.

أزد: «نعم. أستطيع، أتحدثها». كلماتي أنا تفاجئني، تخرج من فمي بسرعة حتى دون أن أرتبها أولًا.

رؤياها تغمرني جسديًا؛ جسدي ينفتح لها بحيوية لا أعرفها. جسدها يثير بي الشعور نفسه الذي يثيره بي المحيط، تلك الحالة المختلفة.

تنحني لتلتقط الرضيع قائلة: «أنا رايتشيل، وهذا شيماس». الرضيع يبدو بالغ الصغر بجانبها، فيتلاعب بالمنظور ويجعلها تبدو عملاقة، بينما يبتلع ثدياها الرطبان وبطنها الكائن المنمنم.

أقول: «أهلًا». كلامي مقتضب، وكنت أتمنى أن أعرف كيف لا يكون مقتضبًا. قليلون هم مَن تحدثت معهم لمثل تلك الفترة الطويلة. جدتي بالطبع، بابا، «إيشا» في المتجر.

تبتسم «رايتشيل» بشكل يجعلني أعتقد أن ارتباكي لا يضايقها.

تسألني: «ما اسمك؟».

إخبارها باسمي يتطلب أن أستخرجه من أعماقي وأزيل عنه التراب. لم أحتج إلى اسمي منذ زمن. لم يسألني أحد عن اسمي بعد مدرب السباحة. نحن لا نحتاج أسماء في هذا البيت المتكلس، فنحن حتى حين نتكلم، نتكلم معًا، لا عن بعضنا بعضًا.

أرد: «اسمي إيبِلِين». تلك الكلمة التي يندر استخدامها تبدو غريبة على لساني.

تحاول هي أن تنطق الاسم قائلة: «إيلين؟».

أصحح لها نطقها، قائلة: «لا، إيبيبي-لِين».

تقول: «جميل، ما معناه؟».

لم يخبرني أحد معنى اسمي من قبل، فأهز كتفيّ فقط. تقول هي: «ربما يعني جزيرة؟ الكلمة تشبه كلمة جزيرة بالأيرلندية».

أتمتم: «نعم» وأشعر بالإحراج لوجود مثل تلك الفجوة الجديدة في معرفتي

بنفسي.

تسألني: «هل لكِ أن تحملي شيماس بينما أرتدي فستاني؟».

يفاجئني السؤال، فهناك امرأة تحدثني، امرأة تريدني أن أحمل رضيعها. لا تنتظر حتى أجيب، بل تضع الرضيع على ذراعاي، وتلتقط الفستان، وتمسح الرضيع بطرفه برفق كي تجففه من المياه التي علقت به من جسدها.

يبدو أن الرضيع يثق بالناس كأمه، فيستكين بين ذراعاي. ترتدي «ريتشيل» الفستان، يشبه خيمة كحلية اللون دون شكل جمالي يذكر. تحرر شعرها الشبيه بالحشائش من رقبته، تربطه أعلى رأسها باستخدام رباطة شعر مرنة كانت حول ساعدها. «أشكرك»، تقولها بينما تأخذ الرضيع من بين ذراعيّ وتحمله على كتفها.

تسألني: «هل أنتِ من سكان الجزيرة؟».

«نعم».

«هل يتحدث الجميع اللغة الأيرلندية هنا؟».

«نعم».

«ولكنهم يتحدثون الإنجليزية أيضًا؟».

«نوعًا ما».

«أنت لا تتكلمين كثيرًا، أليس كذلك؟».

«لا».

تضحك، فأسأل نفسي: «هل كلامي مضحكًا؟» أشعر برجفة غريبة مثيرة بأعماق جسدي عند رؤيتها وهي تضحك. وجهها هو ألطف ما رأيت في حياتي. فمها عريض جدًا، ولديها فجوة بين أسنانها الأمامية، وعيناها عميقتان وداكنتا اللون. شفتاها ملونتان بلون الدم، ووجنتاها ورديتان بفعل مياه البحر الباردة.

«هل ستسبحين؟»، تسألني بينما تشير إلى ملابس السباحة التي أرتديها.

أرُد: «نعم». أريدها أن تستمر في النظر إليّ، وأعرف أنني يجب أن أستمر في الكلام إن أردت أن ألفت انتباه هاتين العينين. أستطرد دون تفكير: «لا أحد يمارس السباحة بالجزيرة، سيرمقك سكان الجزيرة بنظرات غريبة».

نجحت، تتحرك كي ترتدي حذاءها ذا الرقبة الطويلة والأربطة الفضفاضة، ولكن عينيها - هاتان العينان! - لا تزالان تنظران إليّ.

«حقًا؟».

«إنهم يؤمنون بالخرافات».

«ولكنك تمارسين السباحة، هل يرمقونك بنظرات غريبة؟».

«إنهم لا يرمقونني بأي نظرات تقريبًا».

تتلاشى ابتسامتها للحظة، فينتابني القلق أنني أثرت انزعاجها.

ولكن لا. تلين ملامحها وتقول: «أفهم هذا الشعور». تُكوِّن الكلمات بنعومة؛ تخرج كل كلمة وكأنها زهرة حنون من بين تلك الشفتين.

(تلك

الشفتان)

لا تستطرد في كلامها، ولكن تقترب الحقائق المتباعدة على الشاطئ هذا اليوم من بعضها بعضًا وتشكل صورة ما. إنها أكبر سنًا مني، ولكنها لا تزال شابة، ربما تكون في العشرينيات. إنها تسبح على شاطئ مكان كريه تظنه ملجأ آمنًا. لا يوجد أحد، لا يوجد رجل كي يحمل الرضيع، فتتركه على الرمال، تلك الأرض المتقلبة الرخوة التي لا تثبت على حال. أرض خائنة، تستطيع أن تحمل الطفل أو أن تنشق وتبتلعه. إن بدأت الأرض في ابتلاع الرضيع فسوف يستنشق الرمال بلا

مبالاة، غير عابئ بمدى خطورة انقلاب عالمه رأسًا على عقب في لحظة. ستمتص الشفتان المنمنمتان المزمومتان الرمال الخشنة، وستمتلئ عيناه وأذناه وأنفه بها. ستملأ الرمال الرضيع حتى يصبح ثقيلًا ومبتلًا، بينما تصرخ الأم وتنشب أصابعها في الرمال بحثًا عنه. إن نجحت الأم المكلومة في استخراجه، فسوف تجده كقطعة الإسفنج عالية المسامية. سترفع جسد الطفل إلى وجهها وتحتضنه في انهيار، بينما تميل رأسه الصغير إلى الأمام بلا حول ولا قوة.

«كنت أعيش في مدينة صغيرة» هكذا أضافت «رايتشيل»، ثم استطردت: «كانت الحياة صعبة بما فيه الكفاية لأنني فنانة، ثم أعلن الطفل عن نفسه». قالتها وهي تشير إلى بطنها محاكية شكل البطن الحامل. أضافت: «يا لها من وقاحة!»، ثم ابتسمت، بينما ألقت باللوم على الجسد المسترخي على ذراعها. «علمت أنني قد حصلت على إقامة الفنان هنا قبل أن يولد بأسبوع، فكان التوقيت سيئًا للغاية، إنه في الأسابيع الأولى من عمره! ولكنها كانت فرصة لا يمكن تعويضها، فلديّ منزل مجاني لمدة شهر، ويدفعون لي مبلغًا أسبوعيًا. لا أكاد أصدق هذا».

ذهني يتتبع كلماتها محاولًا ترتيبها في تسلسل أستطيع أن أفهمه. أشعر بالبلادة والعجز أمامها، أعاني كي أفهم لأن لا أحد يتحدث في منزلي. حديثي مع جدتي بسيط جدًا، حتى أنني لم أتعلم قط كيف أفهم خيوط كل تلك القصص مرة واحدة، فأمسك بالخط الذي يثير اهتمامي.

«أنت فنانة». يستلزم نطق الكلمة دقة في الفم؛ تبدأ في الحلق، ثم تصعد للسان، ثم تهمس وتقف عند صفيّ الأسنان المنطبقين على بعضهما. رأيتها مكتوبة، ولكن لم أنطقها قط من قبل.

«نعم»، «رايتشيل» الآن تغلق سحاب معطفها الشمعي والرضيع بداخله. «ولكني لم أنتج الكثير منذ الولادة، الأمور صعبة جدًا في وجوده». يبدو على «رايتشيل» الإحباط للحظات، قبل أن تستعيد طاقتها وتستطرد: «الفن صعب. من الصعب أن تصدقي أنكِ فنانة حتى عندما تحققي النجاح، فإن كنتِ بطيئة

في إنتاجك أو كان إنتاجك سيئًا، هذا صعب». أقول: «لم أكن أعرف أن الناس لا يزال باستطاعتهم أن يكونوا فنانين». يثير كلامي نظرة حيرة منها، فأحاول أن أشرح. «قرأت عن ليوناردو دافنشي في كتاب التاريخ و...»، أفكر في أسماء أخرى، «ورمبرانت؟». لست واثقة أنني أنطق الاسم بشكل صحيح، ولكن أستطرد بسرعة مع ذلك وأقول: «ظننت أن الفن قد اختفى... أعني... مع ظهور الكاميرات في العصر الحالي». أراقب ابتسامتها الصبور تتلاشى من فوق شفتيها، وأتمنى لو لم أقل العشرين كلمة السابقة.

«في الواقع الأمور مختلفة الآن تمامًا، فأنتِ على حق، لم يعد لدينا فنانون كالماضي». تحاول ألا تشعرني أنني شديدة الغباء. تكمل: «كان يحاول كثير من الفنانين تصوير الحياة في هذا الوقت، لانعدام وجود كاميرات كما قلت، فكان هذا نوعًا من تسجيل اللحظة. أحيانًا يكون هذا هو الهدف من الفن الآن، ولكن لا نحاول دائمًا أن نعيد إنتاج ما نراه أمامنا مباشرة. أحيانًا نحاول أن نصوِّر شيئًا أمامنا، ولكن لا يستطيع الجميع رؤيته، كإحساس ما أو قصة، أتفهمين؟».

بالتأكيد لا أفهم، ولكن أومئ برأسي في صمت. ليتني كان معي دفتري، حتى أستطيع أن أكتب هذه الرؤية المحيِّرة به، ولكن بعد صفحات وصفحات من حروف أمي البدائية وخدوشها. وضعهما بجوار بعضهما بعضًا مأساة.

تقول: «عليَّ أن أعود إلى المنزل كي أطعمه». أردُّ: «حسنًا، أعتذر عن تعطيلك». تقول هي: «أبدًا! سعدت بالحديث معكِ. في الواقع هل يمكنك أن تزوريني بالمنزل خلال الأيام القادمة؟ لديَّ منضدة عليَّ أن أحركها، وأحتاج إلى مساعدة».

«نعم».

أستنتج من ابتسامتها الباهتة أنني فظة نوعًا ما، فأضيف: «يسعدني أن أساعدك».

تقول: «رائع! هل من الممكن أن نتقابل هنا غدًا؟ الساعة الواحدة؟ سآخذك إلى

المنزل وأطبخ لنا الغداء». تتحدث وهي قد تركتني بالفعل وذهبت باتجاه الطريق الصخري الذي يقع بجوار طرف الشاطئ.

«نعم».

«أراكِ غدًا، مع السلامة يا إيبلين».

سماع اسمي يزعجني، يزعج كينونتي كلها. أسرع بالسباحة في المياه المتجمدة، كي يشعر جسدي بالشعور الغريب نفسه والإثارة نفسها التي أشعر بها بداخلي.

8

فلتشهد الجزيرة.

فلتشهد

ها

يخيِّم الليل على الجزيرة في هذا الوقت من الصيف في منتصف الليل تقريبًا. يسود الظلام بسرعة حين يقرر أن يحل أخيرًا. السماء مظلمة، ولكن مهما أظلمت فلن تكون أكثر ظلامًا من الجزيرة. يتضح أن السماء في الواقع غائبة عندما تظلم، تصبح مجرَّد حفرة سوداء، أما الجزيرة فهي ظلام مادي، هي كتلة من الظلام الحق.

تارخا، تارخا، تارخا

يصف سكَّان الجزيرة كل أنواع الظلام باستخدام كلمة «تارخا»: ظُلمة كالوحل وهوَّات عميقة. يصفون قاع البحر بـ«الفراش المظلم» باللغة الأيرلندية.

(الفراش المظلم

حيث تنام هي)

الجزيرة مظلمة، ولكن البحر مظلم هو الآخر، مع أنه يتكون من شيء مختلف تمامًا. البحر حريري، تستخلص كل موجة فيه لمعانها من النور الخجول الذي تعكسه هوة السماء اللانهائية في الأعلى. البحر ميِّت، يزيِّنه النور الميِّت للنجوم الميِّتة، ويبدو حيًا لأنه يتمايل ويغني وينشد، مع أنه ميت. يعج بالموت، وهو جميل جدًا جدًا. تلعق المياه قاع الجُرف بالناحية الغربية وتلتف حوله أسفل هيكل الجزيرة، أما بالناحية الشرقية، فتحتضن الأمواج الشاطئ كعاشق مستعد لأن يأخذه عشيقه.

البحر هو الموت الذي يعاد إحياؤه. يقود التيار الجثث تحت هذا السطح المتذبذب فيحيطون ببطن الجزيرة ويتمايلون في رقصة.

يتراجع البحر مع كل زفير فيبدو خُطام الجزيرة وكأنه يرتفع ويرتفع. سكان الجزيرة رُكّاب حُكم عليهم بالموت، ومنازلهم كالرخويات التي تتعلّق بالأرضية الحجرية. الأمر كله محفوف بالمخاطر. هناك مائة وأربعة وثلاثون قلبًا من لحم ودم ينبضون بأجساد من لحم ودم، يسكنون منازل حجرية آيلة للانهيار تحت رحمة هذا الكائن الميت والغاضب. أصغر قلب على الجزيرة هو قلب بحجم حبة الجوز وينتمي لرضيع «رايتشيل». لا تحتاج إلا إلى قرصة من الإبهام والسبابة كي تقضي على نبضه الرقيق؛ ضغطة محكمة كي ينفجر كثمرة توت. يقاتل كل شبر حي على هذه الجزيرة في معركته الخاصة المتواضعة.

تبدو مجرد المحاولة بلا جدوى في هذا المكان الكريه. ربما يدرك «الشيء» طريح الفراش حقيقة هذا المكان: أن تستسلم، أن *تتوسل* للناس كي يقضوا عليك. ربما يعلم «الشيء» طريح الفراش ما لا نعلم. أو ربما «الشيء» أكثر قابلية من الآخرين أن يواجه ما يستطيع أن يفعله هذا المكان بك.

يعرف الآخرون هذا، ولكنهم يهربون من هذه المعرفة. يقولون إنها «حوادث» أو «سوء حظ». لا يُعتَد بسجلات الجزيرة كما بدأ يتكشف لمسؤولي المتحف. المعلومة الأكيدة هي أنه لم يأتِ مندوب تعداد سكاني للجزيرة حتى سنة 1931.

يكره سكّان البر الرئيسي الجزيرة لأن القصص تنتقل حولها من جيل إلى جيل مثيرة مشاعر القلق والتوتر.

تقول القصص: «لم يكن لسكان الجزيرة عيون»، بل كان لدى كل منهم بوجوههم فجوتان عميقتان كالآبار خاويتان. كان النظر بعيني أي من سكان الجزيرة شبيهًا بالنظر إلى السماء اللبنية خلفهم، سوف تلتهمك تلك الهوة.

حذّر العجائز من النظر إلى سكان الجزيرة وهم يبتسمون.

ولكن افتقدت القصص للتفاصيل، كانت مجرد قصص غامضة. يَكمُن الرعب في هذا الغموض. يَكمُن الرعب في الثغرات.

قالت القصص: «أُنقذ سكان الجزيرة الناجين من الغرق، فامتن لهم الناجون، ولكن سكان الجزيرة سلَّموا هؤلاء الناس لنهاية أسوأ».

لا تتركهم يظهرون لك الابتسامة أبدًا.

لا تنظر بداخل أفواههم أبدًا، لا تنظر بداخلهم أبدًا.

قالوا: «الجزيرة تدفع الناس لارتكاب أفعال ما».

سَحَب سُكان الجزيرة هؤلاء المذعورين الذين كانوا على وشك الغرق من البحر بأيديهم العنكبوتية الباردة وإلى داخل الجزيرة.

قال العجائز إن الجزيرة تدفع الناس لارتكاب أفعال ما.

يترك سكان الجزيرة الناجين ويتراجعون. لا يحتاجون لفعل أي شيء آخر، بل يقفون للمشاهدة فقط. يتجولون بالقرب من هذا الناجي التعس ويراقبونه بينما يتعثر في مشيته.

قال العجائز إن الجزيرة تدفع الناس لارتكاب أفعال ما.

شهد السُكَّان الجزيرة.

شهدوا

الـ جزيرة

اتفق سكَّان البر الرئيسي على سبب مختلف (وممل) للنفور من سكان الجزيرة عندما تم تسجيل أول تعداد سكاني لها: إنهم قبيحون، إنهم فقراء، إن لغتهم الأيرلندية غير مفهومة. كانت الجزيرة موطن مئة وسبعة وثمانين روحًا في ربيع عام 1931، يتكونون مما يقرب من عشر عائلات، يمارسون الصيد ويعيشون

حياة من التقشف.

عندما عاد موظَّف التعداد السنة التالية كي يتأكد من بعض البيانات، وجد أن التعداد قد قلَّ فجأة إلى مائة وستة وستين نَسَمَة. كان هناك واحد وعشرون شخصًا في عداد المفقودين. رفض سكَّان الجزيرة التعاون مع الموظَّف، فصعَّد الأمر إلى سلطات البر الرئيسي.

سافروا للجزيرة كي يحققوا في الأمر. سجَّل الكاتب بعضًا مما أسفرت عنه التحقيقات.

يبدو أن تلك الجزيرة منطقة تستخدم فيها اللغة الإنجليزية مع الأيرلندية، ولكن اللهجة التي يتحدثها السكان هنا تكاد لا ترتبط بالأيرلندية.

لم يبدِ الذين فهمنا كلامهم انزعاجًا مما يبدو موتًا جماعيًا لواحد وعشرين شخصًا منذ شهر مارس سنة 1931.

أخذونا إلى «المقابر» البدائية بالجزيرة (التي تقع بشمال شرقها، الناحية المرتفعة المكشوفة منها، انظر الخريطة المرفقة). ممارسات الدفن لديهم غير مألوفة، فقد أخبرتنا فتاة اسمها «ريونوخ» (في السابعة عشرة من عمرها تقريبًا) أنهم لا يستطيعون الحفر بالجزيرة، فأكبر عمق يستطيعون الوصول إليه بالتربة يبلغ طوله طول ذراع بالكاد، وهذا يبرر «الحل» الذي توصلوا إليه. يلعب أطفال الجزيرة بالمنطقة، ويبدون غير عابئون بالمشهد المروِّع هناك. تفصح لنا «ريونوخ» أن الجزيرة تتكبد خسائر بهذا الحجم بشكل متكرر نظرًا لخطورة الصيد بالمياه المحيطة.

رفضت الفتاة التعاون معنا بعد أن أشرنا إلى أن سكان الجزيرة لا بد وأن انقرضوا منذ زمن بفرض صحة ما تقوله.

يبدو أن بعض المفقودين مدفونين بـ«قبور» معينة، وتؤكد ذلك شهادات سكان الجزيرة الذين يدَّعون أنهم من عائلات المتوفين، ولكن لا يزال هناك سبعة على

الأقل في عداد المفقودين.

يمكن إلقاء اللوم على وجود تناقضات بالسجلات، ولكن حتى باعتبار وجود بعض الأخطاء وتكرار العد، ما زلنا نبحث عما يقرب من خمسة جثث، ويبدو أن بعضهم من العائلة نفسها. جمعنا عددًا من السكان أمام المتجر وسألناهم عن تلك الظاهرة، فردّ رجل مسن (في الستينيات أو السبعينيات من عمره تقريبًا):

«إن أراد رجل أن يركب البحر ويأخذ معه عائلته، ماذا نفعل نحن؟»

وهكذا يبدو أن سكان هذا المجتمع الصغير يهاجرون أحيانًا.

قال العجائز إن الجزيرة تدفع الناس لارتكاب أفعال ما.

وربما لا بد أن يكون للجزيرة يد فيما شَهِدَته حقًا إن أدارت ظهرها له بهذا الشكل.

9

يوقظني صرير مفصل الفراش كالعادة في الصباح التالي لمقابلتي لـ«رايتشيل». ليلة مليئة بفوضى صورها. مياه نومي مضطربة، أسبح في صورتها وهي تبتسم، صورتها بينما يتمايل شعرها إلى الأمام حين تنحني، صور جسدها البض الثقيل. أودُ أن أغمس يدي في جسدها، جسدها الفتّان. قلبت مقابلتنا كياني رأسًا على عقب. فقدت السيطرة على نفسي تمامًا. أطلق عليها نعوتًا لم أجد لها منعوتًا من قبل: إنها فاتنة، جميلة، حيَّة، لذيذة.

(لذيذة، لذيذة، لذيذة)

باغتني جوع مفاجئ تجاهها، مع أنني لا أستطيع أن أقرر ما أريد فعله بها بالضبط.

تقطع صرخات مفصل الفراش أحلامي، تقسمني نصفين من ملتقى فخذيَّ إلى عظمة القص بصدري، تمامًا كالضفدع المُشرَّح في كتاب العلوم. عندما أنقسم هكذا، أكتشف الحقيقة: لقد أصابني لقاؤنا القصير بعدوى تلك الأفكار عن «رايتشيل»، وزُرِعَت بذرة لشهية مجهولة وغريبة بداخلي.

أذهب لجدتي و«الشيء» طريح الفراش، وآخذ مكاني خلف جدتي وأسحب معها الحبل. يرتفع «الشيء» وسط كآبة غرفة النوم.

عندما أتأكد من ثبات الحبل، أخاطب جدتي: «كان من الممكن أن أقوم أنا بتلك المهمة، لا أنت، لقد تأخرت عن يومك الأول».

تضبط جدتي تنورتها الرمادية وتفرد أكمامها. لقد استيقَظَت منذ زمن وقد أرهقها غسيل الملاءات لساعات. ردَّت: «سأصل في موعدي غدًا. من الآن فصاعدًا أنت المسؤولة. هل ضبطتِ المنبه حتى؟». نبرتها لوَّامة، ولكنها لا تكترث حتى بالنظر إليَّ. استطردت وهي تتحرك تجاه الباب: «لا يجب أن تتأخري عن القدوم

إلى الغرفة، أنت تعلمين ذلك».

نعم، أعلم ذلك.

إن تُركت الحفّاضة أكثر من اللازم فإنها تنضج وكأنها فاكهة مريعة معبأة بين ساقي «الشيء».

أحضر الإفطار وآكل شرائح الخبز أمام طاولة المطبخ، بينما تذهب جدتي لحال سبيلها. الحائط صامت اليوم، ما يبدو كفأل خير لزيارة «رايتشيل». كنت سأقلق إن أبدى الحائط اعتراضًا. في الواقع أنا مضطربة، ولا أعرف كيف أنزل من قمّة جبل القلق غير المحتمل هذا. لا ينتابني سوى إحساس أن كل هذا سيتلاشى عندما أكون أمام «رايتشيل».

لم أتطلع إلى شيء في حياتي. يتطلّع الأطفال في الكتب إلى عيد الميلاد المجيد أو إلى لقاء صديق جديد أو إلى حفلات أعياد ميلادهم، وهذا ما لم يحدث لي قط. عندما سألت جدتي عن يوم ميلادي، ردّت باستخفاف: «لا يهم».

بعدها رأيتها خلف المنزل وهي تبصق على الأرض كما يفعل سكّان الجزيرة إن قالوا أو فعلوا شيئًا يجلب الحظ السيئ.

(أو عندما تلتقي عيونهم عينيّ).

كانت تُخلّص نفسها من لعنة ما لم أفهمها. آلمني الموقف، ولكن كونها بصقت بعيدًا عني بدا وكأنه شعور قريب من الحب، بمقاييس جدتي على الأقل. بدت كمحاولة لعدم جرح مشاعري، ولهذا شعرت بالامتنان.

أرتدي ملابسي بينما يبرد «البوريدج» الذي سأطعمه لها. اليوم هادئ جدًا، فيكفي ارتداء بنطلون جينز وتي-شيرت أسفل معطفي الثقيل. بعد ذلك أملأ هذه الحفرة القذرة، فمها، بالطعام. تتحرك عيناها يمينًا ويسارًا كالعناكب الخائفة. أفكر فيما أفعله بعد ذلك، فألقي نظرة سريعة على الأرض ولا أجد شيئًا جديدًا بعد، ما

زالت المناطق المُصنفَرَة حديثًا ناعمة كما هي. أسأل نفسي إن كان هناك ما أفعله حتى أؤجل تغيير الحفاضة لبضع دقائق. يسوء الوضع كلما تأخرت. أعرف ذلك.

أميلها إلى الأمام حتى يصبح جبينها أمام ركبتيها. يشهق «الشيء» نتاج الحركة، بينما يتحرك عمودها الفقري بفقراته العاجية، فقرة فقرة، تحت الفستان الخفيف كالورق. أرفع القماش كي ألقي نظرة على عين الزواحف الموجودة بظهرها، وأجد أنها لا تبكي اليوم. لن تستحم اليوم، فأنظفها سريعًا وأغير ثوبها، ثم أعيدها إلى وضع الجلوس.

سيجب عليّ أن أتعامل مع حالة أسوأ من الحفاضة المتسخة المبتلة بفاكهة فضلاتها العطنة إن تركت الحفاضة كما هي أكثر من ذلك، لأن الوضع يتدهور بسرعة بسبب الحرارة والرطوبة، ولهذا نستخدم الحفاضات فقط ليلًا، بينما نضعها على المرحاض كل بضع ساعات يوميًا، وربما تبقّى لديها بعض الذاكرة العضلية، لأنها لا تُخرِج أبدًا إلا وهي في هذا الوضع. الساعة لا تزال التاسعة صباحًا، فسأخلع عنها هذه الحفاضة وأضعها على المرحاض، ثم ألبسها حفاضة جديدة هذه المرة فقط حتى أستطيع الذهاب لمقابلة «رايتشيل».

(مقابلة «رايتشيل»!)

(ينتفض قلبي)

ستتضايق جدتي لأنني سأترك «الشيء» مرتديًا حفاضة لمدة يوم.

ترد عليّ بعصبية: «إنها لا تعاني سلس البول» كلما تذمرت، قائلة إنه سيكون من الأسهل ألا نضطر لرفع «الشيء» طريح الفراش وجرّه إلى المرحاض الساعة الحادية عشرة صباحًا، ثم الثانية ظهرًا، ثم الخامسة مساء، ثم الثامنة مساء، وأخيرًا في المساء. ثم تستطرد جدتي قائلة: «التعامل مع الحفاضات أسوأ عمومًا» وتتنشّق.

إنها على حق، فالتعامل مع الحفاضة مشكلة بالفعل. أسحب الدلو الذي يحتوي

على المناديل المبللة والحفاضة النظيفة وكريم الأطفال من أسفل الفراش. ننظف هذا الدلو ونعيد ملأه يوميًا.

أرفع قدميها وأدخلهما بالجيوب التي خيّطناها بنهايات كل ملاءة فراش كي تبقى ركبتيها مثنيتين وساقاها مفتوحتين بينما نغيّر حفاضاتها. أفُك الشريطين اللاصقين بينما أغلق فمي. أسحب مقدمة الحفاضة حتى تلتقي الفراش، فأتراجع عنها بفعل اندفاع الحرارة الكريهة. أبعد وجهي قليلًا كي ألتقط أنفاسي، ثم أدخل كل يد وحدها بخفة بالفراغ الواقع خلف كل ركبة وأشدّها، فيخلق ذلك مساحة خاوية أسفلها تسمح لي أن أخرج الحفاضة بيدي.

سمعت بابا وهو يغيّر لها الحفاضة، ولّد ذلك بداخلي أحاسيس غريبة. يتحدّث إليها طوال عملية التغيير، يخبرها بما سيفعله بكل خطوة بصوت هادئ مَرِح. تكاد تكون تهويدة أطفال إن لم تكن بها كلمات. يقول إنه يغير الحفاضة بهذه الطريقة كي يعبر لها عن احترامه ويمنحها شيئًا من الكرامة.

يتأجج غضب جدتي ولا تفصح عنه عندما يغير بابا الحفاضة.

تتمتم للحائط واجمة وهي واقفة أمام الحوض، بينما تغلق مفاصل يديها وتفتحهما بعنف وهي تعصر وتخنق الملابس التي تغسلها: «من السهل أن تحافظ على كرامتها وكل هذا الهراء عندما تغير الحفاضة مرة شهريًا».

لا أتحدث إليها بينما أغير لها الحفاضة، لأنني أعتقد أن هذا بلا جدوى. بابا أرق منا، ويحب «الشيء» لسبب ما. تُغَذّي ذكرياته معها هذا الحب، أما «الشيء»، فننظفه له مرة في الشهر كي يستهلكه. من السهل أن يعتبرها زوجة وأمًا مريضة وفي وضع مأساوٍ ما دام لا يراها بشكل مستمر. إنه غير مضطر لرؤيتها كل يوم. إنها لا تحيط به طوال الوقت وتفسد عليه حياته. لا يرى «الشيء» على حقيقته لأن لديه رفاهية عدم النظر إليه بشكل مباشر. لديه رفاهية النظر بعيدًا.

التعامل المستمر معها قَتَل تعاطف جدتي.

أنظِّف الخط الخفي لفمها الثاني بالمنديل، وأمسح به الشفرين والثنيات. ألقي بكل منديل مبلل مستعمل بالدلو. على وجهي تعبير دال على الاشمئزاز. إن «الشيء» مقزز. أشعر بالحزن؛ يا لحياتها المثيرة للشفقة، يا لحياتي المثيرة للشفقة! أتمنى لو أستطيع أن أهتم كما من قبل. استُنزِفَ الاهتمام مني بسبب العمل المستمر على خدمة احتياجات جسدها.

إنها تتحرك ليلًا.

لِم لا تذهب إلى المرحاض اللعين إذًا؟

أترك ساقيها مفتوحتين عندما أنتهي كي أسمح للهواء أن يدخل للمناطق المغطاة بجسدها، عسى أن يثني هذا أي عدوى عن الاستقرار هناك. آخذ الدلو للمطبخ كي أنظفه وأعيد ملأه.

الساعة الآن التاسعة والنصف صباحًا، أنكب على تحضير وجبة العشاء؛ أقشر الخضروات وأختار جثة عمرها يومين لدجاجة لطبخها.

«رايتشيل، رايتشيل، رايتشيل»، اسمها يرن في أذني.

الخطوة التالية هي المرحاض: أرفعها، أضعها على المقعد، أسحب المقعد، أرفعها ثانية، أضعها على المرحاض. أنظفها، أجففها. أرفعها، أضعها على المقعد، أسحب المقعد، أرفعها، أضعها على الفراش. يتصبب مني العرق في نهاية كل هذا.

أضع عليها الحفاضة الجديدة عندما أعيدها إلى الفراش، ثم أسأل نفسي أين أضعها بينما أذهب للقاء «رايتشيل».

ستتضايق جدتي لأنني سأترك «الشيء» طوال اليوم. لا نترك «الشيء» لفترات طويلة، فهي تحتاج لتغيير وضعها على الفراش كل ثلاثين دقيقة.

(ولكن اليوم فقط ستسير الأمور على ما يرام، أليس كذلك؟).

ستتضايق جدتي لأنني سأذهب للقاء «رايتشيل». لن تثق في عدم إفشائي

لحقيقة «الشيء» طريح الفراش لها. أسأل «الشيء» بفظاظة: «هل تريدين الاستمتاع بالمنظر؟» بينما أشير للمقعد القابع بجوار النافذة التي تسدها الحجارة. المقعد غير ثابت، فلا نتركها فيه أكثر من ساعة كل مرة. ولكن تركها في الفراش سيعني بقاءها به منذ ليلة أمس، أي لمدة عشرين ساعة متواصلة.

دون تغيير لوضعها.

(ولكن ألا أفعل ذلك اليوم فقط؟).

أقرر أن اليوم فقط ستسير الأمور على ما يرام، والفراش هو أفضل خيار. إنه يوم واحد فقط. أحركها لتجلس على المقعد بينما أحضر الغداء كي أمنح قرحها الفرصة للتنفس لبرهة، مع أن المقعد يؤدي للضغط على مناطق جديدة بالطبع، وبالتالي قرح جديدة. لا نهاية في الأفق لثقل جسدها. ليس بيدنا سوى أن نرقص بجسدها كل يوم، نقلبها ونرفعها ونحركها من جانب إلى آخر، فقط كي نتجنب الضغط الذي لا ينتهي لجسدها على الفراش ونحارب هذا الهجوم السلبي الغريب؛ تلك المسيرة التي لا هوادة فيها نحو التردّي.

الغداء اليوم حساء الدجاج المعلّب. أراقب الأسطوانة الهلامية وهي تذوب بفعل الحرارة بالإناء. لونها هو نفسه لون بشرتها، ورائحتها كرائحة فروة الشعر المتسخة. لن آكلها، لأن «رايتشيل» ستحضّر لي الغداء. ماذا تأكل «رايتشيل»؟ أقطع أطراف شريحة من الخبز الأبيض الطري وأضعه في صحن، ثم أصب الحساء فوقه. أتركه ليبرد قليلًا، بينما أكتب ورقة لجدتي وأتركها على منضدة المطبخ كي تقرأها إن عادت من المتحف في أثناء استراحة الغداء. أكتب لها أنني ذاهبة للسباحة ولن أتأخر. ستتضايق بشدة، ولكنها قد فقدت الأمل في إثنائي عن السباحة. أخبرها أنني سوف أعود بعد ساعة. أتمنى ألا تبقى أكثر من ذلك وتلاحظ عدم عودتي بعد الساعة. أقول إنني قمت بكل ما يحتاجه «الشيء» طريح الفراش، فليس عليها أن تفعل شيئًا. أتمنى ألا تلاحظ الحفاضة.

آخذ الحساء وأطعمه لـ«الشيء» بأكبر قدر ممكن من الصبر، فالعجلة في الإطعام خَطِرة جدًا. أغرف قطعًا من الخبز المبلل وأضعها بفمها بعدما تنسكب معظم كمية الحساء في حلقها. الخُبز مشبِع، ولكن لا تستطيع أن تأكله إلا عندما يكون بهذا الشكل؛ منقوعًا لدرجة تحوله إلى غُثاء.

مهمتي الأخيرة هي إعادتها للفراش، فأصبح حُرة.

10

أرى «رايتشيل» بينما أقترب من الشاطئ، فيسترخي جسدي، ما يجعلني فجأة أدرك كم كنت قلقة سابقًا. كنت قلقة أنها لن تأتي، أو أن هذا كله كان مجرد حلم، فمثل هذه الأشياء تحدث هنا. يقول بابا إن عقولنا تتلاعب بنا، ولكن أعتقد أن الجزيرة هي من تتلاعب بنا، وأن كلمة «تتلاعب» كلمة لا توفيها حقها.

يقول الكلام نفسه عن هدير الرياح بأغانيها البائسة التي ترددها الحوائط. إنها أغانٍ بلا كلمات، ولكن نغماتها تقتحم جسدي وتعزف على المخاوف الراسخة المختلفة والمتمددة بداخلي. عقلي يتلاعب بي.

أحيانًا لا أسمع سوى البكاء لساعات وأيام ولا يتوقف. يبدو بابا أكثر انزعاجًا عندما أقول ذلك. يرُد: «عقلك يتلاعب بك». يقولها مرارًا وتكرارًا، فيبدو وكأنه يتضرع بالدعاء أن عقلي يتلاعب بي، لا وكأنه يطمئنني.

«عقلك يتلاعب بك». يتسرب اليأس من عينيه وهو يقولها على الرغم من ابتسامته.

عقلي يتلاعب بي.

(ليست فكرة لطيفة. إن كان هذا حقيقيًا، فلم لعبة عقلي هي أن يصرخ لأيام وكأنه رضيع متروك وحده؟).

لا يبدو أن أي شخص آخر يسمع الصرخات، لذا يجب أن أقر باحتمالية ترددها في رأسي أنا فقط، ولكني متأكدة أنها ليست ألعوبة.

تلوح لي «رايتشيل» بسرور بيدها اليمنى، ويدها اليسرى تدعم تلك الكتلة المسماة برضيعها الملتصق بصدرها بقطعة من القماش الرمادي. تخاطبني بالأيرلندية قائلة: «صباح الخير». ترتدي فستانًا وحذاء طويل الرقبة ومتسخًا ثانية. محاولتها التحدث بالأيرلندية مثيرة للإعجاب، لكن خاطئة تمامًا. أعلم أن

لكنة سكان الجزيرة ذات سمعة سيئة لصعوبتها، ومن غير المُرجَّح أبدًا أنها سوف تستطيع التحدث بها، وسكان الجزيرة لن تسلب لبهم المحاولة على أي حال.

أومئ برأسي بينما أقول: «مرحبًا»، وأحاول أن أقلد ابتسامتها اللطيفة.

تستدير قائلة: «هيا بنا!» وتبدأ في السير بالطريق المؤدي إلى الساحل الشمالي للجزيرة، والذي سنصله بعد نصف ميل من المشي. بعد الحقول على يميننا، تلوح في الأفق المقابر ذات الشواهد الحجرية حيث يجد الموتى مثواهم الأخير. لا أخبرها ذلك، لأنه من المستبعد أن تصل إلى هناك، ولكن ربما يتملكها الفضول إن علمت بوجود المقابر.

أدرك أنها تسير باتجاه المصنع القديم، والذي أصبح الآن مكان المتحف الجديد.

جدتي هناك. أتوقف فجأة، وأسألها: «هل تعيشين في المصنع؟».

تستدير لمواجهتي وتبدو عليها الحيرة، وترد: «لا، بيتي قبل المصنع، ولكن سوف تُعرض أعمالي هناك عند انتهاء إقامتي. أعني أنها ستعرض في المتحف. هذا سبب وجودي هنا».

أقول: «حسنًا» وأستمر في المشي وهي أيضًا. جدتي قريبة، لكن ليست قريبة إلى هذا الحد. أقرر أن الأمور تسير على ما يرام.

تتجه نحو باب منزل مبني بالحجارة ذي طابق واحد كنت قد مررت به مرات عدة دون اهتمام. إنه أحد المباني الجديدة على الجزيرة، تلك التي بنيت بسرعة في الثمانينيات خلال آخر فترة اهتم فيها البر الرئيسي بالجزيرة. تطل النوافذ المنخفضة –واحد على كل من جانبي الباب – من أسفل إفريز سطح المنزل، ما يمنحه مظهر الخجلان نوعًا ما. تدخل «رايتشيل»، بينما أقف مكاني.

لم أدخل منزلًا غير منزلي في حياتي، تأتني هذه الفكرة بينما أواجه احتمالية الدخول. أشعر بالقلق فجأة. أعلم أن الأمور بمنزلي ليست عادية، وأعلم ما يكفي

كي أكون واثقة أنه لا أحد سيُدعى لدخوله. أعلم أن دخول منزل «رايتشيل» سوف يكون توكيدًا قاسيًا لمدى بشاعة وفساد منزلي. أشعر بالقلق من الدخول أيضًا لظني أنني سوف ألوثه نوعًا ما إن دخلته.

تناديني: «تفضلي!».

أعلم أنني أتفرد بهذا «التلويث». يسميه سكان الجزيرة بالأيرلندية «رائحة الروح الكريهة».

يبصقون ويتمتمون بتلك الكلمات إن لمست أي شيء، باب المتجر أو عربة الطفل، كي يتخلصوا من وجودي بالمكان.

أعلم أنه من الأنانية أن أخاطر وأدخل، ألوث المكان بوجودي حيث لا يجب أن أكون، هذا المكان الذي ظل حتى الآن خاليًا من وجودي المُفسِد. يصدمني الواقع فجأة. من الخطأ أن أقترب من «رايتشيل». من الخطأ أن أفرض نفسي عليها وعلى منزلها. ستشمئز جدتي مني إن عَرِفَت. جدتي لم تقل قط «رائحة الروح الكريهة»، ولكنها تعرفني. إنها تبتعد عني. بدت جدتي دائمًا في حالة من القلق في كل مرة كنت أحاول فيها احتضان «الشيء» طريح الفراش العنيد في طفولتي، أو حتى حينما كنت أحتضن نفسي التي لا تغني من جوع، عندما كنت أتعلم استخدام ذراعيّ. حينها بدت على وشك منعي ببرود. حتى إن استطعت أن أحتضنها وأضع رأسي على بطنها، كانت تتجمد في مكانها وتظل هكذا حتى أفهم وأبتعد ثانية. لم تضايقني عدم استجابة «الشيء» طريح الفراش لمحاولاتي، لأنني لم أرها تستخدم ذراعيها في أي شيء من قبل، ولكن ذراعي جدتي قادرتان، وتحتضن بهما بابا مرة في الشهر.

لم أحاول أنا وبابا أن نحتضن بعضنا قط. يحاول بين الحين والآخر أن يلمسني بشكل ما، فمثلًا يربت على كتفي أو يطبطب على أعلى ذراعي، بينما يضم قبضة يده وأصابعه كي يقلل الاتصال قدر المستطاع. كثيرًا ما أرى جدتي تبصق في يده

بعد إحدى تلك اللمسات السريعة. يمسح بصاقها بضيق، ولكن أعرف أنه لا يريد حقًا أن يلمسني، بل فقط يشعر أنه مضطر لهذا. أرى الاشمئزاز في شفتيه، حتى إن حاول أن يجبر نفسه على الابتسام.

تمد «رايتشيل» يدها لي من الصالة المظلمة قائلة: «إيبلين!».

حدسي يدفعني لتجنب لمسها.

(لا تلوثيها).

أخطو فوق عتبة الباب قائلة: «نعم، سأدخل». ابتسامتها لي تدل على أنني لست متحدثة جيدة.

تتحرَّك بخفة بالصالة أمامي قائلة: «الغرفة مظلمة لأن عليَّ أن أبدِّل المصباح»، ثم ترفع يدها لتنقر المصباح المعلق بالسقف والذي لا يعمل إلا هكذا. يصير هناك مستطيل من الضوء أمامها، وتبدو وكأنها طيف عندما تخطو بداخله. ألقي نظرة سريعة على نفسي في مرآة معلقة على يميني، وأرى أنني شبح يطاردها. هناك غرفة كبيرة في نهاية الصالة بعرض المنزل كله، لها أربع نوافذ صغيرة محفورة بالحائط الخلفي المطل على البحر بشمال الجزيرة. رائحة المكان جميلة جدًا، فأستنشق الهواء بعمق كي يملأ حواسي. المطبخ يقع بنهاية الناحية اليمنى من الغرفة، ومنه تنبعث تلك الرائحة المبهجة والمدهشة. هناك إناء يغلي على موقد مستقل يخرج منه خرطوم سميك من المطاط متصل بأنبوب غاز قصير. هناك ثلاجة كانت يومًا بيضاء وصارت تميل للون الأصفر الآن وعدة دواليب مطبخ من خشب البلوط البرتقالي، يغطيها كلها مفرش بلاستيكي بيج، وهناك جهاز تحميص خبز وغلاية مياه وحوض. توجد منضدة صغيرة مستديرة بمنطقة لا تبدو تابعة لأي من الغرف بين المطبخ ومكان وقوفنا، عليها أطباق وصحون، أحدها به زبد ورغيف خبز أبيض مقرمش.

«هذه حجرة كل شيء»، تقولها «رايتشيل» وهي تبتعد عن ناحية المطبخ كي

تشير إلى الجانب الآخر، حيث يوجد حامل معلق عليه ملابس الرضيع لتجف، بجوار أريكة قديمة مشققة الجلد، وبجانب كل هذا مجموعة مقتنيات ساحرة. الانطباع الأول هو أن هذا كله شلال من الجمال. تتناثر لمسات ريشة الرسم على اللوحات القماشية كبتلات الأزهار، وعلى الألواح الخشبية ومواد أخرى شفافة. القطع مكدسة بشكل غير منظم، بشكل عشوائي، وكأن ليست هناك حاجة للحفاظ عليها، وكأن هذا الجمال لا ينضب، ولذا لا حاجة للشعور بالقلق من تعرضه للتآكل والتلف. أغلب الألوان باهتة: رمادي وأخضر غائم وبنفسجي مائل للبني على مساحات بيضاء. هناك خطوط رفيعة كالشرايين ذات ألوان أغمق تقطع هذا التجريد المحيط للألوان كي تصوِّر مشاهد متعلقة بحياة البشر بشكل دقيق وصادق. أرى حوضًا في إحدى اللوحات وكومة من قشور الجوز في أخرى. هناك صناديق وصناديق من أدوات الرسم مكدسة بجوار الحوائط ومستندة إليها، حتى أنها مكدّسة أمام الباب الزجاجي الجرَّار الكبير والذي يحتل الحائط الأخير بالمنزل.

«هذا ما أحتاج مساعدتك فيه يا إيبلين!»، وتشير إلى فوضى الصناديق. تستطرد: «جاء المتحف بشابين كي يساعداني في نقل أشيائي من البر الرئيسي، ولكنهما كانا في عجلة من أمرهما، ولم يكترثا بمساعدتي في تنظيم أشيائي. وأنا لم أستعد كامل طاقتي منذ الولادة، ولهذا لا أستطيع أن...».

تنضب كلماتها، فألتقط منها طرف الحديث. أقول: «كان عليهما أن يساعداكِ»، فتومئ برأسها. «ولكن يسعدني أن أساعدك في هذا»، فتبتسم.

ابتسامتها تحرّك شيئًا ما بداخلي، فأدرك أنني أيضًا أبتسم لها. لم أبتسم في حياتي دون بذل مجهود كبير. أضطرب للحظة. أظن أن «رايتشيل» شعرت بهذا، ولكن لم تعلّق.

تتركني واقفة وسط كل هذا الجمال وتتجه للمطبخ قائلة: «علينا أن نأكل أولًا». أتبعها بتردد تلاحظه، فتقول: «لا تقلقي، سنعود لكل هذا. أيعجبونك؟». إنها

لا تبحث عن المديح، بل تريد أن تعرف رأيي حقًا. تفك «رايتشيل» غطاء الرضيع عنه وتضعه في سلة مصنوعة من القش ومستندة إلى حامل خشبي تحت النوافذ الوسطى.

أرُد: «نعم، يعجبونني». لا أدري كيف أعبر عن شعوري أنني تعديت عليها بمجرد النظر إلى لوحاتها. كيف أقول إنني أشعر وكأنني فتَّشت في ذاتها الخفية، وأن هذا أدى إلى شعوري بالحاجة الملحة إليها بدلًا من الرضا بما رأيت؟ الجمال يربكني. فقدت توازني.

نذهب للمائدة، ونأكل من صحون ساخنة ملأها الطماطم والعدس مع الزبادي فوقها. أنا حريصة في البداية، لأن الرائحة جميلة، ولكني غير معتادة على الطعام نفسه. أعرف أننا سنأكل العدس فقط لأن «رايتشيل» قالت إن هذا عدس وهي تصبه في الصحون. الطعم ترابي وبه القليل من الحلاوة، وشيء آخر، ليس طعمًا بالضبط، بل إحساسًا يدغدغ فمي ويداعبه. إنه مفاجئ، وكأن طعامي يقاومني بشكل ما. يذكرني هذا بأنني وضعت عنكبوتًا بفمي يومًا. كنت صغيرة جدًا، ورأيت عنكبوتًا يخرج من فم أمي. لم أكن أعرف أن هذا ليس طبيعيًا.

أرمق «رايتشيل» بنظرة سريعة كي أرى إن كانت تظن أن الطعم مثير أو غريب. تلاحظ نظرتي وتبتسم.

«حار؟»

«ماذا تعنين؟»

«إنه مذاق ما، يمكنك إضافته للطبيخ». تقف، وتلتقط وعاء صغيرًا زجاجيًا من على طاولة المطبخ وتعطيه لي، وتستطرد: «إنه يصنع من الفلفل المجفف المطحون. كان لي صديق إنجليزي يسافر كثيرًا، وأعطاني الكثير من الأشياء المفيدة للطبيخ. لا مكان للنباتيين في هذا البلد»، وتضحك.

أنظر إلى المسحوق الأحمر ثم أفتح الغطاء وأستنشقه بعمق، بينما تعترض

«رايتشيل» قائلة: «إيبلين! لا!».

تصدمني حدة هذا الشيء وتدمع عيناي وأقول: «اللعنة»، بينما أسعل وأمسح وجهي في طرف ملابسي. تقول هي: «يا مسكينة، كان يجب أن أحذرك. أضع القليل منه في الإناء، لأن طعمه قوي جدًا».

أشعر بالإحراج، ما يثير غضبي الشديد. أتراجع بعيدًا عن لمستها عندما تمد يدها لي ثم أندم على ما فعلت على الفور. يخبرني تعبير وجهها الحزين أنني أظهرت جزءًا كبيرًا من ذاتي الحقيقية. تعود للجلوس على مقعدها بحذر لم يكن بها منذ لحظات. يتدفق البؤس إلى رأسي. لقد أفسدت اللحظة.

تسترق النظر تجاه الكتلة القابعة بالسلة: رضيعها، رضيعها الغالي. يجب أن أتكلم بسرعة قبل أن تفر اللحظة ويأخذ الرضيع كل الاهتمام وينقلب كلاهما عليّ.

أقول: «أنا آسفة، لقد شعرت بالخوف»، تلك هي محاولتي للكلام. أستطرد: «لم أقصد...». أنظر إلى الأسفل إلى حِجري، بينما أحاول استعادة الشعور بالتواصل الذي أحسست به أمس. أقول: «شعرت بالإحراج. ليس لي أي أصدقاء، وكنت آمل...»، ثم توقفت عن الحديث، تاركة أملي معلقًا هناك بيننا.

(لقد تعلمت أن الأمل قد يكون حبل مشنقة. نضع رؤوسنا بكامل إرادتنا وبمنتهى اللامبالاة في حلقة سادية وننتظر حتى نُشنق. كم أملت أن تحدث أشياء عدة في صغري، أشياء مثيرة للشفقة، وتُركت دائمًا أتأرجح من هذا الحبل).

رجائي يتحقَّق، فتسترخي بشكل ملحوظ، وتعبير وجهها الحذر يتلاشى، وتومئ برأسها في تفهم، ما يؤكد لي أنها عادت تقترب مني ثانية.

«إيبلين، أنا آسفة، فلتأكلي بعض الزبادي، سيبرد من حرارة الفلفل»، تقولها وهي تمسك إناء الزبادي الطبيعي وتغرف بعضًا منه.

أشعر بهزة من الإثارة بداخلي بينما آخذ الملعقة التي تقدمها لي بداخل جسدي. أفكر في إطعام «الشيء» طريح الفراش بالملعقة، وكيفية اختلاف هذا عنه بشكل جذري.

أساعدها بعد الغداء في حمل لوح خشبي ضخم من مكانه، حيث كان مستندًا إلى حائط المنزل الجانبي تحت قطعة قماش مهترئة. نرفعه أعلى مسندي نشر خشب وضعتهما هي في منتصف مساحتها الفنية ونثبته مكانه باستخدام أربعة مشابك معدنية كبيرة على شكل G ومسامير تحكم وضعه هناك.

تقول: «أخيرًا! أستطيع أن أعمل... إن سُمِح لي»، وترمق السلة بنظرة، السلة التي تصدر صوتًا بفعل حركة الشيء بداخلها، والذي يستيقظ من نومه. تضغط بيدها على ثدييها برفق وعلى وجهها يبدو التعب. تقول: «إنه جائع»، وتحمله وتضعه على كتفها بينما تعيد تنظيم الوسائد على الأريكة. غطاؤه يتحرك عنه ويتزحلق على ذراعها ثم يقع على الأرض. أنتهز فرصة أن أكون جزءًا مما يحدث، فأنحني وألتقط الغطاء وألفه حول الرضيع بينما تجلس هي وتضبط وضعه على جسدها.

تمنحني ابتسامة سريعة بينما تقول: «أشكرك يا عزيزتي. وشكرًا على مساعدتك لي اليوم»، قبل أن يأخذ الرضيع كل اهتمامها ثانية.

«حسنًا، العفو»، أقولها وأترك حضنهما، لأنني أدرك الآن أنني غير مرغوبة فيّ. تفك أزرار مقدمة فستانها، كاشفة عن ثدي كبير باهت، تخطه الشرايين، وحلمة رقيقة وردية اللون. تتعامل باهتمام واحترام في هذه العملية، ما يختلف تمامًا عن الطريقة المعربدة اللامبالية التي جففت بها نفسها بعد السباحة اليوم السابق. يتغير سلوكها تمامًا عندما تشارك جسدها مع الرضيع. تبدو حالمة، بينما يلتقم الرضيع حلمتها بفمه الخالي من الأسنان. يبدو الطفل حيًا بشكل لم أره من قبل. عيناه السوداوان بهما فضول، وانشغاله الشديد بامتصاص اللبن وابتلاعه الآن

يشير إلى نوع من أنواع المعرفة لم أكن أعرف أنه يمتلكه. أما هي، فبمقارنتها بحالة الذكاء الماكر للرضيع، فتبدو منهكة وغبية.

في محاولة لتأخير ذهابي، أسألها: «ربما سأراكِ على الشاطئ ثانية...؟».

تومئ برأسها وهي تقول مُهمهِمة: «نعم».

«من الممكن أن أحمل الرضيع بينما تسبحين؟». تشير الساعة الآن إلى الثانية والنصف. حالة حفاضة «الشيء» طريح الفراش تسوء بالتأكيد، ولكن لا أريد أن أذهب قبل أن تؤكد لي أننا سوف نتقابل ثانية.

ترد: «سيكون هذا لطيفًا يا إيبلين». تبتسم هي بينما يلف الرضيع يده المنمنمة حول ثديها وكأنه يؤكد على ملكيته له. تستطرد: «ربما خلال يوم أو اثنين، حتى نستقر».

«الموعد نفسه يوم الأربعاء إذًا؟»

تومئ برأسها قائلة: «نعم»، ثم تكمل: «آسفة، أشعر بالنعاس، فالرضاعة ترهقني كثيرًا».

«مفهوم، إلى اللقاء». أتراجع نحو قلب الصالة المظلم بينما أستمر في مراقبة «رايتشيل» باهتمام بينما تميل رأسها إلى اليمين. صوت امتصاص الرضيع للبن عالٍ وسط الجو الهادئ. ما زلت أسمع صوت أنفاسها بوضوح تام، وهي تتباطأ، فأتأكد أنها على وشك النوم. ثديها يسرب اللبن. هناك رقعة من البلل تنتشر من أسفل ثديها الآخر، ولا تحاول هي إيقافه، ما يدل على أنها راحت في سبات عميق.

يجب أن أذهب.

أريد أن أبقى. أريد أن أراقبها. لم أرَ زَخَرًا في حياتي كما رأيته في «رايتشيل». أمي أرضٌ يابسة. جدتي صلبة كالحجر. جزيرتنا خراب قاحل. أريد أن أشهد كيف

ثمنح الحياة.

أتقدم ثانية، تاركة الظلام خلفي، وأقف أمامها. يراقبني الرضيع بينما أفتح بضعة أزرار إضافية من فستانها برفق شديد، وأكشف الثدي الآخر؛ أنا أقشّر فاكهتها. ثديها الآخر رائع ومليء باللبن. لا تتحرك، فأنحني وأقترب. يتكون اللبن كلآلئ على حلمتها قبل أن ينسكب في سيل صغير أسفل ثديها. حلمتها منتصبة بفعل برودة الهواء. بجواري، وعلى مستوى عيني نفسه بالضبط، يحدق فيّ الرضيع.أنظر إلى وجه «رايتشيل»، وكل خلية في جسدي متوترة، بينما هي مسترخية تمامًا. تتكون لؤلؤة جديدة من اللبن، والرغبة في تذوقها تدفع لساني خارج فمي وبين شفتيّ. أتحرك بحذر كي لا ألمس وسائد الأريكة أو ساقيها، وألعق اللؤلؤة الصغيرة من حلمتها. إنها لحظة خاطفة، لكن المتعة تنفجر في أعماقي. أتراجع بسرعة وقد صدمتني الاختلاجة التي شعرت بها وأخافتني في الوقت نفسه. أغلق أزرار فستانها وأزحف لأمان الظلام ثانية. يبدو أن الطفل يحاول تحذيرها، فيترك ثديها ويصرخ. أسرع أنا تجاه الباب.

أسمعها تردد وهي ما زالت مشوَّشة الذهن: «يا حبيبي، يا حبيبي، أنت تريد الثدي الآخر»، وأسمعها تغير وضعيته، ثم تتنهد في ارتياح بينما يستمر في الرضاعة.

بينما أذهب في صمت، أدرك أن الرضيع وأنا نتذوق الطعم الحلو نفسه في تلك اللحظة نفسها.

أغمر شعري بدلو الرماد حين أعود إلى المنزل، هذا الدلو القابع بالخارج على يمين الباب الجانبي. لم نوقد نارًا منذ شهور، ولهذا بقي في مكانه مليئًا بمياه الأمطار الغزيرة منذ شهر فبراير.

أعصر كتلة شعري وألفها أعلى رأسي؛ رائحة يديّ الرطبتين الباردتين وشعري المبتل الآن كرائحة النار. لم نهتم بغسيل الدلو قبل أن يأخذ موقعه الجديد

بجوار السلالم. لا يهمني. ستكون هذه كذبتي إن عادت جدتي ورأت الورقة التي تركتها لها. شعري مبتل لأنني كنت أمارس السباحة. لا يوجد أثر لجدتي بالمطبخ. أفحص الطاولات بحثًا عن علامة على أنها جاءت في مرحلة ما خلال الساعات القليلة الماضية، ويبدو أنها لم تأتِ. أقطع الورقة، ثم أسرع لغرفة «الشيء» طريح الفراش، وأجدها راقدة كما هي. عليّ أن أنظفها وأجلسها على الفراش سريعًا لأن جدتي قد تعود باكرًا. بمجرد أن يأتي الزائرون للمتحف، يا لها من مناظر تلك التي سيرونها في الجزيرة! أحدق في «الشيء» طريح الفراش. تقول جدتي إنها ستعود الساعة الرابعة والنصف في معظم الأيام، ولكن حتى الآن، ليس هناك الكثير لتفعله، فقط ينظفون حجرات المصنع القديم. بالتأكيد في مرحلة ما سوف يمنعون الناس من دخول المنطقة الواقعة بعد منزل «رايتشيل»، فهي ليست مكانًا مناسبًا لأعين الغرباء، تلك المنطقة التي تقع بها المقابر والأحبال.

أفحص الحفاضة، وأجدها مشبعة بالبلل كما توقعت. *لا تسقها الكثير من الماء قبل تركها المرة القادمة.* تؤكد الفكرة نفسها في عقلي دون أي جهد واعٍ مني. أذكّر نفسي بعدم وجود «مرة قادمة»، لأن استخدام الحفاضة كان أمرًا استثنائيًا، ثم أتذكّر مقابلة «رايتشيل» القادمة: الوقت نفسه يوم الأربعاء. لن يضيرها قضاء يوم آخر مرتدية الحفاضة.

11

لا تزال «رايتشيل» تملأ كياني الصباح التالي لزيارتي لمنزلها. لقد شربت رشفة بالغة الصغر من لبنها، ولكن صدمة حلاوته لا تزال تهزني، بينما أنهض لأذهب إلى «الشيء» طريح الفراش. صممت أن أستيقظ قبل جدتي صباح اليوم. لا يجب ألا أثير شكوك جدتي بأي شكل من الأشكال ما دامت لديَّ «رايتشيل» الآن. لا أدري لماذا، ولكني متأكدة أنها لن ترحب بقضائي حتى ظهيرة يوم مع شخص آخر، ولا أقول هذا لأنني جرَّبت أن أقضي وقتًا مع أناس آخرون من قبل، فالأطفال الآخرين كانوا يبعدون عني في صغري، بينما تحميهم أجساد الكبار إن اقتربت منهم دون قصد. لكن أحيانًا كانوا يقتربون مني. عندما كانوا يراوغون سلطة أمهاتهم، كانوا يلعبون على الطريق المؤدي إلى منزلنا. تتخلل صرخاتهم المتوترة عندما يقتربون الفتحات الموجودة بين الصخور التي تسد نافذة حجرة «الشيء» طريح الفراش. اخترقت الصرخات المنزل، ما تسبب في اضطراب الحجرات الهادئة الخاوية. كنت ألصق وجهي بالحجارة الجافة الباردة وأراقب ما يتراءى لي من خلال الشقوق بينها. كان مجرد مقتطف من مشهد، ولكن تسنى لي أن أشاهدهم في أمان وأراقب عاداتهم. كانوا يتحركون باستمرار ويضربون رؤوس بعضهم بعضًا في مرح ويتلاعبون بأطرافهم ويثنونها. شقَّت الضحكات اللئيمة والثرثرة المستفزة الصمت حول المنزل وبداخله. سخرت حياتهم النشيطة والفَرِحة بالخارج من سجني؛ كانوا يرقصون على الأرض فوق جثة.

كانت لعبتهم المفضلة هي لمس باب منزلنا، يندفعون واحدًا تلو الآخر نحوي، لأنني كنت أجلس القرفصاء خلف هدفهم مباشرة. كان شعورًا مثيرًا، وكأنني ألعب معهم اللعبة نفسها. أحيانًا كان أحدهم يلتقط بعض الأحجار الصغيرة المشققة من الأرض أمام منزلنا ويقذف بها المجموعة. يتفرق الأطفال وهم يصرخون ويحاولون تجنب الأحجار. إن أصاب أحدها ساق أو ذراع أحدهم، كانوا يبصقون على أنفسهم، على المنطقة نفسها التي أصابها الحجر. فهمت أن جدران منزلنا

تعتبر أيضًا ملعونة تمامًا كما يعتبرونني ملعونة بمجرد مراقبة لعبتهم.

عندما كانت تنقسم وحدة المجموعة، كانوا يقيدون أحدهم، بينما يقوم الآخرون بالضغط على فم الطفل المضغوط عليه بشظايا الحجارة الصلبة.

دائمًا ما كان أحد الصبية الأكبر سنًا والمتباهون بأنفسهم يرفع من مخاطر اللعبة، فيندفع تجاه الباب الأمامي المتهالك ويضع راحة يده على الخشب البارد، الذي صقلته الرياح المتواصلة على مدى سنوات كثيرة حتى صار ناعمًا. كنت أدخل نفسي في لعبتهم وهم يمرون أمامي؛ أردت أن ألعب أيضًا، والطريقة الوحيدة الممكنة كانت أن أمنحهم المزيد من الخوف كي ينسجوه في أساطيرهم عنًا.

كنت ألصق شفتيّ بالفجوات بين الأحجار وأغني بالأيرلندية: «لا أحيا / أنا ميتة». أرسل تلك الرسالة للفضاء خارج المنزل. كان هذا أسلوبي في تقليد حفيف الرياح التي تغني بين شقوق الحائط الخلفي للمنزل، هذا الحائط الذي لا يتوقف أزيزه وشهيقه.

كان من الصعب أن أتأكد من وصول كلماتي إلى مسامعهم. هل ألقت الذعر في نفوسهم؟ أم هل غرقت أغنيتي الضعيفة في بحر قرقرة أنفاسهم؟ في بعض الأحيان كانت رؤوسهم ترتجف عندما يمرون بالقرب مني، فينحرفون عن طريقهم بشدة وكأن شيئًا ما قد أحرقهم. معنى هذا أنني كسبت المباراة. كانت تنتهي المباراة عندما تخرج جدتي لتصرخ في وجوههم، أو إن لم تكن بالمنزل، عندما يصيبهم الملل.

كنت أسمح لهم برؤيتي بين الحين والآخر، فأخرج من المنزل من الباب الجانبي، فتنقطع أحاديثهم الخفيفة برؤياي. لم أقترب منهم، فأنا لا أريدهم أن يهربوا، وبالتأكيد كانوا سيهربون. ليس شعورًا طيبًا. كنت أنعطف يمينًا وأبدأ في تسلق التلال الواقعة خلف المنزل. كنت واثقة تمامًا أنهم يحدقون فيّ، ومجرد

الفكرة كانت تملأني بالإثارة. أضع قدميَّ في الشقوق التي تكوِّن الطريق الوحيد باتجاه الحافة الشاهقة بالناحية الخلفية للجزيرة، تلك الشقوق التي حفرتها أنا. يقال إن لا أحد يذهب هناك بعد «داراخ أورايلي» والأطفال تعيسي الحظ الذين أحضرهم معه. حدث هذا في طفولة جدتي، وقصتها على مسامعي *وأنا* طفلة، في محاولة لتحذيري من التلال الخلفية، ولكن كثيرًا ما أذهب إلى هناك. أظن أن ساكني الجزيرة لا يصدقون أطفالهم عندما يخبرونهم عن ذهابي إلى هناك. يصعب على سكان الجزيرة أن يصدقوا أنني أقترب من هذا المكان الكريه والمأساوي، مع أنني كريهة أيضًا في وجهة نظرهم. بالتأكيد يصف الأطفال درجات السلالم المحفورة بارتفاع طرف الجزيرة، ولكن لا يأتي أحدهم ليرى بنفسه. يكفيهم أننا نحيا في منزلنا القبيح على هذا الارتفاع فوقهم وكأننا نقمعهم، فلا يهتمون بأن يلقوا نظرة فاحصة على حياتنا البغيضة.

تدخل جدتي بينما أرفع قائم الفراش لوضع الجلوس، ولا تعرض المساعدة.

تقول: «لقد استيقظتِ».

أومئ برأسي قائلة: «نعم. أريد أن أقوم بمهامي بشكل صحيح يا جدتي». أربط الحبل، وأتأكد من سحب البطانية بشكل مستقيم. أتجنب النظر إلى جدتي. أخشى أن بصمة «رايتشيل»، تلك الغُرز الفولاذية المشيرة إلى هوس جديد وشديد وقد حيكت بداخلي سوف تظهر لجدتي بشكل ما. أخشى أن الأفكار التي تدور في رأسي حول جسد «رايتشيل» الناعم الضخم وثديها الذي يقطر لبنًا سوف تُظهر نفسها، وتنهش في بشرتي كالندبات بجوار شراييني. يجب أن أقوم بكل مهمة على أكمل وجه كي لا تجد جدتي سببًا لمراقبتي. أحضِّر «البوريدج» في المطبخ ثم أضعه جانبًا في صحن ليبرد. ألتقط المفتاح العالق بين أحجار الحائط وأحضِر السكين. أقطع الخبز وأضعه بالمحمصة ثم أحضِّر الرغيف الجديد وأخبزه بالفرن. تجلس جدتي إلى المنضدة وتأخذ مني طبق الخبز الذي أعطيه لها.

أسألها: «كيف كان المصنع أمس؟».

«تعنين المتحف»

«المتحف»

«كل شيء على ما يرام»

أريدها أن تذكر هي «رايتشيل»، ولكن مستبعد أن تذكرها من تلقاء نفسها.

«هل هناك الكثير من الناس؟»

تتنهد وكأن هذه المحادثة البسيطة تشكل عبئًا لا يحتمل. ربما هي على حق، فنحن لا نتحدث أبدًا، بل نتبادل المعلومات حول حالة «الشيء» طريح الفراش والمهام المنزلية التي يجب إنجازها.

تَرُد: «لا يزال ساكنو البر الرئيسي ممسكين بزمام الأمور»، تقولها وترفع عينيها إلى الأعلى باستهزاء، ثم تستطرد: «لديهم عديد من الأفكار. يريدون أن يدعوا مصوِّر فيديو كي يأتي ويسجل ذكريات ساكني الجزيرة مع الحياة بالماضي هنا، وكأن تلك الأيام قد ولت»، تقولها بسخرية. «لقد ذهبوا إلى الحانة كي يسألوا بعض كبار السن إن أرادوا أن يتحدثوا للكاميرا، وأخذوني معهم كي أترجم لهم، ما أضحكني. يتعاملون معي وكأنني مرشحة جيدة لرأب الصدع!».

لا يحب ساكنو الجزيرة جدتي مع أنها واحدة منهم. تمضغ كل منا خبزها، بينما يرتفع صوت شهيق الحائط بدلًا من الصمت. أحاول أن أدير دفة الحديث بحذر نحو «رايتشيل».

أسألها: «ماذا سيعرض في المتحف؟»، بينما أمرر إصبعي على كتلة لزجة من المربى في طبقي.

ترد: «صور للجزيرة. عملية بناء الكنيسة. صور للصيادين وهم يخرجون شباكهم من قواربهم. هراء متعلق بحياة الجزيرة. يحاولون أن يجيئوا بأشياء

أكثر كي يملؤوا المكان».

«مثل ماذا؟»

«أقمشة محاكة قبيحة قديمة، تلك التي كانت تحاك يدويًا منذ زمن. ويريدون أن يصوروا فيديو لقارب يدور حول الجزيرة. أخبرتهم أن عليهم أن يأتوا بتلفاز من البر الرئيسي كي يشغلوا عليه الفيديو، ولم يصدقوا أنه لا يوجد تلفاز واحد بالجزيرة. إنهم أغبياء للغاية. إن المذياع يلتقط الإشارة بالكاد، فما بالك بالتلفاز».

«هل سيعمل أي أحد آخر هناك؟»

«كلا، حتى يخدعوا بعض الحمقى كي يزوروا الجزيرة لقضاء إجازة».

تمرر طبقها الخاوي لي، فآخذه مع طبقي إلى الحوض. تستطرد: «لا أحد آخر هناك إطلاقًا سوى فتاة رسامة أحضروها هنا كي تعرض أعمالها في غرفة الصبغ سابقًا، والتي يسمونها الآن «إستوديو الفنان». لديهم تمويل حكومي لينفقوه، ولهذا سيأتون بفنان مختلف كل شهر ليعيش في بيت الموتى Teach na Reilige، ويرسم أو يفعل ما يريد، وسيعرضون اللوحات في المتحف. لحسن الحظ لغتها الأيرلندية سيئة جدًا، فتعرف معنى كلمة «Teach» ولكن لا تعرف معنى «Reilige» بالأيرلندية». تزفر جدتي من بين أسنانها باستخفاف.

أسألها: «كيف تبدو هذه الفتاة؟». أحافظ على صوتي هادئًا وأمسك برابطة جأشي.

تفكر جدتي للحظة، ثم ترد: «إنها قوية، فقد أنجبت طفلًا لتوها، وأنا أعني قولي «لتوها». فكرة غبية أن تأتي به إلى هنا. لن تستطيع أن تقضي أي مهام لعينة في المتحف مع وجود الطفل في الوقت نفسه».

أفكر في الشيء الساكن القابع بالسلة، والذي بدا هادئًا بشكل كبير. بكى لبعض الوقت، ولكنه صار سعيدًا عندما بدأ في امتصاص اللبن.

(الامتصاص)

(رجفة تهزني)

آخذ طبقينا إلى الحوض.

تنهض جدتي وتأخذ معطفها الصوف من شماعة الملابس بجوار الباب الجانبي، وتستعد للذهاب، ولكن أريد أن أحصل على المزيد من المعلومات منها.

- لِمَ لن تستطيع أداء عملها بالمتحف يا جدتي؟

أرى أن جدتي ملّت من الحديث معي. ترتدي معطفها وترد: «الاعتناء بالرُّضَّع عمل شاق. يستيقظن طوال الليل، ويُرضعن طوال الوقت، وأعرف أنها ترضعه بشكل كامل، ولذا سوف تكون مرهقة، وسيعطلها ذلك إن لم تكن حذرة. مجيئها هنا فكرة غبية».

أرد: «ربما كان عليها أن تأتي إلى هنا». لا أستطيع أن أمنع نفسي من الدفاع عن «رايتشيل».

تتمتم جدتي: «همممم». لقد ملّت الحوار. تسحب سلة الخضروات وتخاطبني: «لا تتكاسلي اليوم. علينا أن نطبخ تلك الثمرات الأخيرة هنا، لونها يتحول للأسود».

أناديها: «جدتي؟». فهناك شيء أنا في حاجة ماسة لمعرفته منذ تذوقي للبن على لساني. أستطرد: «هل... أمي...». عليَّ أن أجاهد كي أقول الكلمة، وجدتي تنتفض حين تسمعها. «هل أرضعتني بنفسها؟».

ترد: «لِمَ تهتمين بذلك؟»، وتبصق بغضب شديد ومفاجئ، فأتوتر تلقائيًا وأنطوي على نفسي. لا تضربني لأنها لا تحب أن تلمسني، ولكن تفاجئني شدة طاقة غضبها عندما يحدث، خاصة لأنه يحدث نادرًا جدًا.

أقول: «تملكني الفضول»، وأركز على يديّ وهما تنظفان الأطباق. لونهما أحمر

بفعل التهاب تسببه المياه شديدة البرودة التي نستخدمها في غسل كل شيء.

تقول: «لقد أرضعتك بنفسها بالفعل، مع أنها لم تستطِع أن تفرز لبنًا كافيًا. لقد أتعبتها رضاعتك، فقد كنت رضيعة نهمة، ودائمًا على صدرها». تكمل بينما تفتح الباب الجانبي: «اطبخي تلك الخضروات»، تأمرني دون أن تنظر إليّ وتغلق الباب خلفها.

أذهب لأُحضِر «البوريدج» الذي تركته على الطاولة، فأجد أنه برد تمامًا في أثناء حوارنا.

خطرت ببالي جملة *لِمَ أهتم؟* بينما ألقيت بالـ«بوريدج» في إناء نظيف كي أسخنه قليلًا. تكتّل «البورديج» في شكل الصحن حتى قلبته لبعض الوقت. لا آكل «البوريدج». قضاء سنوات في إطعام تلك الكتل الرمادية بالملعقة لـ«الشيء» طريح الفراش أدت إلى أن معدتي تكره مجرد رؤيته. تتجنبه جدتي أيضًا، وأظن أن لديها الأسباب نفسها.

أعيده إلى الصحن عندما يصبح دافئًا، وآخذه إلى الحجرة المجاورة. أطعمها بالملعقة. لا أتوقف حتى عندما تبطئ قضماتها، ما يعني أنها قد شبعت. أدرك ما أفعله ولا أدركه في الوقت نفسه. أفكر في «رايتشيل» وهي تحمل «شيماس» وتربت عليه. أحدق في البقعة على الحائط خلف «الشيء» طريح الفراش، وأفكر في «رايتشيل» وهي ترضعه، وكيف سيطر عليها بينما امتص وابتلع لبنها وكيانها كله.

تعيدني شهقة ضعيفة إلى جوار الفراش و«الشيء» الذي أطعمه. إن «الشيء» لا يستطيع أن يبلع كل هذا الطعام، فأنتظر بلا مبالاة حتى تبتلعه. ولكن عندما تبتلعه، يخرج من حلقها إلى فمها في دفقة قوية.

أقف بسرعة كي أتجنب أن يلمسني الـ«بوريدج» المهضوم، والذي صار مغليًا بعد أن قضى وقتًا قصيرًا بداخلها. يغطي القيء ذقنها ويقطر على صدر فستانها

في كتل متخثرة. أغضب بشدة وأضرب الفراش بعنف بجوار فخذيها. أعرف أنه خطئي، ما يغضبني أكثر. أقتحم المطبخ وألقي الصحن والملعقة بالحوض محدثة جلبة، ثم أعود لأن عليّ أن أخلع عنها فستانها. أدفع جذعها إلى الأمام، ما يؤدي إلى انسياب المزيد من «البوريدج» من فمها. تصدر صريرًا وتغمغم، بينما فمها وأنفها مغموسان في الفوضى. تستحق هذا.

أتجاهل الأصوات وأفتح أزرار الفستان من الخلف، ثم أضم طرفي القماش إلى بعضهما، وأتأكد أن القيء كله على الفستان. أدفعها إلى الخلف عودة لوضع الجلوس وأمسح وجهها بالفستان، ثم آخذه للمطبخ وأضعه بسلة المهملات. أعرف أنه إهدار للفستان، ولكن لن أنظف قيئها وأشطفه حتى يصير نظيفًا.

آخذ فستانًا نظيفًا من الأدراج الموجودة في زاوية غرفة «الشيء». عينا «الشيء» طريح الفراش مضطربتان ودامعتان. تلهث قليلًا، ويصبح انقباض وانبساط صدرها أوضح من المعتاد. أقترب منها والفستان في يدي. اعتدت جسدها تمامًا، لدرجة أنني شبه لا ألاحظه أغلب الوقت. ولكن الآن، وربما لأنني شهدت خصوبة «رايتشيل»، أجد نفسي وقد صدمتني أطلال جسد أمي اليابس. لم تقضِ حياتها كلها هكذا. هل نامت أسفل رضيعتها، أنا، وقد أوهنها الحب كما فعلت «رايتشيل» أمس؟ أحاول أن أجد دليلًا على أن هذا الجسد قد غذّاني. هدأ لهاث صدرها. أعيد ترتيب الملاءة كي أخبئ الدليل القاطع على وجود الحفاضة، فارتداء الأم للحفاضة يدمّر الصورة التي أحاول أن أتخيلها.

أفحص ثديي «الشيء» بعين جديدة، صغيران ويتدليان قليلًا على قمة قفصها الصدري. ثدياها ليسا أكثر من مجرد تجاعيد من البشرة ذات حلمتين صغيرتين كالخرز، أما ثديا «رايتشيل» فهما ثقيلان ومشبعان.

أنحني نحو «الشيء» طريح الفراش وأمسك كل ثدي في يد، وألمس كل ثدي منهك وحلمة، أفاجأ أن حلمتيها تستجيبان للمساتي، أما باقي جسدها فثابت. حلمتاها الشاحبتان تنتصبان تحت أصابعي. أنظر إلى وجهها كي أرى إن كان

هناك تغير في تعابيره، يصدمني أن عينيها اللتين لا تتوقفان عن الحركة ثابتتان وهادئتان، ومتعلقتان بالحائط خلفي. لا أزيل يدي عنها، بل أستمر في مراقبتها.

أخاطبها بهدوء: «عليكِ أن تفعلي شيئًا إن أردتِ أن أتوقف»، ولكن تظل عيناها ثابتتين. أدلك ثديها كما فَعَلَت «رايتشيل» كي تخرج اللبن. هل هناك أي شيء باقٍ في جسد «الشيء» طريح الفراش؟ أقترب ولا تزال هي تراقبني. أقرص حلمتها اليمنى وألفها بين إصبعي الإبهام والسبّابة برفق. لا يخرج شيء بعد. أخفض فمي لثمرة التوت المنتصبة الصغيرة وأبدأ في الامتصاص.

12

لا أفهم الإحساس الذي تملكني بعد محاولتي أن أرضع من «الشيء» طريح الفراش؛ إحساسًا غير مريح بأنني سمحت لشيء أن يدخلني ولن أستطيع أن أتطهر منه بسهولة. أقف أمام الحوض وأقشر الخضروات، والمياه بالإناء على وشك الغليان، أستمع إلى الحائط. يصدر فحيح ساخط عليّ. يقول لي إنني غبية لأنني توقعت أي شيء من «الشيء» طريح الفراش. مضت ساعتان منذ حررتها من سجن فمي، منذ أن تركت ثديها الرث يترجرج. مرَّت ساعتان، ولكن إن حاولت، فسأشعر بالحلمة الممنوعة تسبرني، تتعدَّى على جسدي. ألعق لساني عندما أتذكر الحلمة، أتذكر شفتيّ وهما منعقدتان فوق أسناني، وتعملان بالمنطقة المتعرجة حولهما في محاولة للحصول على شيء من جيفة الأم تلك. أشعر بالغضب تجاهها مع أنني أنا من اقتربت منها. إن لم تكن ساكنة وعقيمة هكذا، لما كنت أنا على حالي.

إن لم تكن خاوية لكانت بي وفرة. كنت سأصبح كرضيع «رايتشيل»، لوني وردي بفعل غليان الحب. ولكن أنا مجرد صدى صوت.

ينتشر بخار الماء المغلي الآن بالسقف فوقي. أزيله عن النار وأضع بعضه في كوب، بينما أفكر في خياراتي. سوف تتألم، ولكن عليّ أن أتخلص منها.

13

يحرقني فمي بفعل الماء شديد السخونة تلك الليلة وأنا في فراشي، ولكن على الأقل قتل الألم الشعور المستمر بوجود الحلمة.

لاحظت جدتي أنني لم آكل عشائي وظلت تنظر لبعض الوقت للبثور حول فمي، ولكن لم تعلّق. كان ردها الوحيد عندما سألتها عن يومها هو تنهيدة عميقة، ولم تسألني عن يومي. فقط تجولت بالمنزل لتتأكد من إنجازي لمهامي. تم تحضير العشاء، تم تنظيف المطبخ من عاصفة الحبيبات الترابية التي ينتجها الحائط يوميًا، تمت صنفرة خدوش «الشيء» طريح الفراش الجديدة. كتبت سرًا سطرًا جديدًا خَدَشته في الأرض بزاوية يمنى باتجاه نافذة غرفة «الشيء». رسمت في دفتري شكلًا مبسطًا للنافذة ووضعت علامة دقيقة على مكان السطر، ثم صنفرته حتى اختفى. فحصت جدتي «الشيء» طريح الفراش بعناية، ترفع ثنيات جسدها وتفتح ساقيها بحثًا عن دليل على إهمالي لها، ولكن تظل صامتة، ما يعني أنني قمت بعملي على أكمل وجه.

أفكر في مدى طول يومي الذي مضى وأنا مستلقية في فراشي تلك الليلة. أفكر في كل ساعة، وكيف انسابت كالدم واحدة تلو الأخرى بهذه الوتيرة الجنونية. لا أشعر بمرور الوقت أبدًا، فماذا تغير؟ الإجابة بالتأكيد هي «رايتشيل». نادرًا ما حدث في أيامي شيء يتجاوز حوائط هذا المنزل. طوال حياتي كانت أيامي عبارة عن فرض يليه فرض مرتبون في صفوفٍ من الملل. نادرًا جدًا ما يختلف اليوم عن سابقه، حتى أنني نسيت أن هذا ممكن. نسيت أن أي راحة من الساعات الماسخة سوف تُسرِع من وتيرة الزمن. كان من الصعب أن أعود إلى حياتي البائسة وقد عادت الساعات تزحف ثانية؛ يتقدم كل يوم ببطء شديد، لدرجة أنني شعرت وكأن شجيرات الجزيرة المتفرقة تكبر بوتيرة أسرع.

أراني دخول عالم «رايتشيل» - ولو لفترة قصيرة - تناقضًا واضحًا بين حيوات

الناس الآخرين والحيوات المجهضة بهذا المنزل، ما يذكرني أن العيش بداخل الفكين الحجريين لتلك النوافذ هو سجني المؤبد، لأنها

سوف تحيا للأبد.

تصدر صريرًا في الغرفة المجاورة.

لا نراها تتحرك أبدًا.

كنت أحاول أن أبقى مستيقظة في صغري، حين كان الأمر أكثر أهمية بالنسبة إليّ، ولكن لم يحدث شيء إطلاقًا في تلك الليالي. هل كانت تعلم أننا سنراها؟ لم لا تريد أن يراها أحد؟ كثيرًا ما كنت أستيقظ فقط عندما تعيدها جدتي، وحدثت مرات عِدة أن يبتعد «الشيء» طريح الفراش، فقد يخرج من الباب الجانبي إن نسينا أن نقفل باب المطبخ.

كنت أسأل نفسي أحيانًا إن كانت جدتي هي من تحركها، فـ«الشيء» طريح الفراش لا يبدو قادرًا على الحركة. وحتى عندما نجدها، تكون مكوَّمة، مُلقاة كشيء مكروه، بدا هذا من فعل جدتي. ولكن تظهر بساقي ويدي «الشيء» أدلة على العنف الذي تمارسه على نفسها عندما تجر نفسها على الأرض. أحيانًا أسمع جدتي تصرخ فيها.

ذات ليلة، سمعت جدتي تهمس لها بغضب شديد في الممر: «ألا يكفيكِ كل ما تفعلينه أيتها العاهرة؟»، بينما جزَّت بشدة على أسنانها وكبست وجهها بوجه «الشيء» طريح الفراش. أقنعني استياء جدتي منها أنها ليست من تحركها، بل لا بد وأن «الشيء» يحرك نفسه بنفسه.

الآن أسمع صوت غرغرة وغلغلة «الشيء» طريح الفراش بالغرفة المجاورة. أظن أنني أشم رائحتها حتى من هنا. إنها مقززة. المزيد من البراز والبول غدًا وكل يوم تالٍ. كيف وضعت فمي على الشيء؟ هل كنت يائسة إلى هذا الحد؟ ينكمش وجهي باستهزاء، فتغلي البثور بالألم. تنفجر أحدها وتبلل ذقني، فأجففها

بملاءة الفراش.

أما «شيماس»، ففي بقعة من الجزيرة الكئيبة، يحصل هو على كل ما يبتغي. أتخيل «رايتشيل» وهي مستلقية، بينما يزحف على جسدها الرضيع. أتخيل نفسي وأنا أصفعه فيسقط عن جسدها، يرتطم جسده اللين بالأرض الحجرية. يرتطم *رأسه* بالأرض الحجرية...

(قرقعة رأسه الطري)

فأشعر بالتحسن.

ثم أقف وأترك الفراش. يمكنني أن أذهب لإلقاء نظرة على «رايتشيل» إن أردت، أو على الأقل أحاول، فقد تكون الستائر مغلقة، ولكن لي أن أحاول. أدرك أن هذه فرصتي، فـ«الشيء» طريح الفراش يحتاجني في أثناء ساعات النهار، ولكن يمكنني أن أقضي الليل بالقرب من «رايتشيل». ربما تكون مستيقظة أيضًا، فقد قالت جدتي إن الليالي طويلة ومتعبة مع الرُّضَّع. أرتدي ملابسي وأحمل حذاء العدو في يدي وأتحرك بهدوء بالمنزل حتى أخرج من الباب الجانبي. أظل مرتدية جوربي فقط وأنا بالخارج، فالأرض الحجرية تتحرك وتتفتت بشكل أقل إن تحركت ببطء وطويت أصابعي حول الحجارة. لبعض القطع أطراف حادة، ولكن أشتت نفسي عن الألم بسهولة نوعًا ما. «رايتشيل»، «رايتشيل»، «رايتشيل». تنقذني ترنيمتي من الغرق بالألم، حتى أصل إلى الجدار القريب، حيث أستطيع أن أرتدي حذائي. لا أظن أن جدتي ستسمعني من هنا.

البحر أغمق من تضاريس الجزيرة نهارًا، والعكس صحيح ليلًا. هذا ما أراه الآن بينما تعتاد عيناي الظلام: البحر رمادي، والأمواج تستمسك بالضوء القليل المنبعث من النجوم. أما الجزيرة فهي سوداء وتبدو كالحفرة. أتخيل قوى خفية تكبح جماح المياه، وتمنعها من الانسكاب بالعدم. الجزيرة تسحب كل شيء، وربما تجفف البحر العملاق نفسه يومًا ما.

أشق طريقي أسفل هذه الحفرة. تظهر المنازل حولي في الظلام بين الفينة والأخرى، ثم تختفي ثانية. أشعر بانعدام التوازن في الليل، حتى أنني لا أشعر أن لي جسدًا. أشعر وكأن أطرافي وساقاي ينتهيان بغتة، بينما يأخذ الظلام يديَّ وقدميَّ.

أخيرًا ينزلق المصنع خلفي على اليسار، وأصل إلى كوخ «رايتشيل». تخُط النافذتان الأماميتان خطوطًا رفيعة من الضوء حيث لا تستطيع الستائر تغطيتهما بشكل كامل. يتفتَّح بداخلي شيء مظلم ورائع، فقد تركت الأنوار مفتوحة. سوف أستطيع أن أراها. قبل أن أقترب كثيرًا، أتقدم بضع خطوات أمام المنزل كي أستطيع أن أقترب من الناحية اليمنى، ثم أقترب حتى يصبح أنفي تقريبًا أمام الجدار الحجري المرقط باللونين الرمادي والأبيض بشكل مباشر. أفكر فيها، وفيم تفعل على الناحية الأخرى من هذا الجدار. أظن أن بيننا قدمًا واحدة، وأكاد أشعر بها، أشعر بحيويتها. هل تشعر هي بي أيضًا؟

(دنَسي)

هل فكَّرت بي؟ ربما لا، أعرف هذا. أيامها غنية، مليئة بالخلق والتجديد. جسدها يجلب الأشياء للوجود: رضيعها ولبنها وفنَّها. إنها كالبحر دائم التقلب والحركة. أما أنا، فمقارنة بها، أنا خاوية، فارغة كالجزيرة، تلك الحفرة بالمحيط.

يصلني بكاء الرضيع من خلال الزجاج على يساري، ولأنني أعرف أنها ستكون منتبهة تمامًا لهذا الشيء - له - أشعر أنني يمكنني أن أميل يسارًا وأنظر من خلال المسافة الصغيرة بين الستارة والنافذة. أرى «رايتشيل» على الفراش وهي تهدئ وتربت على كتلة اللحم على كتفها. ألاحظ أن حفاضته منمنمة، فأنا لم أرَ سوى حفاضة «الشيء» طريح الفراش. يستمر البكاء والذي لا يبدو صوتًا بشريًا، بل هو أقرب للصخور وهي تحتك ببعضها. وجه «رايتشيل» بلون الرماد، وتبدو بشرتها دهنية نوعًا ما. شعرها متكتل ومتسخ. لم يمر سوى يومين منذ رأيتها وتبدو مختلفة وشاحبة وضعيفة. تستنزفها الجزيرة، ومعها هذا الرضيع الطفيلي الذي

يلاحقها بلا هوادة. أريد أن أساعدها حقًا. أريد أن أنقذها من هذه اللحظة. تدوي قرقعة رأسه الطري في رأسي ثانية.

(أدوس وأدوس حتى يغرغر ويغلغل الشيء)

يا له من شعور مُرضٍ!

تثني «رايتشيل» ركبتيها وهي مستلقية على الفراش وتضع الرضيع على ساقيها المرفوعتين. وجهه الوردي منقبض وجسده كله منخرط في إخراج تلك الضوضاء البشعة والعنيفة.

ترجوه قائلة: «أرجوك أيها الصغير»، ثم تستطرد بالأيرلندية: «يا صغيري الحبيب، أرجوك».

تسند رأسها على الحائط خلفها، وكأن صرخة هذا الشيء المربع الصغير تجبرها على الرجوع إلى الوراء.

تمر بضع دقائق ولا تفعل شيئًا كي تهدئ الرضيع. تتملكني السعادة، هل انقلبت ضده؟ ولكنها تحتضنه ثانية بين ذراعيها وترفع التي شيرت الأبيض المهترئ الذي ترتديه، وتحاول أن تجعله يلتقم ثديها الأيمن ولكنه يعود برأسه إلى الوراء، ووجهه المنمنم الغاضب منقبض كقبضة اليد. ألاحظ أن رأسه لا يكاد يكبر عن يدي أنا.

(أدوس، غرغرة)

تيأس من إرضاعه، فتجلس على طرف الفراش، وتنيّم الرضيع في منتصفه، واضعة الوسادتين اللتين كانتا خلف رأسها حول جسده. تستدير بعيدًا عن الصراخ وتقف ببطء. تبدو منهكة تمامًا من الأمر كله، حتى أنني لا أخشى أن تراني هنا. إنها واقفة لكن تبدو واعية بالكاد. تقف للحظة قبل أن تقع على الأرض. تسند ظهرها للفراش وتضم ركبتيها إلى صدرها. تحتضن رأسها براحتي يديها

وتحدق في الأرض أمام ساقيها الطويلتين البيضاوين. تضغط بشدة على رأسها حتى تبرز عظام يديها. لا تبكي، ولكن تظل جالسة على الأرض لمدة طويلة، والرضيع لا يتوقف عن الصراخ أبدًا.

تقف أخيرًا، وتتأكد أن الشيء الغاضب لم يتحرك من مكانه، بل لا يزال آمنًا وسط الوسادتين. يدهشني أن شيئًا قليل الحيلة وغير قادر على الحركة كهذا يستطيع أن يشن هجومًا أليمًا هكذا. إن الشيء لا يستطيع حتى أن يرفع رأسه ذا حجم راحة اليد.

ولكن لا يجب أن أفاجأ، فـ«الشيء» طريح الفراش يعذبني أيضًا، لكن بطرق مختلفة، فهو يعاقبنا بشكل سلبي تمامًا. يعذبنا بخموله، ويمسك بنا في قبضة الالتزامات تجاهه. نحاول أن نبطئ من عملية تعفنه بينما نحن محبوسون في سجن العناية به. نحاول فقط أن نحتوي الفوضى التي يتسبب فيها.

تخرج «رايتشيل» من باب حجرة النوم وتذهب إلى المطبخ، فتبتعد عن ناظري، ولكن أرى أنها أخذت شيئًا من الثلاجة بناء على الضوء الذي يمتد لفترة وجيزة على الأرض. هل تأكل؟ لا تبدو كمن تترك رضيعها وهو يصرخ بينما تأكل هي. تعود حاملة ما أتعرف عليه بعد لحظات؛ أوراقًا من نبات الكرنب. إنها مليئة بما يشبه الشرايين ومطاطية، ولا أتصور لماذا تريد أن تأكلها. ولكنها لا تأكلها، بل تضعها بداخل حمالة صدرها، بالناحية اليسرى، حتى تحتضن الورقة ثديها. تستلقي على الفراش وتضع ذراعها أسفل الرضيع وتضعه على يمينها، فلا أستطيع أن أراه. ثم تنام على جانبها الأيمن، وذراعها اليمنى ممتدة على المرتبة فوق رأس الرضيع. الآن تولي لي ظهرها بشكل كامل، ويفور الشعور بالظلم بداخلي. يهدأ الرضيع أخيرًا. أتراجع وأتركهما متعانقين هكذا.

14

تمر الأسابيع، ومع أنني قابلت «رايتشيل» مرة واحدة منذ لقائنا الأول، إلا أنني قضيت معها ساعات أكثر بكثير. أعبر الجزيرة حتى أصل إليها ليلًا. هي دومًا على حالها كل ليلة؛ مرهقة ومحبطة، تضربها نوبات بكاء الرضيع ويغلبها التعب. أحيانًا أجدها ملقاة على الفراش، وقد غلبها النوم حتى في أثناء صراخ الطفل التعس بين ذراعيها المرتخيتين. تأتيني الشجاعة عندما تنام. الليلة أتسلل من الباب الجانبي المؤدي إلى المساحة التي تتكدس فيها أعمالها الفنية. أقف وسط الفوضى والمقتنيات وأمتص كل شيء حولي. لقد لمست أصابع «رايتشيل» كل بوصة من كل صفحة ولوحة قماشية وكل شيء هنا. تغطي صرخات الرضيع على صوت نبش يديَّ في أشيائها. ولكن أتوقف عما أفعل كل بضع دقائق كي أنصت للصراخ. صرت ملمة بإيقاعات الصراخ بفعل وقوفي بجوار النافذة لساعات. بكاء مستمر ومزعج يعني أن «رايتشيل» نائمة والرضيع بدأ يتعب، ربما لأنه يستشعر عبثية الاستمرار في الصراخ بأعلى صوت. تذهلني قدرة «رايتشيل» على النوم في أثناء هذا الصراخ، ولكن ربما ما أراه منها وهي مستيقظة وتنتقل ببطء من المطبخ لغرفة النوم والمرحاض يدل على أن النوم يتقدم ويطيح بها دون جهد يذكر. أشعر أنه نوم خانق، من المستحيل محاربته. إذا وصلت الصرخات الطالبة للاهتمام إلى حد مسبب لصداع يشق الرأس، كما يحدث في هذه اللحظة تحديدًا، فهذا مؤشر على أن «رايتشيل» قد استيقظت مرة أخرى. الرضيع البغيض يساعدني دون قصد، ويصدر تحذيرًا لي. أخرج في الوقت المناسب. أتخذ موقعي في واجهة المنزل، وأحدق في نافذة غرفة النوم لأراقب تضاريس الحب الغريبة الموجودة بالداخل.

تلف ذراعيها حول الرضيع وتتأرجح لتهدئته. حتى لو لم يهدأ هذا الصراخ، فهي لا تزال تبتسم له على الرغم من الإرهاق. تهمس له بحبها، وعندما يلتصق بها، تستلقي على ظهرها في ارتياح منتشٍ. تحمله من مكان إلى آخر. تتركه من

حين لآخر، لكنها تتأكد دائمًا أنه آمن. تتجول، لكنها تدور في فلكه دائمًا. هو يبكي وهي تبكي وهو يبكي وهي تبكي. كلاهما في حالة شكر، وقد غلبهما حبهما الغبي.

يكون الرضيع أكثر هدوءًا عندما يحيط به جسد «رايتشيل» المنتفخ. يمتلئان هما الاثنان، ويسمنان بعضهما بعضًا. يلتقي بطناهما ويقبلان بعضهما عندما يستلقيان على جانبهما في مواجهة بعضهما بعضًا حتى يرضع هو. في كثير من الأحيان، في أثناء تشابكهما، من الصعب تحديد أين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر. أؤلف القصص في رأسي حيث أنا من تزحف بجانبها. أنا أرضع منها والرضيع بلا أثر.

(دهس، غرغرة)

أرى نفسي أضغط على جسدها وأعتصره، وهي تتمدد حتى أتمكن من غزوها بشكل أعمق. أجذبها لي، وأمتصها وأضغط على جسدها وآخذ كل ما تمنح. بينما أحلم بهذا، أشاهدهما، وأمرر يدي على ذراعي وبطني محاولة جاهدة أن أتخيل الإحساس بجسد آخر يحتضنني: الهدهدة والربت على جسدي، التمايل والحب.

أرتجف بينما أشاهدهما، ويتحرك شيء لذيذ لا أستطيع تسميته في أعماقي. أتوتَّر. أرحل، لأن هذه الأحاسيس كثيرة عليّ، ولأن فجرًا كئيبًا آخر يطل من الشرق. سماء الصباح تنزف في جميع أنحاء الجزيرة بينما أسرع بالعودة إلى المنزل. ثم يستوقفني منظر رهيب في أعلى المرتفع أمام منزلنا مباشرة.

إنه شخص منحنٍ إلى الخلف أمام الجدار، وقد مال رأسه في مواجهتي. عيناه البيضاوان واسعتان وتدوران في محجريهما، ويصدر صريرًا رهيبًا من الفتحة العميقة التي في فمه. ذراعاه مرفوعتان بصلابة على الجدار وموازيتان له، وتستقر يداه براحتيه الملطختين بالدماء على الحجارة العلوية. لا أسرع نحوه، فأنا متضايقة لأنني سأضطر إلى سحب هذا «الشيء» إلى الداخل. توترني

أيضًا احتمالية سماع جدتي صوته وهو يجُر نفسه إلى هنا، وإن نهضت لتطلب مساعدتي وأدركت أنني لم أكن هناك. يفصلني عن «الشيء» قيد أنملة. ألقي نظرة نحو نافذة جدتي، ولكن لا توجد طريقة لمعرفة ما إذا كانت تنظر إليّ من تلك النافذة أم لا. ربما (آمل) أن تكون نائمة دون أن تكون لديها أي فكرة عن أنني أنا و«الشيء» طريح الفراش كنا نتحرك. أتسلق الجدار بينما يستمر «الشيء» طريح الفراش في الصرير. أنا الآن على جانب الجدار حيث احتكت ساقاها بالأرض. يبدو الدم أسود في ضوء الصباح الباكر. المزيد من الفوضى والمزيد من التنظيف. أتكئ إلى الأمام لأمسكها من كتفيها وأرفعها إلى الأعلى، لكن الأمر صعب، فالوضع يؤلم ظهري. أن آخذ حذري معها يعني أن أتعب أنا. أنا من تتألم. إنها متهالكة جدًا لكن جسدها صلب جدًا في الوقت نفسه. أحتاج إلى أن أستند إلى الجدار وألوي جسدي. أحدق فيها وأتخيل الإحساس الطيب الذي سأشعر به إن أذيتها. رقبة «الشيء» نحيلة.

أتحقق من أن جسدي يحجب ما أفعله عن نافذة جدتي، ثم أمسك برقبتها النحيلة وأعلقها مثل المقبض. يتوقف الصرير لمدة دقيقة واحدة عندما أقوم بلف أصابعي حول رقبتها، وأضغط بإبهامي بقوة على حلق «الشيء». أعطي شقوق قصبة «الشيء» الهوائية قليلًا من الضغطِ الاستكشافي. يا له من شعور مُرضٍ!

(أدوس، غرغرة، صمت)

أستخدم يدي الأخرى لدفع الحائط ورفع «الشيء» إلى وضعية الجلوس، ثم أتركها لتسقط على الأرض بينما أذهب للبحث عن قطعة القماش التي نستخدمها حاليًا. نستخدم قماش الخيش المُقطرن لإعادة «الشيء» للداخل عندما يخرج. أجد القماش الأزرق محشوًا في دلو فولاذي بناحية جدتي من المنزل. نستخدم عددًا قليلًا من هذه الأقمشة في السنة؛ تُستخدم بضع مرات قبل أن تبدأ في التمزق تحتها بينما نسحبها فوق الصخور. لا يهمني الآن أن تعرف جدتي أنني لم أكن في فراشي. سأقول إنني استيقظت مبكرًا وخرجت لأتجول في الجزيرة.

هي و«الشيء» طريح الفراش يملكان أيامي، لكن يمكنني أن أفعل ما يحلو لي في الليل. ألقي جسده المحطم على قماش الخيش المُقطرن وأسحبه مسافة عشرين قدمًا أو نحو ذلك إلى المنزل. ألاحظ أن «الشيء» طريح الفراش قد ابتعد اليوم. إلى أين يظن أنه ذاهب؟

أسحبه إلى غرفته، وأضع الأحزمة على قطعة من البلاستيك وأدفع «الشيء» حتى يتموضع فوقه وأتمكن من ربط الأحزمة حوله. أنزل الخطافات وأربط الأشرطة وأرفعها على الفراش. لقد تعبت من هذا العمل، ولكن لا يزال يتعين عليَّ تنظيف ساقيها ويديها. تحوصلت حبات الدم السوداء في طبقات جروحها وسحجاتها. ترتفع الشمس في الأفق بينما أرتدي ملابسي وأضمد جروحها الجديدة. تلقي جدتي نظرة وهي في طريقها إلى المرحاض، فأشير نحو قماش الخيش المُقطرن الذي لا يزال على الأرض.

«لقد كانت على الطريق تقريبًا».

تهز جدتي رأسها، وتوبخ «الشيء» طريح الفراش قائلة: «فقط توقفي عن ذلك»، وكأن هذا التوبيخ سوف يثنيها عما تفعل. لماذا تعتقد جدتي أن «الشيء» طريح الفراش *يستطيع* أن يتوقف؟ أو يفعل أي شيء على الإطلاق حتى يتغير؟

نتناول أنا وجدتي الإفطار ثم تغادر المنزل. أطعم وجبة الإفطار لـ«الشيء» طريح الفراش، وأستلقي على سريري حتى يحين وقت استخدامه للمرحاض.

أشعر بإرهاق حارق كالنار. أريد أن أنام، حتى لو كان أدى ذلك إلى أن يتبرز «الشيء» طريح الفراش في الحفاض. أنا متعبة جدًا.

يصلني صريرها المستمر عبر الحائط فأغضب. الصوت وتوتري المتزايد يعيقان نومي. يعيدني صريرها إلى الوعي ثانية كل مرة أكاد أسقط فيها في الظلام المريح. أفكر في يدي تلتف حول رقبتها وكيف أوقفها تضييق أصابعي، وأغلق الصرير الجهنمي حتى أطلق سراحها. أترك سريري وأذهب إلى الغرفة

المجاورة. لا تزال الأحزمة مربوطة حولها. لقد تركتها لأنني سأذهب بـ«الشيء» إلى المرحاض قريبًا. الآن أقوم بفك الحزام العلوي من حول صدره وأرفعه حول رقبته. أدخل الحزام من خلال الإبزيم وأسحبه بإحكام. أجرب درجات مختلفة من الضغط لبضع دقائق. يجب أن يكون ضيقًا بدرجة كافية لإنهاء الصرير، ولكن ليس ضيقًا جدًا بحيث لا يستطيع «الشيء» التنفس. أسحب قليلًا فيتوقف الصرير وتغلق حلقها مثل الصنبور. أتجاهل الشهقات المتذمرة الصادرة منها وأنا أضغط على طرف الإبزيم في الجلد لعمل ثقب جديد في هذا المكان بالضبط.

عليّ أن أستمر في ضغط طرف الإبزيم لبضع دقائق. يتدحرج رأسها ذهابًا وإيابًا بعنف بينما أصنع الثقب الجديد. كان يجب أن أستخدم سكينًا منذ البداية، لكن الأمر على وشك الانتهاء الآن. وأخيرًا أنتهي، وقد اختنق الصرير في صمت هنيء. أضع يدي أمام أنفها وفمها فأتأكد أنها تستطيع التنفس، بالكاد. أنا في غاية السعادة. أنظر إليها وأشعر بسعادة غامرة عندما أراها مقيدة بهذا الشكل، وجسدها متراخٍ ورأسها منحرف إلى اليمين، مشنوقة في الفراش. أعود إلى فراشي بالحجرة المجاورة، وأبتسم. إنها ابتسامة لا يجب أن أفكر فيها. إنها ليست واحدة من مجموعتي من الابتسامات التي أتدرب عليها، ولكنها تلك التي تتبرعم من تلقاء نفسها.

15

بعد ساعتين، يزيل صوت إغلاق الباب بقوة ضباب النوم فجأة. لا بد أن جدتي قد عادت. أترك فراشي وأضبط شعري وأربت على وجهي لأحاول أن أبدو مستيقظة. إنها تتحرك بسرعة في المطبخ بينما أعبر الردهة إلى غرفة «الشيء» طريح الفراش. يجب أن أزيل الحزام عنها، والحفاضة.

يبدو «الشيء» طريح الفراش أسوأ من أي وقت مضى. لسبب ما، أصبح ذراعاه الآن مثنيتين تمامًا لدرجة أن الكوعين تصلبا، وجذوع الأصابع متباعدة. تشير سبابتها ذات العظمة البارزة اللامعة نحو النافذة المقابلة.

أدفع ذراعيّ «الشيء» إلى الأسفل وأخلع الحزام. لا شك أن جدتي ستأتي إلى هنا للاطمئنان عليّ في غضون دقائق. أفحص رقبة «الشيء»: لقد احمرت بفعل الحزام لكن الجلد لم يتشقق. يجب أن أقرر بسرعة. أستطيع أن أخرج شعر «الشيء» من الأدراج بجانب الباب وأضعه لتغطية المنطقة. ستعتقد جدتي أن الأمر غريب لكنها لن ترى العلامات. أو أستطيع أن أقول إن العلامات بفعل «الشيء» طريح الفراش نفسه.

وقع خطوات خافت خلفي يجعلني أدرك أن جدتي واقفة الآن على الباب.

تسألني بالأيرلندية: «هل كان صباحك طيبًا؟» تسأل لأنه واجب، ولا تهتم بالإجابة.

«لقد عادت إلى عادتها مرة أخرى». أتنحى جانبًا لأشير إلى احمرار رقبتها.

تهز رأسها، وفمها الدنيء ثابت، يرسم خطًا عميقًا من الأذن إلى الأذن عبر الجزء السفلي من وجهها.

تخاطب «الشيء» طريح الفراش قائلة: «لقد سئمنا منك»، ثم تلتفت إليّ قائلة: «لن أبقى هنا لفترة طويلة، فقط أحتاج إلى إحضار بعض الصور القديمة إلى

مسؤولي المتحف. لقد أظهروا اهتمامًا بالغًا عندما علموا أنني أعيش في المنزل الموجود هنا، وأرادوا أن يأتوا ويلتقطوا الصور. تخلّصت منهم بأن أخبرتهم أن لديّ الكثير من الصور بالفعل». تغادر الغرفة وتتجه إلى غرفة المعيشة حيث أستطيع سماع صوت فتح الأدراج والنبش في الأوراق. أتبعها وأقف عند الباب. أراها تقلب في مجموعة، وتخرج الصور المرفوضة وتعيدها مرة أخرى إلى الدرج.

أسألها: «هل جاءت الفنانة للمتحف هذا الصباح؟».

جدتي لا تنظر إليّ، وتجيب: «تأتي أحيانًا، ولكن تبدو مدمَّرة. طلب رجال المتحف بعض اللوحات ليعلقوها، فبدأت في البكاء. لا أمل في أن تفعل أي شيء مفيد مع وجود رضيع صغير. فكرة غبية».

تنتصب جدتي بعد أن شعرت بالرضا عما اختارته وتمر بجانبي، قائلة: «أظنك تعلمين أنني أستطيع أن أشم رائحة هذا الحفاض المليء بالبول»، هكذا تتهمني دون أن تنظر إليّ. «لا يمكنك أن تتركيها مرتدية حفاض قذر لأن هذا فقط يتسبب في المزيد من المتاعب لنا». يبتلعها باب المطبخ في نهاية الردهة، ثم يأتيني صوت غلق الباب الجانبي بعنف، فأدرك أنها رحلت وأستريح. على الأقل الحفاض ليس مليئًا بالبراز. تشير الساعة المعلقة على جدار المطبخ إلى حلول الظهيرة، ما يعني أنني متأخرة عن موعد تبرُز «الشيء» طريح الفراش، لكن بصرف النظر، يجذبني الدرج الذي لا يزال مفتوحًا، وبه الصور التي تحتفظ بها جدتي ولا تريد للمتحف أن يحصل عليها، ونصفها خارج من الدرج.

أتصفحها، في كل واحدة منها، يظهر «الشيء» طريح الفراش حين كان قادرًا على الابتسام.

(عندما كانت أمي)

لا أحد يعلم أنها هنا.

ماذا حدث لها؟

هل هي مريضة؟

مَن فعل بها هذا؟

لماذا نحافظ على حياتها؟ سوف تحيا وتحيا.

سوف تستمر...

إلى الأبد.

أعود إلى فراش «الشيء»، وأنظِّم الأشرطة وأرفع وأسحب. يُخرِج «الشيء» بمجرد وضعه على المرحاض أشياء مروعة. أغسلها، أنظفها، أجففها. أرفع مرة أخرى وأسحب مرة أخرى وأرفع مرة أخرى. وأخيرًا تمت المهمة. أشعر بالأمان حيال الذهاب إلى الشاطئ مع رحيل جدتي، ربما أرى «رايتشيل». عند أسفل الفراش، أحرك ساقي «الشيء» وفخذيه لأضع عليه حفاضًا جديدًا، وهنا أراها أسفل قدمي؛ علامة جديدة بين نهاية الفراش والنافذة، خدش على شكل حرف «V» بجوار المنطقة التي صنفرتها مؤخرًا.

أخرج دفتري من مكانه تحت الأرض وأفتحه على الصفحة الأخيرة التي حددت فيها السطر اليوم السابق. أرسم حرف V بجانبه.

|V

هل هذه «I've»، «لقد فعلت»؟ ثم أدرك أن الحرفين ليسا بجوار بعضهما، بل متداخلان.

|V

يربكني الحرفان للحظة ثم يبزغ النور في عقلي: أقلب صفحتي بحيث يشير حرف الـ V الذي كتبته والآخر المرسوم على الأرض إلى الاتجاه نفسه.

—>

إنه ليس حرف «V» أو «ا»، بل سهمًا. نهضت فجأة، شبه متوقعة أن أجد «الشيء» طريح الفراش جالسًا عليه وينظر إليّ. ربما أجد فمه الشبيه بالجرح العميق يبتسم ابتسامة عريضة نتيجة لاكتشافي. لكنه كان على حاله، متسمرًا بمكانه، ولا يزال الصرير الذي لا نهاية له يخرج من حلقه، وهو الإشارة الوحيدة إلى أنه على قيد الحياة.

(إنه يحيا)

يحرقني نفاد الصبر.

«إذا كنتِ تستطيعين أن تفعلي *هذا*، لم لا تستطيعين أن تفعلي أي شيء آخر؟» أقولها وألقي الدفتر بكل قوة بوجهها البشع. لا يجفل «الشيء» طريح الفراش، وعيناه لا تغلقان حتى عندما يرتطم الكتاب برأسه. أندفع خارجة لإحضار ورق الصنفرة. سأنتهي من ذلك ثم أذهب للسباحة.

أعود إلى الأرض وأبدأ بفركها. ينحسر الغضب، وأتوق فقط للخروج من المنزل. ثم أرى علامة أخرى محفورة على الأرض. إنها أقل وضوحًا، وموجودة بالضبط حيث تلتقي الأرض بالجدار تحت النافذة، وهي عبارة عن سهم آخر يبدأ من الأرض ثم يستمر على الحائط. تتحرك عيناي إلى أعلى حيث أرى سهمًا آخر أخف، ثم آخر فوقه. إنها أسهم غير مرئية تقريبًا، مجرد خدوش في جص الحائط. لم أكن لأراها من دون السهم الأعمق المحفور في الأرض. تقف الأسهم عند حافة النافذة. أتفحص الجدار المحيط بإطار النافذة، لكن لا توجد علامات أخرى.

تخمد حرارة الفضول قصيرة الأمد. لقد تتبعت علاماتها لسنوات ولم يكن هناك أي بصيص أمل لوجود نمط أو معنى محدد. إنها ليست قادرة على ذلك. ألتقط ورق الصنفرة وأفرك الأسهم الصغيرة على الحائط. تخترق الريح حواف النافذة المسدودة بجوار أذني اليمنى، ولكن يصدر صوت آخر مألوف مغلقًا في تلك

الصفارة، صوت كصوت التقليب في الورق. التفت لأرى ماذا يحدث، وأغمض عيني اليسرى وأقترب بعيني اليمنى نحو الفجوات الموجودة في الصخور التي تسد النافذة. تدمع عيني من تيار الهواء، لكني أرى شيئًا مثبتًا بين بابي النافذة. إنها ورقة. كيف وصلت إلى هناك؟ بصعوبة. أدرك هذا لأن هناك بقع دم سوداء صغيرة على حواف الصخور المحيطة. أحاول إدخال أصابعي في الفجوة، لكنها ضيقة للغاية.

أحاول تفكيك الصخور بيدي الاثنتين. أخشى أن كل شيء سينهار، لكن لا داعي لذلك فهي مكدسة بشدّة. أحضر سكينتين طويلتين من خزانة المطبخ المغلقة، وأستخدمهما لإخراج الصخور المكدسة من مكانها، فأتمكن من استخراج الورقة. إنها ورقة قديمة جدًا من ورق الملاحظات المسطر. أحد جانبي الورقة عبارة عن خطاب يبدأ بـ«عزيزتي إيف». التاريخ هو أكتوبر 1978. أنظر إلى أسفل الورقة، وأجد توقيع «أوين»، وهو الاسم الحقيقي لبابا. أعلم أن «إيف» هو اسم «الشيء» طريح الفراش، ولكن بابا هو الوحيد الذي يستخدم اسمه على الإطلاق. خط يد بابا كبير الحجم، وقد ضغط القلم على الصفحات بشدة لدرجة أن شبح الكلمات يظهر بشكل معكوس على الوجه الآخر للخطاب. الوجه الآخر مخدوش بشكل غريب، وبه خطوط بالكاد مرئية تشبه الندبات في كل اتجاه. أميلها في اتجاه الضوء الخافت، وأدرك أنها كلمات أخرى.

أقرر ألا أذهب للسباحة. لم أحضِّر أي شيء لإطعامها بسبب كل ما حدث هذا الصباح، لذلك أضع المزيد من «البوريدج» على نار خفيفة. أقرأ رسالة بابا بينما يَغْلُظ قوامه.

16

عزيزتي إيف،

إن كان بإمكاني الحصول على أي شيء في هذا العالم، فسيكون استعادتك. لو لم آتِ بك إلى هنا قط، لِمَ حدث كل هذا مطلقًا، ولبقيتِ بخير. أعلم أن هذا لم يكن خطأك. لستِ بحاجة للقيام بذلك، فلا تزال لدينا الفرصة لنكون عائلة. لا يزال بإمكاننا أن نكون سعداء. «إيبلين» الرضيعة وأنا بحاجة إليكِ. تكلمي، أرجوكِ، انظري إلينا أرجوكِ. أرجوكِ. أفتقدكِ، أحبكِ. لقد خسرنا الكثير، ولا يمكن أن نخسر بعضنا.

أرجوكِ عودي إلينا.

أوين

أحضر «البوريدج» وأطعم «الشيء» طريح الفراش. لقد كتب تلك الرسالة يرجوها لتعود إليه منذ ما يقرب من عشرين عامًا. كان عمري بضعة أشهر فقط حينها.

(عندما بدأت أنا،

انتهت هي)

آخذ الرسالة إلى غرفتي حيث يوجد المزيد من الضوء، بعد أن أنظف «الشيء» طريح الفراش. أبسط الورقة بعناية وأميلها ببطء نحو الضوء حتى يمر فوقها. تظهر الحروف العميقة ثم تتراجع بينما أحرك الورقة. من الصعب جدًا التعرف عليها. الحروف الأولى هي i-n-e-d-t-o-e. إنها غير مرتبة وتتقاطع مع بعضها بعضًا ويكاد يكون من المستحيل فك تشابكها.

أحضر دفتري، فأنا بحاجة إلى نسخ هذه الحروف إن أردت أن أمنح نفسي الفرصة لقراءة هذه الكلمات، وآمل أن أستخلص معنى ما من كل ذلك. أتمعن في

هذه الشخبطة اليائسة لساعات حتى يخفت ضوء النهار من حولي، ما يتطلب أن أشغل الضوء فوق رأسي.

يصعب عليّ تمييز العلامات وعيناي متعبتان تحت الوهج المصفر. ستعود جدتي قريبًا، وأحتاج إلى خلع الحفاضة عن «الشيء» طريح الفراش وتغيير وضعه حتى لا تستشعر جدتي أي إهمال من جانبي. أسأل نفسي أين أضع الخطاب. يتشكل سرطان من القلق بداخلي. ماذا لو جدتي على علم بوجود الخطاب؟ ماذا لو كان هذا اختبارًا ما؟ ستعلم أنني وجدته إن أخفيته في غرفتي، ما يخيفني. لا أريدها أن تأخذ الخطاب مني حتى أتمكن من نسخ المزيد من الحروف. لم أنجز سوى ما يقرب من نسخ ثلث الورقة. لقد استحوذت عليّ الرغبة في سماع كلمات «الشيء» طريح الفراش لأول مرة في حياتي كلها، وكل خلية في جسدي تصرخ بهذه الحاجة اليائسة، ما يشبه حاجتي لـ«رايتشيل». أخشى أن تعرف جدتي أنني أخذت الخطاب إذا احتفظت به، ولكنني أخشى أكثر إعادته بين الصخور فتأخذه الجزيرة. يمكن للعوامل الجوية أن تُطيِّر الكلمات مباشرة من على الورقة. أفكر بعمق، ثم أضع علامة حيث يجب أن أستأنف نسخي غدًا، وأضع الخطاب تحت مرتبتي.

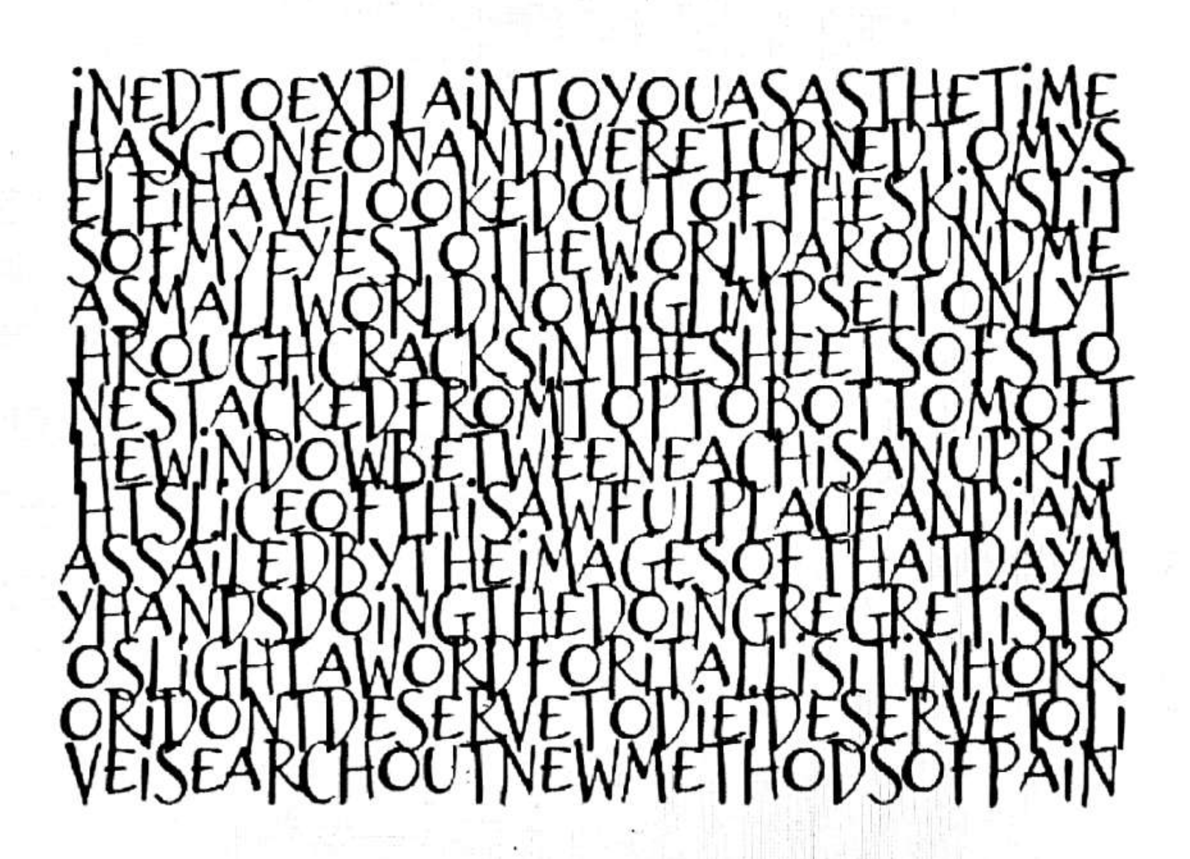
ألقي نظرة على ما نسخته. لا يزال أمامي القليل من الوقت قبل أن تعود جدتي. عليّ فقط أن أبدأ في تحضير العشاء. أذهب إلى المطبخ وأقيِّد فخذيّ الدجاجة ببعضهما. أُدخل الزبد تحت طبقات الجلد المتقطعة وأضعها بالفرن. ثم أذهب إلى الغرفة المجاورة، غرفة «الشيء» طريح الفراش، وأفعل بها ما فعلته بالدجاجة. أفتح الحفاضة، بينما ساقاها مثنيتان ومتباعدتان، فيظهر لونها الوردي. أسحب الحفاضة بعيدًا، وأنظفها، ثم أُجلِسها على المقعد. أسحب المقعد إلى الحائط بالقرب من النافذة وأحدق في عينيها، كأنني آمرهما أن تتوقفا عن الحركة تحت شقَّي جفنيهما. آمرها أن تنظر إليّ.

«لقد وجدته»، أقول لها بلا داعٍ؛ فقد كانت في الغرفة عندما وجدته عمومًا. لا

تعطي أي علامة على أنها سمعتني. الإصبع ذات السن الأبيض الصغير في حِجرها يجذب انتباهي. أرفعه حتى يصير أمام وجهي. أبسطه، حتى تظهر شظية العظم من الجلد الميت. تثور معدتي عندما أدرك أنني أمسك أداتها للكتابة. أداة مروعة صنعتها من خلال الإصرار العنيف. أقذف يدها بعيدًا عني.

إنها إجابة واحدة على الأقل. كيفية كتابتها للحروف.

أعود إلى غرفتي للعمل على معرفة سبب كتابة الحروف.



آخذ قلمي الرصاص وأبدأ بالرسم وكلّي قلق. أرسم خطوطًا عمودية لفصل الكلمات عن بعضها حتى تعود جدتي ويحين وقت العشاء.

17

أشعر بالتعب الشديد الليلة التالية، ولا أذهب إلى «رايتشيل» حتى الساعة الرابعة صباحًا. سأقضي معها وقتًا قصيرًا فقط قبل أن يبدأ اليوم، لكن هذا أفضل من عدم رؤيتها على الإطلاق. عندما أقترب من المنزل، ألاحظ أن ضوء غرفة النوم مطفأ بينما أقترب من المنزل، وعند جانبه، يقع على الأرض مربع أصفر اللون من الضوء أمام الباب الجرّار. أدور حول واجهة المنزل حتى أصل إلى هذا الجانب وأقف على بُعد بضع أقدام من الضوء.

«رايتشيل» جالسة إلى الطاولة الليلة. إنها منحنية نحو الصفحة أمامها، وترسم خطوطًا صغيرة ومفصلة بفرشاة ناعمة، والتي تغمسها أحيانًا في الحبر على يمينها. الرضيع عند قدميها، مدسوس تحت الطاولة، ونائم في كرسي هزاز. تدفع الكرسي دفعة خفيفة كل ثانيتين، وفي هذا تحافظ على إيقاع أمومي غامض. تركيزها كامل، فأرتاح لأنني أدرك أنها منغمسة في عملها، وأستطيع أن أراقبها كما أحب. أنا غير مرئية إطلاقًا هنا مع وجود الأضواء داخل المنزل. يمكنها أن تنظر إليّ مباشرة من خلال الأبواب وكل ما ستراه هو صورة معكوسة للغرفة التي تجلس فيها. أقترب بجرأة. أرفع غطاء رأس سترتي للأعلى في مواجهة شدة الرياح، وأراقب.

تضطرب الفرشاة فوق الصفحة بعد مرور بعض الوقت لأن الرضيع بدأ يتحرك قليلًا. تحرك قدمها بشكل أسرع ويبدو أنه يهدأ مرة أخرى. تنظر إلى الساعة وتهز رأسها قليلًا. تبدو منهكة تمامًا، ووجهها مترهل وشاحب. تتكئ للأسفل لتتفقد الرضيع، ثم تنهض، وتُبقيه في مرمى بصرها، وتتحرك تجاه الباب المؤدي إلى المرحاض الصغير الواقع خارج المساحة الفنية. تفتح الباب برفق وتغلقه خلفها.

أتحرك ثانية نحو النافذة الصغيرة العالية عند واجهة المنزل التي تطل على المرحاض. أجد أصيصًا للزهور بجوار الباب الأمامي، وبه طين جاف وشجيرة

صغيرة ذابلة، أسحبه إلى أسفل النافذة مباشرةً. أقف فوقه، وأقترب نحو النافذة حتى أتمكن من رؤية ظهر «رايتشيل» العريض ورقبتها الجميلة وهي تخطو تحت صنبور الاستحمام. على الرغم من تدفق تيار المياه بضعف، فإنها تبدو مسترخية بينما يتصاعد البخار نحو السقف. أشعر أن عليّ أن أتشبع بصورتها بسرعة لأن النافذة سوف يملأها الضباب قريبًا. يتدلى شعرها على جانبي رأسها ويرسل سيولًا من الماء على ثدييها وبطنها المتدلي. تتدفق الأوردة الزرقاء إلى الخارج من صرتها، وتتعرج علامات التمدد في خطوط دقيقة بيضاء كالفضة حول جانبيها، وللأسفل باتجاه شعر عانتها. ساقاها سمينتان، وخاصة فخذيها، وأشعر بالرغبة تكبر بداخلي. أريد أن ألمسها بشدة. على الجدار الخارجي، أضغط بجسدي على قبضتي المشدودة.

ألاحظ أن الدم ينساب منها ويتجمع عند قدميها. أضغط بقوة أكبر، وأفرك نفسي على مفاصل أصابعي. يخط ساقاها الدم، دم أكثر بكثير من الدم المزعج الذي يزورني شهريًا. يبدو أيضًا أكثر حُمرة، وكأن الماء يستغرق وقتًا حتى يخففه. تنتصب فجأة فأتراجع من على حافة المتعة. إنها تنظر نحو الباب. تغلق الصنبور وتستمع. إنها تستمع لصوت الرضيع. أنزل ببطء من على الأصيص وأعود إلى الباب الجانبي: الرضيع نائم. تستأنف حمامها وأبقى أنا عند الباب الجانبي. يمكنني الاقتراب ورؤية ما ترسمه لأنها في المرحاض. لا ينبغي أن أتفاجأ بأنه رضيع، لكن ما أراه لا يزال يثير بي بعض الغيرة. ولكن عندما أتمعن في النظر إلى اللوحة، أرى أن الرضيع المرسوم ليس على ما يرام. أقترب من النافذة لأرى بشكل أفضل. شكل الرضيع مثير للقلق. إنه بالحجم الدقيق لـ«شيماس» وهو مستلقٍ على ظهره ويحدق من الصفحة. جلده رمادي كلون الأردواز مع ضربات للفرشاة من اللون الأحمر المائل للبنفسجي إلى اللون الأرجواني. العينان غير مكتملين، فمحجراهما خاويان. يقص مقص ذو مظهر مضحك اللحم على صرة بطنه وأجزاء من كتفه اليمنى ورأسه مرقط ومتقشر. ينقطع صوت رشاش المياه مرة أخرى فأسرع بالتراجع من خلف النافذة بينما يطل رأس «رايتشيل» من

المرحاض. تنتظر دقيقة كاملة، وتنظر إلى الرضيع الآخر تحت الطاولة، ثم تغلق الباب مرة أخرى. يعود صوت المياه.

أنا في حيرة. ماذا تفعل؟

ليس لديّ سوى وقت قليل قبل أن يصل الضوء إلى الجزيرة من الشرق. ألقي نظرة على الأشياء الأخرى على الطاولة. هناك قصاصات من الخشب والصخور، من المفترض أنها من الجزيرة. هناك إبر وخيوط وقصاصات من الورق الممزق. هناك شيء مثير للفضول معلّق من أحد الأرفف على الحائط الأيسر. إنه جذع إنسان بالحجم الطبيعي مصنوع من ورق شفاف. خيطت الأشكال الورقية التي تشكل البطن المستدير والثديين معًا بصفوف متساوية من الغرز البيضاء الناعمة. إنه غريب وفائق الجمال. يدور ببطء وهو مُعلّق ويمكنني رؤية ظل شيء معلق بداخله، ولكن يحجب الورق التفاصيل. في منتصف الظهر، يتجمع الورق معًا مخيطًا بصوف خشن بلون أبيض متسخ. المنظر عبارة عن صف من العقد المشوهة ذات الأحجام المختلفة التي تنحدر مثل العمود الفقري من قاعدة الرقبة إلى حيث ينتهي الظهر. تنتهي الأذرع والرقبة بعقد عشوائية مماثلة. التفاصيل الموجودة في المقدمة دقيقة: تمتد عظام الترقوة أعلى الصدر مثل الأجنحة الرقيقة. علامات التمدد البيضاء كالفضة التي رأيتها للتو بجسد «رايتشيل» مطرزة بعناية حول جانبي البطن الكبير.

لا أرفع عينيّ عنها إلا عندما ينقطع الماء. أتراجع إلى مكاني خلف الضوء مباشرة. أعقد العزم على أنني سأمضي بعد دقيقتين. تخرج «رايتشيل» بالمنشفة هذه المرة. انتهت من الاستحمام وبدأ الرضيع في البكاء، وهو صوت مزعج، ولكنها تبتسم له على أي حال. تخيل أن ينظر أحد إليك بهذه الطريقة. هذا الرضيع لا يعرف سوى تلك النظرة.

(أدوس، غرغرة، لا شيء)

تحمل الطفل وتتجه بعيدًا إلى الطرف الآخر من المطبخ حيث يوجد باب غرفة النوم. تطفئ ضوء المطبخ، وهذا ما لا أتوقعه. أنا مرئية بشكل خطير في الظلام المفاجئ. يبدو أنها تنظر إليّ مباشرة، فأتجمد. من شأن الجري أن يجذب المزيد من الانتباه. لقد رأتني، أو رأت شيئًا على الأقل. يتصلب وجهها، ويعلوه قناع من الخوف، فينزلق الطفل قليلًا إلى الأسفل بفعل هلعها. تسارع في الإمساك به، فأغتنم هذه الفرصة للالتفاف والركض. لا آخذ الطريق جريًا حيث ستحرك قدماي الصخور في كل اتجاه وتحدث الكثير من الضجيج. أبقى على الجانب الذي ينمو فيه العشب الطويل، على هذا الجانب من السياج المؤدي إلى المصنع المظلم. أعود إلى الطريق وأبطئ السرعة بمجرد تجاوزي للمصنع بالكامل.

لقد خانني تركيزي، وكان هذا ضربًا من ضروب الغباء، لكنني أدرك أن ما حدث قد قدّم لي فرصة مثيرة للاهتمام فيما يتعلق بـ«رايتشيل»؛ لقد رأيت ما يكفي خلال الليالي التي قضيتها في مراقبتها لأعرف أنها تعاني.

سوف يساورها الخوف بعد الليلة. بدأ الليل ينحسر تدريجيًا وأنا أعود إلى المنزل. اليوم سأذهب للسباحة وسأقابلها. إنها بحاجة إليّ.

18

أجلس إلى الشاطئ وأنتظر بعد مرور ساعات. نهضت وأنجزت المهام الصباحية بسرعة قبل مجيئي. قمت بها بكل كفاءة، وقد حل محل استيائي المعتاد هدف جديد كطفل حديث الولادة. الآن أنتظر بين أكوام الصخور التي تحد الشاطئ الرمادي الحديدي استعدادًا لمقابلتها «بالصدفة» عندما تأتي. أقضي الوقت مع نسختي من الكلمات التي نحتها «الشيء» طريح الفراش بينما أنتظر. أرسم الخطوط بين السطور والحروف باستخدام قلمي الرصاص، وأقطع الكلمات وأجد المعنى فيها. ما أجده يبدو غامضًا. يبدأ:

أحتاج أن أشرح لك.

أرى العالم من حولي مع مرور الوقت وعودتي إلى نفسي. عالم صغير الآن. لا ألمحه إلا من خلال الشقوق الموجودة في صفائح الحجر المكدسة من أعلى النافذة إلى أسفلها، وبين كل منها قطعة واضحة من هذا المكان الفظيع، وتهاجمني ذكرى ذلك اليوم. يدي تفعل فعلتها. وقع كلمة الندم خفيف ولا يصف ما أشعر به. أجلس في حالة رعب. أنا لا أستحق الموت، أنا أستحق أن أحيا. أبحث عن طرق جديدة للألم...

تثير عبارة «ذلك اليوم» جنوني. أي يوم؟ أي ندم؟ لماذا الألم؟ أنا في حيرة بين الانتظار لرؤية «رايتشيل» والعودة إلى «الشيء» طريح الفراش والحصول على الإجابات منه، وكأني أقوم بعملية استئصال لجروحه وذلّه الخفيين. أعذبه من أجل الحقيقة. لكن القسوة لم تنجح قط.

(«أبحث عن طرق جديدة للألم»)

ربما لم ينجح الأمر قط لأن القسوة هي ما ترنو إليه.

لا أعرف متى كُتِبَت هذه الرسالة. الرسالة بحد ذاتها تَعِد بتفسير، فتقول

«أحتاج إلى أن أشرح لك»، لكنها لا تقول شيئًا واضحًا حتى الآن. سأستمر في نسخ الحروف، ولكن الآن، اليوم كله يتمركز حول «رايتشيل». أدخل الدفتر في حقيبتي وأظل متحفزة لاقترابها مني. أخيرًا رأيتهما، يضمان بعضهما كالعادة. تحمله بحمّالة الأطفال، ملتصق بها تمامًا كما تلتصق الرخويات بالصخور. كيف تتحمل مثل هذا الطفيل الخانق؟ كيف تقاوم الرغبة في التخلص منه والقضاء عليه؟

(سحق، غرغرة، اللاشيء اللذيذ)

أنتظر حتى تجلس على الرمال ثم أقترب منها.

أخاطبها قائلة: «مرحبًا»، فتستدير. أرى أنها ذابلة اليوم. عيناها صغيرتان بفعل التعب والقلق. إنها تبدو بلا حول ولا قوة بينما أقترب منها.

«مرحبًا يا إيبلين»، وتبتسم ابتسامة واهنة لي، ثم يسيطر عليها الحزن وتدمع عيناها. أختلج وأشعر بالانزعاج. ينبغي أن تكون سعيدة. أنا هنا الآن. أنا مَن تحتاجها. تنكسر موجة على حافة الرمال، فتخترق غضبي وتذكرني أن أتحدّث. لا بأس، إنها لا تعرف أنني هنا لمساعدتها.

أسألها: «هل أنت بخير؟».

تجيب: «آسفة»، وتمسح وجهها بالقميص المنقوش الذي ترتديه. قميص رجل. بالتأكيد جاء الرضيع من رجل، على الرغم من أنني لا أحب أن أفكر في ذلك. رجل جاحد يجلس بين فخذيها ويعبث بها ويلمسها.

تستطرد: «أنا متعبة حقًا اليوم، لكن كان عليّ أن أخرج من المنزل». وتلقي نظرة متوترة خلف ظهرها إلى المكان الذي أتت منه.

أقول: «الرضيع يبدو بحال طيب، إنه جميل».

تبتسم عندما أقول هذا، على الرغم من أنني لا أعنيه. ذلك الرضيع الذي يتغذى

على جسد غيره كحشرة القُراد.

ترد: «إنه في أطيب حال» وتحدق في وجهه. «ولكن يتطلب الكثير من الاهتمام ليلًا»، تقولها قلِقة.

«أتفهم ما تمرين به، فقد كان عليّ أن أعتني بأمي طوال الليل قبل أن تموت». أضيف هذه المعلومة في وقتها المناسب.

«رباه يا إيبلين. أنا آسفة جدًا.»

كامل تركيزها ينصب عليّ الآن؛ لقد نسيت الرضيع، ويجب أن أجبر نفسي ألا أبتسم.

«لا بأس. كان على والدتي أن تنتهي، أعني أن تنتهي معاناتها، فقد كانت تتألم كثيرًا».

«يا لكِ من إنسانة طيبة» همست «رايتشيل»، وهي تسحب يديّ إلى فمها لتقبيلهما. إنها كعبدة لي، ويتملكني شعور بالسلطة وأنا واقفة فوقهما هكذا.

أقول: «صرت أقضي ساعات الليل بلا هدف، ولم أعتد هذا بعد».

تسألني: «متى ماتت؟».

أجيب: «منذ فترة». أتوقف عند هذا الحد، لأنني لا أعرف حقًا كيف أختلق الأمور، على الرغم من أن هذه الكذبة ليست صعبة الاختلاق إلى هذا الحد، فلا تختلف عن الحقيقة كثيرًا. لقد كان «الشيء» طريح الفراش — أمي — كيانًا ميتًا طوال حياتي. لا نهتم بها أبدًا لنبقيها على قيد الحياة، بل فقط لنبطئ من موتها. تقول «رايتشيل»: «أنا آسفة يا «إيبلين». أنا متأكدة أنها أحبتك كثيرًا، وكانت محظوظة بوجودك».

يا لها من بريئة! ممنوع الضحك الآن يا «إيبلين». أسألها: «كيف حال أعمالك الفنية؟».

«إنه... في الواقع...» لا تزال تمسك بيديّ وتضغط بهما الآن على رأسها. تسألني: «هل يمكنك أن تخمني أن رأسي على وشك الانفجار؟!».

أرى أن عليّ أن أرد بالابتسام، فأبتسم على النحو الواجب. ولكن انفجار رأسها ليس أكثر من إلهاء. أشعر بالشعر والعظام تحت يدي. رأسها الجميل. أمر بناظري عبر أيدينا المتشابكة، وصولًا إلى رأس الرضيع، وأرى النبض الخبيث الذي ينبض تحت خصلات شعره.

«لماذا سينفجر رأسك؟» أضع يدي عليها بخفة، محاولة إطالة مدة الاتصال بيننا.

«أوه، أنا متعبة. ذهني مرهق. إنه يحتاجني كثيرًا وهذا صعب. لا أشعر أنني بخير».

«كيف؟» أبعد يدي وأنا قلقة من أن اللمسة ستستمر لفترة طويلة.

أنضم إليها على الرمال الرمادية.

«لا أستطيع أن أفعل الأشياء التي أفعلها عادة؛ لديّ الكثير من الأشياء التي أريد القيام بها ولكني أشعر بالإحباط الشديد. عقلي يصب جام تركيزه على هذا الرضيع. أشعر بالذعر حتى لو حاولت التفكير في شيء آخر، كلوحة أو أي شيء آخر، لأنني أشعر حينها أنني أنانية وأهمله». يبدو عليها الانهيار وهي تكافح لتنطق الكلمات الأخيرة، وتقول: «وأشعر بالخجل من بعض الأفكار المليئة بالكراهية في رأسي».

أربت على ظهرها بالطريقة الغريبة التي استخدمها بابا معي من قبل وأقول: «الاعتناء بالآخرين صعب للغاية. هل ستسبحين؟ أستطيع أن أحمل الرضيع».

ترد: «لا أعتقد أنني أستطيع اليوم. ظننت أنني أريد ذلك، لكني أشعر... لا أعرف... أشعر أنني لست على ما يرام. أشعر وكأنني باب منفتح على مصراعيه

نوعًا ما. هل هذا منطقي؟».

أتجاهل السؤال لأنني لا أفهم له معنى. «هل يمكنني رؤية أعمالك الفنية مرة أخرى؟»، أحاول إبعاد اليأس عن صوتي.

«نعم، فكرة طيبة. أشعر أن المنزل خاوٍ جدًا». تعتذر عن الفوضى عندما نصل إلى المنزل.

المنزل بالفعل في حالة من الفوضى. إنه ليس المنزل نفسه الذي زرته سابقًا. حتى في أثناء وقفاتي الليلية، لم ألحظ مدى الإهمال. الأطباق في الحوض منذ أيام وملتصقة بها بواقي الطعام. هناك خُثارة من الحليب الفاسد تطفو في فناجين الشاي القديمة، وقطع قماش ملطخة بالصدأ متناثرة حولها.

«لا أجد الوقت أو الطاقة لفعل أي شيء». بدأ الرضيع الذي كان لا يزال في حمالة الأطفال في الاحتجاج. «عندما أبدأ في محاولة القيام بشيء ما، يحدث هذا». وتشير إليه، وعلى الرغم من الابتسامة الحزينة، أستطيع أن أرى التوتر في طرف فمها وعينيها المضطربتين.

أسألها: «هل يريدك أن ترضعيه؟»، أقولها بلهجة حذرة، فلا يجب أن أظهر أي ازدراء.

«دائمًا». تتجه نحو المطبخ. «سأعد لنا الشاي على الرغم من ذلك.»

«لا تعدي شيئًا!»، أمسك بيدها - جميل للغاية أن ألمسها - فتتفاجأ. أستطرد: «دعيني أعده أنا، وأرضعيه أنتِ». ترتاح ملامحها المشدودة وتبدو ممتنة بشكل مثير للشفقة.

بينما تجلس هي والطفل، أشغل الغلاية وأرتب المطبخ سريعًا. أملأ الحوض بالرغوة والماء الساخن، وأنقع به جميع الأطباق لفترة. أتحرك بسرعة، ولكن بشكل غير مزعج حتى لا تحاول إيقافي. أتحقق من الثلاجة والخزائن: هناك

القليل من ثمرات البطاطس والجزر الطرية. أقشرها وأقطعها، بينما أنقع الشاي في الوعاء.

«ماذا تفعلين يا إيبلين؟» هناك ابتسامة خافتة في صوتها.

أجبها بابتسامة كبيرة وأنا أحمل الشاي إليها: «لا شيء. أنا فقط أغلي بعض الخضروات للحساء. أنت تطعمينه، فمن يطعمك؟ سيكون الحساء مفيدًا لكِ لاحقًا. أنت بحاجة إلى الاهتمام أيضًا».

تبدو مستاءة مرة أخرى. تقول: «أنا... شكرًا لك يا إيبلين.»

أنظم المطبخ قليلًا وأجفف الأدوات وأضعها جانبًا بينما تطعم الرضيع. هناك بالقرب من الطاولة التي عليها أدواتها الفنية منشر الملابس، وعليه ملابس صغيرة للأطفال. أطويها وأصنفها وأحدق في الجذع المعلق بجوار النافذة.

«يمكنك أن تلقي نظرة عليه»، هكذا تقول «رايتشيل». «لقد صنعت هذا الشيء قبل مجيئنا إلى هنا مباشرة.»

أسألها: «ماذا يوجد بداخله؟».

تجيبني: «ماذا تعتقدين؟».

أشق طريقي حول الصناديق والقطع الأخرى. الجذع أكثر جمالًا عن قرب. يذكرني الخيط الأبيض الذي ينعكس عليه الضوء بالشقوق الدقيقة في رسالة «الشيء» طريح الفراش. يجب *أن أعود*، أقولها لنفسي وأنا آسفة. لكني بحاجة إلى إيجاد الطريقة الصحيحة لربط نفسي بـ«رايتشيل» قبل أن أغادر مرة أخرى. وهي في حاجة إليّ. يجب أن أجعلها ترى هذا.

أنظر من خلال العقد الموجودة في ظهر الجذع، وأحاول اكتشاف الشيء الموجود بالداخل.

«من الصعب جدًا رؤية ما بالداخل، أخبريني!»، هكذا أناشد «رايتشيل».

ترد: «ربما المسألة كلها هي أنكِ لا تستطيعين رؤيته.»

صوتها حزين. أتوقف عند لوحة الطفل على الطاولة.

أقول: «هذا...».

تقاطعني قائلة: «إنه بشع»، وتستطرد: «هناك شيء مريض فيه، لا أعرف لماذا خرج على الورق. كنت أرغب في رسم «شيماس» ».

«أليس هذا «شيماس»؟»

تحدق فيّ، وتقول بحزم: «إنه ليس «شيماس» »، ثم تستطرد: «أنا آسفة، لقد أصابني الخوف عندما رسمت هذه اللوحة. شعرت وكأنني لم أرسمها بنفسي، بل إنها فقط جاءت من خلالي. لا أشعر بأنني على ما يرام». تنظر إليّ بعينين أصابهما بؤس مفاجئ. تقول: «أنا خائفة طوال الوقت هنا.»

«لماذا؟»

«لا أعرف السبب. لا أعرف إن كانت المشكلة بي أو في هذا المكان. أشعر بأنني باب مفتوح على مصراعيه منذ أن أنجبت طفلي. شعرت بسعادة غامرة عندما كنت حاملًا. رسمت لوحات جميلة وشعرت أن الطفل كان معي بينما ابتكرتها. ثم يفتحون جسدك ويسحبون الطفل ويتركونك هكذا». تنظر للرضيع ثانية وتقول: «لم يلتئم الجرح حتى الآن، أشعر وكأن أي شيء من الممكن أن يدخل. أشعر وكأنني قناة. اعتقدت أنني سأكون هنا مع طفلي وأنني سأكون قناة للسلام. ظننت أننا سنكون آمنين مع بعضنا بعضًا. لكنني كالباب المنفتح على مصراعيه، وكل ما يدخل من خلالي فظيع. أنا متعبة جدًا. أعتقد أنني أسمع أشياء وأرى أشياء غير موجودة، وأحيانًا تصبح أفكاري مظلمة وتكون في غاية البشاعة. وأنا لا أريد أن أفعل تلك الأشياء السيئة التي أفكر فيها».

(هذا المكان الفظيع، ذلك اليوم)

«لا بأس يا «رايتشيل» «. أعود إليها وأركع بجوارها. «أنت بخير. أنت حقًا بخير. «شيماس» محظوظ جدًا بوجودك. أنت بخير، ولكنك متعبة، ومن الممكن للتعب أن يتسبب في هذه الأشياء الغريبة».

أعتقد أن هذا صحيح، فقد ذكر كتاب التاريخ أن أسرى الحرب يحرمون من النوم كنوع من أنواع التعذيب.

تومئ إيماءة قاتمة.

«يمكنني أن آتي ليلًا وأساعدك يا رايتشيل».

«أوه، يا إيبلين، هذا لطيف جدًا منك، ولكنه كثير عليّ».

أرد: «أنا جادة، أستطيع أن آتي».

تقول: «أنا قادرة على التصرف».

أقرر أن أغير أسلوبي.

أسألها: «ماذا تسمعين؟ أعني ليلًا».

«أسمع بكاء طفل»، تنزلق الكلمات من فمها. إنها قلقة. تنتقل عيناي إلى الرضيع على صدرها، وتلاحظ هي اتجاه عيني، وتضيف من فورها: «ليس بكاءه هو. أبحث عن مصدر البكاء كل مرة ولا يكون هو. إنه أمر غريب جدًا. أحاول دائمًا أن أقول لنفسي إن هذا يدور في رأسي، إنه الليل الذي يخدعني. لكنني لم يحدث لي هذا قط قبل المجيء إلى الجزيرة».

الآن أصبح إيقاف الاستحمام أمرًا منطقيًا. كانت تتوقف للاستماع.

همست: «أسمعه في النهار أيضًا، ولكن بصوت أكثر خفوتًا». تستطرد: «أسمع الصوت من خلال الجدران الصخرية وفي المحيط أيضًا». انسكبت كلماتها التي تنطق بها همسًا، وبلغت ذروتها في موجة من الذعر.

أقول: «لقد سمعت بكاء الطفل، يقول بابا إن هذه طبيعة الرياح هنا، لكني سمعت ذلك الصوت في أكثر الليالي هدوءًا، عمومًا الأمر مفهوم». تنظر إليّ، وتترقّب أي نوع من الطمأنينة سأقدمه لها. إنها لا تدرك أنني أريدها مضطربة ومشوشة الذهن. أريدها أن تشك في نفسها وتحذر من هذا المكان. أريدها أن تحتاجني.

أواصل حديثي ببساطة: «نسمع بكاء الطفل لأن مقابر الجزيرة تقع هناك أسفل المنحدرات الغربية. يحاول الطفل أن يشق طريقه هناك. الطفل غير مدفون. هناك الكثير ممن لم يدفنوا هنا. لا توجد طريقة للحفر، لذا قاموا بتعليق الجثامين على المنحدرات لتغذية المحيط وإبعادهم عن الجزيرة».

تبدو مصدومة. تقول: «من يفعل هذا؟ هل ما زالوا يفعلون هذا؟»، بينما تحفز بيدها إفراز الحليب بثديها دون وعي.

أقول: «لا!»، وأبتسم، ثم أستطرد: «إنها مجرد قصص! ربما يكون «شيماس» هو من يبكي ويتوقف عندما يراك».

تعبس، ويبدو عليها التوتر. أقول: «لا أعرف، ولكن ماذا رأيتِ؟».

ترد: «أعتقد أنني رأيت شيئًا في الخارج. حدث هذا عدة مرات. أحيانًا ظننت أنها حيوانات، ولكن الليلة الماضية أعتقد أنني رأيتها مرة أخرى ونظرت إليّ مباشرة». أشارت برأسها إلى الأبواب الزجاجية الجرّارة، وأكملت: «في الخارج. كان غريبا جدًا. أطفأت الضوء هنا وظننت للحظة أنني أرى وجه القمر منخفضًا في السماء، ولكن بعد ذلك تحركت عيناه وخُفت للغاية. كدت أسقط الرضيع من ذراعي، وفي الثانية التالية اختفى. لا أعرف ماذا أفعل إذا رأيت أشياء غير موجودة». تبدو يائسة.

إنها تحتاجني. عليها أن تفهم أنها تحتاجني. أقول: «هذا مخيف»، وأتحرك نحو الأبواب. أنا أشتري الوقت. أحتاج إلى أن أجد ما أقوله، والذي سيجعلها تدرك

أنها تحتاجني هنا في الليل. ما تراه مخيف، ولكن يكمن الرعب الحقيقي في البشر. لطخة على النافذة تلفت انتباهي. إنها من يدي. أستدير نحوها. «لا أعتقد أنكِ تتخيلين الأشياء»، وأشير إلى العلامة. «كان شخص ما هنا، ربما أحد أولاد الجزيرة، هم ليسوا لطفاء».

تنهض «رايتشيل». يشبع «شيماس» وبدأ يتحرك بين ذراعيها.

(جسده اللين)

تضبط ملابسها وتأتي لتنظر إلى النافذة وتفغر فاها، ثم تقف.

تقول: «إن لم أتخيل ما رأيت، لست أدري إن كان هذا مثيرًا للراحة أم للقلق».

أقول لها: «إنه مثير للراحة. أرأيت؟ أفكارك بخير. أنت طيبة جدًا يا «رايتشيل»، وأنت بخير».

تعبس هي وتقول: «من الأفضل أن أذهب وأخبر رجال المتحف».

«ربما...»، لا أتسرع في الاعتراض، بل أتظاهر بالتفكير. «لكن...»، ثم أتوقف.

تسألني: «ماذا؟».

أرد: «أوه، لا أعرف. يمكن لسكان الجزيرة أن يتعاملوا بغرابة تجاه من ليسوا منهم. قد تسبب إثارتك للضجة مشكلات أكثر. يأتي الأولاد إلى هنا فقط لأنكِ وحدكِ هنا وليس لديهم أي شيء آخر ليفعلوه. ولكن قد تسوء الأمور إذا تقدمت بشكوى».

تبدو «رايتشيل» منزعجة بعض الشيء، وترد: «لن يرضى عاملو المتحف إن عرفوا أن الأولاد يتحرشون بي.»

«لكنهم لم يتحرشوا بك بالضبط، أليس كذلك؟ لم *يفعلوا* شيئًا حقًا. أنا أخبرك برأيي فقط لأنني أعرف كيف يمكن أن يتعاملوا مع من هم مختلفون عنهم».

تنقل «رايتشيل» الرضيع إلى كتفها. إنها تفكر، ثم تتحدث أخيرًا.

«إيبلين، ما عرضتِه عليّ... هل تعتقدين أنك يمكنك المجيء الليلة؟».

أحافظ على ثبات صوتي وأقول: «نعم بالطبع. أستطيع أن آتي كل ليلة».

19

تنتظرني مفاجأة سيئة عندما أعود للمنزل. في المطبخ، أجد جدتي جالسة خلف الطاولة مع «الشيء» طريح الفراش. فم «الشيء» مفتوح. يبدو وكأنهما كانا يتشاوران معًا.

«لقد غبت لعدة ساعات»، قالتها جدتي بنظرة غاضبة وهي تلوح بالورقة التي تركتها لها أخبرها فيها أنني سأذهب للسباحة وأعود بسرعة. تستطرد: «هذا يعني أنك كنت ستعودين بحلول وقت الغداء، ولكن الساعة الثالثة تقريبًا. لولا أنني عدت وحركتها لكانت ستظل في وضع واحد لساعات. أين كنت؟ شعرك جاف».

«كنت في طريقي للسباحة و...»، أفكر بسرعة في الأعذار المحتملة. أفكر في عذر من شأنه أن يرضي جدتي دون الكشف عن أي شيء.

ترفع صوتها بالأيرلندية قائلة: «وماذا؟».

لا يزال فم «الشيء» طريح الفراش مفتوحًا، وعيناه تنظران إلى الأسفل، ولكنها ثابتة تلك المرة. أفكر في رسالة «الشيء» في حقيبتي. لا بد لي من احتواء غضب جدتي، فلا يجب أن تقرر مراقبتي عن كثب. لقد بدأت حياتي في التغير أخيرًا.

أقول: «لقد وجدت رضيعًا على الشاطئ مستلقيًا فوق الرمال». ارتفع صوت جدتي وهي تتساءل: «ماذا؟». أسألها: «ما المشكلة؟»، بينما تنهض هي وتندفع نحوي قبل أن أدرك تمامًا ما يحدث.

لم يسبق لي أن رأيتها تتحرك بهذه السرعة. لم أرَ مثل رد الفعل هذا منها من قبل.

«أين هو؟ أين، أين؟» إنها تترنح وتدمع عيناها. تمسك ذراعيّ من الأعلى، حتى إنني ارتبكت بشدة للحظة بسبب حركتها، واهتزت ثقتي بكذبتي.

«ما الأمر يا جدتي؟ لماذا يهمك الأمر؟»

«اصمتي أيتها العاهرة»، تطلق كلماتها نحوي. تسألني: «أين الطفل؟ هل هو على قيد الحياة؟».

أجيبها: «نعم، الطفل بخير، لقد ساعدت الأم. كانت في البحر. إنهما بخير الآن. إنها المرأة التي تأتي إلى المتحف على ما أعتقد».

تتمالك جدتي نفسها عندما تسمع هذا، وتقول: «نعم. حسنًا... حسنًا» تجلس مجددًا ببطء. تقول: «هذا مفهوم. أتفهم موقفك. كان عليك المساعدة. ولكن لا يمكنك السباحة خلال النهار بعد الآن. والدتك لا يمكن أن تترك وحدها، أنت تعرفين ذلك. لقد اقترب موعد عودة والدك مرة أخرى وعلينا أن نجعلها جميلة أمامه».

أقول: «حسنًا يا جدتي. أنا آسفة، لن أذهب مرة أخرى».

«بالتأكيد لن تذهبي» تطلق الكلمات وهي تنهض مرة أخرى. تستطرد: «يجب أن أعود إلى المتحف اللعين. سوف يتساءلون أين كنت. كنت أجلس هنا في انتظارك». تكمل: «اليوم أضع صورًا للجزيرة في إطارات لمعرض سيقام. يسمونه *انعكاسات الجزيرة*. الحمقى!» تتغير ملامحها. تقول: «هراء! إن انعكاسات هذا المكان مروعة للغاية، حتى أنها لا يمكن أن تُرى. سيقفزون من التلال إن عرفوا حقيقة هذا المكان». لفّت وشاحها حول رقبتها وقالت: «انتبهي لأمك اللعينة وابدئي في تجهيز العشاء»، ثم تغادر.

أسحب تلك اللعينة مرة أخرى إلى غرفتها وأرفعها إلى أعلى وأضعها على الفراش. أسحب قائم الفراش إلى زاوية 45 درجة.

أخاطبها: «أنت جائعة على ما أعتقد.»

لم يُطعم «الشيء» لساعات. ولم آكل أنا الأخرى.

أعود إلى المطبخ، وأتناول بعض الخبز الأسمر والزبدة. إنه متكتل ويتطلب مجهودًا لابتلاعه. أسكب الشوفان في الإناء وأشطف فمي بكوب من الماء لإزالة بقايا الخبز والدهون من المسافات بين الخد واللثة. أتردد بينما أتحرك لإعادة ملء الكوب بالماء لإضافته إلى الشوفان. يهمس الجدار اللاهث من الرياح إليّ، ويدفع الكلمات من رسالتها إلى رأسي.

(أنا أستحق أن أحيا. أبحث عن طرق جديدة للألم...)

أرمي الماء مرة أخرى بالحوض وأحضر الإناء إلى غرفة النوم. أقف بجانب الجزء العلوي من السرير وأدير رأس «الشيء» ليواجهني.

«أنتِ أبشع شيء رأيته في حياتي» أخبرها هذا كأمر واقع. أستشعر وقع كل كلمة بينما تترك شفتيّ، وأقول: «تفضلي».

أملأ فم «الشيء» بالملعقة الأولى من الشوفان الجاف، فيخرج سعالًا جافًا خفيفًا من مؤخرة حلقه.

أقول لها: «ببطء، أنت لا تريدين أن يدخل الطعام في القناة الخطأ». وعلى مدى النصف ساعة التالية، أرفع الملعقة إلى فم «الشيء» مرارًا وتكرارًا. ذهبت لإحضار المزيد من الشوفان من المطبخ في مرحلة ما. ظهرت على «الشيء» طريح الفراش الراحة عندما نهضت من مكاني، لكنه لا يعلم أنني لم أنتهِ. يتوتر «الشيء» ثانية عندما أعود، على الرغم من أنه لا يبتعد حتى عندما أحضر الملعقة إلى فمه الذي يبدو كالجرح.

«أنت جائعة جدًا اليوم» أقولها بسخرية، وأدفع الشوفان الخشن في فم «الشيء» مع كلماتي. أهدف إلى إعطائها تسع عشرة ملعقة، واحدة لكل عام كانت فيه كائنًا لا يفعل شيئًا سوى إصدار الصرير ونزف الدم والتبرز والتبول. ملعقة عن كل عام لم تعطني فيه شيئًا.

(شفتان رقيقتان بالقرب من تلك القشرة الوردية المسماة بأذن الرضيع، جسد

«رايتشيل» السخي الممتلئ بطعام طفلها، مداعبة فم الطفل باللبن كبرعم صغير كي يوقظ جوعه)

تلهث أمي - تلك اللعينة، «الشيء» طريح الفراش، التي لا يعطي ثدييها شيئًا، فهما كقماش الجلد - بين الهجمات اللطيفة التي أغذيها بها. ومع ذلك فهي لا تبدي أي مقاومة. لست متأكدة إن كان بإمكانها المقاومة. حركة العين تبدو مختلفة الآن، تبدو كالذعر، الذعر الذي يحدث لشخص يتم اجتياحه. تسعدني براعتي. أنا أطعم «الشيء» وأعاقبه، عصفوران بحجر واحد.

(يمكن للحجارة أن تقوم بالغرض نفسه أيضًا)

أحتفظ بالفكرة في عقلي. لقد دفعت كوبان من الشوفان غير المطبوخ إلى أسفل رقبة «الشيء» عندما انتهيت، مما أدى بلا شك إلى سحب كل الرطوبة من جسمه. أخرج من غرفتها عائدة إلى المطبخ حيث يصفق الجدار اللاهث لفكرتي المبتكرة. لا يوجد ماء سميك بفعل الجيلاتين اليوم. يا له من عذاب هادئ رائع يمكن إلحاقه بـ«الشيء». إنه مثالي؛ عقاب سري يخفيه الجسد ذاته الذي يتحمله. لن تعرف جدتي أبدًا. سوف يتضخَّم الشوفان داخل «الشيء» طريح الفراش وستُرهَق معدتها وتنكمش مثل منفاخ النار.

أدخل في حالة من أحلام اليقظة بينما أزيل بواقي الشوفان من فوق الطاولة. إن مضيت قُدُمًا، فهل ستنشق جدران معدتها الضيقة، فيؤدي إلى انسكاب محتوياتها إلى تجويف جسدها؟ هل ستملأها وتغرقها من الداخل؟ أم أن عروقها سوف تنسد بالدم المليء بالـ«بوريدج»، بحيث لا يستطيع القلب الثقيل أن يدفعه إلى دماغها وجسدها عديم الفائدة؟ يا له من موت حنون! هذا الإفراط في التغذية. إن وجود فم في أجسادنا لهو خلل في تصميمنا، صدع مفتوح على مصراعيه، يمكن أن يُصب فيه مثل هذا الدمار السهل.

(حتى رضيع «رايتشيل» لديه هذا الثقب في وجهه الذي أود تحطيمه، تنفتح

شفتاه الورديتان، مؤديتين إلى المسار الضعيف تجاه أعضاؤه المنمنمة المُعلقة مثل الفاكهة التي يسهل عصرها وقطفها وسحقها حتى تصبح لا شيء)

أفكر في «رايتشيل» وأنا في غرفتي، حتى وأنا أقوم بفك المزيد من رموز الرسالة. محتارة أنا بين هذين الهوسين: «رايتشيل» والرسالة. أشعر وكأن بينهما رباطًا وثيقًا. كل لحظة أقضيها في عبادتي لـ«رايتشيل» تكشف المزيد من جرائم الأم الأنانية طريحة الفراش. وكل كلمة أفهمها في الرسالة تدل على جرائمها أيضًا.

والآن بعد أن اعتدت فك الحروف من بعضها، أنسخ بقية الرسالة وأفهمها بسرعة أكبر:

... كي أدخل الرعب في قلبي. المزيد من الأيدي تفعل فعلتها.

دُمِّرت الأيدي تقريبًا. أفركهما على أسناني وعلى الجدران والأرضية. سوف تتلاشيان قريبًا. الأشياء التي فعلت فعلتها سوف تختفي أخيرًا. إنها مثل الصخور السوداء التي تصل إلى المياه المتجمدة حيث تنتهي الجزيرة. تتآكل الجزيرة بفعل المياه، وتشن المياه حربًا طويلة. يتآكل ما تبقَّى مني أيضًا، وأشن حربًا مستمرة ومركزة بنفسي.

لا تزال الجزيرة تهمس لي عبر أحجار الجدار المتباعدة عندما تنقليني إلى المطبخ وتتركيني هناك. لا بد لهذا أن يعني هذا أنني ما زلت مجنونة أو أن الجزيرة لا تزال سيئة، أو أنا السيئة والجزيرة مجنونة. أجلس على المقعد الصلب تائهة في ظلامي حتى تروا جميعًا أنه من المناسب تحريكي مرة أخرى.

الجزيرة تتحدث عنك. تراقبك منذ أن بدأت. تقول إنني السبب فيم أنت عليه. أنا المذنبة.

أنا السبب في أنك خاوية وغاضبة، هذا الخواء والغضب القابعان بداخلك،

جاهزان للخروج. الذنب ذنبي.

فلتلوميني، فلتلوميني، فلتلوميني أرجوك.

أقول إنني المُلامة لأنني أنهيتك قبل أن تبدئي. لقد قتلت روحك، وأنت خاوية الآن. أنت شيء ملعون.

تقول الجزيرة إنني الملامة، لأنني لم أنجح إلى النهاية.

بغض النظر عن الحقيقة، أنا أستحق هذا وأكثر. أعطني المزيد، أستطيع أن أتحمل، أريده، أنا بحاجة إليه.

أغلق دفتري وآخذه إلى الحجرة المجاورة حيث لا تزال عينا «الشيء» تدمعان بفعل التغذية القوية.

«شكرًا لكِ على هذه الرسالة الجميلة أيتها الأم القذرة». أعرف فقط أن هذه الكلمة سيئة لأن رجال الجزيرة قالوها عني.

(قالوا لبعضهم: «ضع عضوك في فرجها القذر ونظفه جيدًا بعد ذلك». قالوها وهم يبصقون، دائمًا يبصقون)

أمسك يد «الشيء» اليسرى وأفصل بين بقايا أصابعها.

رغم جهودها

(الحرب المستمرة)

... إلا أن كل أصابعها موجودة بشكل أو آخر. لا يزال بمعظمها مفاصل الأصابع والبعض الآخر به القليل من اللحم المتآكل عند الأطراف. أضع يدها على حافة المرتبة. آخذ الدفتر، وأختار صفحة نظيفة من المنتصف وأمزقها بعناية. أمسكها بقوة بين يدي بحيث تكون حافتها حادة مثل النصل الناعم. أسحب الورقة بشكل منهجي فوق اللحم الرقيق الموجود بين كل إصبع من أصابع «الشيء». ينفتح كل

شق مثل الفم. يرتجف «الشيء» مع كل مرة أفعلها، لكنه لا يسحب يده بعيدًا عن هجومي البسيط الدقيق. وجهها لا يتغير، لكن لا يمكنني رؤيته بشكل واضح في لحظة القطع، حيث أحتاج إلى النظر إلى ما أفعله. يحبطني هذا. أريد أن أرى. تم الانتهاء من أربع تمريرات من الورق عبر الجلد الغشائي بيدها اليسرى. أقرر أن أحتفظ بيدها الأخرى سليمة. لكن ما زلت أرغب في إنهاء هذه اللعبة بشكل أكثر إرضاءً، وهي أن أجد طريقة لرؤيتها وهي تتعامل مع الألم! أذهب إلى المطبخ وأحضر زجاجة الخل وأضعه على يدي بكثرة. ثم أشاهد وجهها بافتتان خاوٍ.

(أنت خاوية الآن)

ترتجف وترتجف بينما أشبك يدي بيدها. تغلَق العينان دائمتا الحركة ويرتفع أنين «الشيء». أرسم ابتسامة على شفتي. ابتسامتي هي التوأم الشبق لابتسامتها المتواضعة.

20

وتبدأ الليالي الرائعة التي أقضيها في رعاية «رايتشيل» منذ ذلك الحين. تتسم الساعات التي أقضيها بعيدًا عن «الشيء» طريح الفراش وجدتي بحيوية مثيرة مقارنة برتابة حياتي في ذلك المنزل شبه المُحطَّم. أصل عادةً في الساعة الحادية عشرة تقريبًا، بمجرد أن أتأكد من أن جدتي نائمة.

أكوِّم الملابس تحت بطانيتي في حال قررت جدتي الاهتمام بي فجأة، وهو ما لم يحدث منذ سنوات. يحمل جدار المطبخ اللاهث ليلًا توسلات طفل كالعادة وأنا أتسلل أمامه. لا أكاد أسمع اللهاث الآن. أقطع المسافة بين بابي منزلي وباب منزل «رايتشيل» بسرعة، ولا أحد سوى الجزيرة يرى حماستي المتزايدة.

أفتح باب منزل «رايتشيل» وأدلف إلى الجو الهادئ المريح. تلقي المصابيح ضوءًا لطيفًا غالبًا ما ينساب على «رايتشيل» النائمة بالفعل على الأريكة، والرضيع تحتضنه بأمان ثنايا جسدها. في بعض الليالي يكون كلاهما تحت أغطية الفراش، متعبين للغاية. وفي بعض الليالي، تتجول «رايتشيل» على أطراف أصابعها، وتنتظر إلى أن تضع الطفل بين ذراعي وتطبع قبلة على خدي.

اعتدت هذا تقريبًا الآن، واعتدت الدفء الذي يتدفق إلى أخمص قدميَّ والذي تسببه هذه القبلات.

ثم تستلقي على الفراش، ووجهها إلى الأسفل في بعض الأحيان، وتضع وسادة على رأسها لتمنع وصول أي أصوات إليها قد يصدرها الرضيع من الآن وحتى موعد الرضاعة التالية.

كثيرًا ما أفقد شعوري بمرور الزمن وأنا واقفة أمام فراشها. تتحرك عيناي من قدميها المتسختين إلى ساقيها السمينتين الطريتين. أحتضن الرضيع بينما أميل إلى الأمام لأرفع ثوب النوم عنها. من المغري أن أضع يدي بين ساقيها أيضًا، ولكن سيكون من المستحيل تفسير فعلتي إن استيقظت. تبدو مقطوعة الرأس ورأسها

مُغطّى، وكأن رقبتها تنتهي قبل الوسادة. أفكر فيما يمكن فعله بها لو كانت مجرد جسد، وعيني على مؤخرتها تحت ثوب النوم. أستطيع أن أرمي الرضيع بعيدًا وأستلقي فوقها. أستطيع أن أفرك جسدي على جسدها بالكامل. يمكنني أن أضع يدي بين ثنايا جسدها وأحرك أصابعي بداخلها. لكن من دون رأس، لن تكون هناك المزيد من القبلات ولا الحليب.

أنتقل بعيدًا إلى المطبخ وغرفة الرسم عندما تتململ في فراشها. أبقي الطفل هادئًا قدر الإمكان بين رضعاته، لكنه دائمًا ما يصرخ بعد بضع ساعات. أدركت أنني لست بحاجة إلى إيقاظ «رايتشيل» بالكامل لإرضاعه بعد مرور الليالي القليلة الأولى.

أستمتع بتحريكها حتى تصبح نائمة على جانبها، وأضع الرضيع بحيث يلامس بطنه بطنها، ثم يلتقم حلمتها. أضغط على الحلمة لإخراج بعض الحليب لدفعه للرضاعة، وأثبت رأسه في مكانه.

أحيانًا تتحرك «رايتشيل» وتبتسم لي وهي نصف نائمة. إذا نظرت فقط إلى عينيها وشفتيها الرطبتين، أستطيع أن أتظاهر بأن الرضيع ليس بيننا. يمكنني التظاهر بأننا نحن الاثنتان فقط هنا.

أصبح فن «رايتشيل» يسير على ما يرام الآن بعد أن بدأت تحصل على مزيد من الراحة. اختفت لوحة الطفل العفنة خلف صف من الأعمال الأحدث. إنها لوحات رائعة للجزيرة كما لم أرها من قبل. تقطع عروق الماء الحجر الجيري المسطح وتتجمع في برك حبرية من اللونين الرمادي والصدئ. ينسكب شعر طويل عديم اللون من تلك الآبار الطبيعية ويشكل حبالًا مضفرة تمسك بها أيادٍ شاحبة بلا جسد. تُظهر لوحات أخرى الجدران الفضفاضة. تظهر إحدى اللوحات جدارًا بعيون صغيرة متقنة الرسم تنظر من خلال كل فجوة، الجدار يعج بالنظرات بالتأكيد. جدار آخر تقطر منه أيدٍ وأذرع شبيهة بالشمع.

نتحدث عن الفن. أطرح سؤالًا تلو الآخر وهي تجيب بصبر. إجاباتها موسعة ومدروسة. لم يسبق لي أن تلقيت أكثر من إجابات مختصرة عن أي شيء سألته لجدتي أو بابا، وبالكاد أستطيع استيعاب إجاباتها السخية.

أخبرتني أنها ترسم بالقلم الرصاص وبالألوان وأيضًا تمارس الحياكة. أخبرتني أن الرسم بالرصاص وبالألوان والحياكة هي مجرد أفعال، وأن ما يجعل شيئًا ما فنًا هو النية وراؤه. إذا كان القصد هو إيصال بعض المشاعر غير الملموسة أو الحقيقة صعبة المنال التي لا تستطيع الكلمات التعبير عنها، فهذا هو الفن.

أستمتع بكلماتها وينبض قلبي بالسعادة.

أخبرتني أنها تحب الجزيرة، ولكنها تتطلع إلى العودة إلى البر الرئيسي.

تخبرني أنها كانت ستضيع من دوني.

أخبرتني أنها لن تحتاجني في الليل بعد الآن قريبًا. أخبرتني أن الرضيع بدأ يستقر، وهي أيضًا. هذا غير ممكن.

أحتاج إلى إبقائهما في حالة من عدم الاستقرار. يجب أن ألا تستطيع الاستغناء عني.

أفكر في الأمر عند عودتي إلى المنزل صباحًا. تدور السيناريوهات في رأسي خلف النوافذ ذات القضبان الصخرية. أحاول التفكير في طريقة لجعل «رايتشيل» بحاجة إليّ، بينما أرفع «الشيء» طريح الفراش وأنظفه وأعتني به. أيضًا أسلي نفسي؛ أغلي وجبات عشاء «الشيء» طريح الفراش، وأوجه اللحوم والخضروات الشبيهة بالإسهال إلى أسفل رقبته. أحتفظ الآن بحفنات من الصخور الصغيرة في جيبي، وأضع بعضًا من شظايا الصخور هذه أيضًا بين الحين والآخر في الملعقة. لا تقاوم، فقط تحرك فكها لطحنها بقدر ما تستطيع قبل أن تبتلعها.

لاحظت باستمتاع كبير أن برازها مختلط بالدم بعد أيام قليلة من بدء إطعامها بالصخور. أنتشي وأنا أتخيل احتكاك الصخور بداخلها وطعنها لأعضائها. أنا أجعلها تتآكل من الداخل إلى الخارج. أنا هادئة وراضية عن نفسي.

(ما يجعل شيئًا ما فنًا هو النية وراؤه)

ومن خلال تجربتي مع «الشيء» طريح الفراش، توصلت إلى ما يجب أن أفعله كيلا تستطيع «رايتشيل» الاستغناء عني. يجب أن تخاف؛ يجب أن يمرض الرضيع. بدأت أحمل معي جرة زجاجية صغيرة إلى منزل «رايتشيل» ليلًا. أتوقف لفترة قصيرة عند الشاطئ المظلم لملء الجرة بمياه البحر ثم أضعها في حقيبتي. في البداية، كان من الصعب معرفة المقدار الذي سأطعمه له، وما الأداة التي سأستخدمها، لكنني أتقنت كل ذلك بسرعة. بمجرد أن آخذ الجسم الصغير الضعيف - يشع دفئًا من خلال ثوب نومه القطني - من «رايتشيل»، أرافقها إلى غرفة النوم حيث تشم رقبته للمرة الأخيرة قبل أن تنام، وتنبري قائلة: «يا له من جميل! شمّيه يا «إيبلين»، إنه كرغيف صغير من خبز طازج!».

تضغط أنفها على الحدود الناعمة المخملية حيث يلتقي صدغاه بالشعر الناعم وتقضم قمم أذنيه حيث يتوهج الضوء من خلال الجلد الشفاف، وتقول: «أضحك كثيرًا عندما أفكر في أنني أريد أن أقبّله وآكله في الوقت نفسه!».

أقول لنفسي إنني أفهم مشاعرها بسهولة، فعندما أنظر إلى الكتلة الجذابة من الجلد المجتمعة تحت ذقنها، أشعر أنني باستطاعتي أن آكل أي جزء منها.

عندما تتركه معي، أبدأ في إعطائه مياه البحر من الجرة. ليس لدى «رايتشيل» أي زجاجات لرضاعة الأطفال، لذا في البداية قمت بتجربة الأكواب والكؤوس ثم الملاعق، وكانت جميعها عديمة الفائدة، لأن الرضيع بصق السائل. ثم استخدمت يدي لا أكثر ولا أقل، في إحدى الليالي، من شدة إحباطي.

في بعض الأحيان، تكون أبسط الطرق هي الأفضل. الآن أسكب الماء في

وعاء كبير على المنضدة. أحمل الرضيع على ذراعي اليسرى، بينما يرتكز الجزء السفلي من جسده على السطح البلاستيكي، وتتدلى ساقاه أمامه، وجذعه مثبت في ثنية ذراعي اليسرى، وتمتد يدي اليسرى لأمسك رأسه من الفك وأفتح فمه المطاطي الصغير.

أضع يدي اليمنى في الوعاء، وكما هو الحال في لوحة «رايتشيل»، يتدفق الماء ليشكل بركة صغيرة.

أقبض على المياه بإحكام كي لا تتسرب، وأرفعها إلى فم الرضيع. يتدفق الماء عبر قناة صغيرة من خطوط يدي إلى فمه. أتصرف بسرعة في هذه الخطوة، فأوصل الماء ثم أضع يدي على فمه لأمنعه من بصقه. أضغط بشدة بينما يتشنج الجسد الصغير. أحفر أصابعي في وجهه. أشعر بالعظام الصغيرة والأوتار والأربطة في حنجرته.

أبدأ بإعطائه نصف جرة في الليلة وأراقب تأثيرها. إنه بالتأكيد أكثر غضبًا بحلول نهاية الليل، وتقول «رايتشيل» إن عدد حفاضاته المبللة أقل. أحتاج إلى اتباع منهج أكثر حدة، لذا أرفع الجرعة إلى جرة كاملة وعلى الفور تظهر نتيجة أفضل. إنه غاضب طوال اليوم و«رايتشيل» كذلك. يتغير شكله أيضًا، تغيير بسيط، ولكن الغرابة واضحة. تبدو عيناه غائرتين وبلا حياة. المنطقة الناعمة الصغيرة الموجودة أعلى رأسه تغوص للأسفل أيضًا، وكأنها بئر تُحفَر. أضغط عليها عندما تكون «رايتشيل» نائمة كمكافأة خاصة لي.

(رأس طري، غرغرة، ثم لا شيء)

أقلل من جرعة الماء كل بضعة أيام، فيتحسن. تطمئن «رايتشيل». تخبرني كم هي بحاجة إليّ، فأشعر بالسعادة. لكن لا يجب أن أرضى عن نفسي. يجب أن أستمر في ممارسة الضغط.

(رأس طري، ثم لا شيء)

أحضر حبلًا قديمًا شائكًا من المقبرة إلى منزل «رايتشيل» وأعلق نهايته بالحلقة الكبيرة فوق مقبض الباب الأمامي في إحدى الليالي، بعد أن أغادر منزلها، ثم أتجه إلى منزلي.

أستيقظ في اليوم التالي متذكرة ما فعلته. لقد فعلت ذلك وأنا نصف نائمة والآن أنا مضطربة، حتى أنني أفكر في إعادته إلى المكان الذي أخذته منه، لكنني أعلم أنه ربما فات الأوان للتراجع. ربما يجب عليّ أن أستغل الموقف لأمرح قليلًا.

(الجزيرة تتحدث عنك.

تراقبك منذ أن بدأت.

تقول إنني السبب فيم أنت عليه)

أواصل تنفيذ الخطة، مع التأكد من السماح لـ«رايتشيل» بالعثور على الحبل، وهو ما يحدث ذلك اليوم.

كانت «رايتشيل» ترضع الطفل وهي جالسة إلى الطاولة، وترسم الحبل الذي أصبح الآن ملفوفًا على الطاولة الكبيرة، عند وصولي إلى النوبة الليلية.

«ماذا فعلت؟» أسألها، وبالكاد أستطيع إخفاء البهجة التي اعتلت وجهي. «ماذا يفعل هذا الشيء هنا؟ إنه أثر رهيب. هذا فعل مريض يا «رايتشيل». لماذا تعبثين بالقبور؟».

«ماذا؟» صارت قلقة. تسألني: «عم تتحدثين؟». أجيب: «هذا حبل جدار القبر، هكذا يُدفَن موتى الجزيرة. لقد أخبرتك». وأشير إلى الحلقة الصغيرة المربوطة حيث ينتهي الحبل وأقول: «كان هذا لطفل، ربما لطفل بين الثانية والرابعة من العمر».

تتجمد «رايتشيل»، وتضع يدها على فمها. لا تبدو هي والرضيع على ما يرام على الإطلاق. لقد ضاعا في محيط لا يعرفانه حتى، وأنا موجة كثيفة تحوم

فوقهما.

«كيف يمكنك أخذ هذا من المقابر؟» تركت القليل من الغضب يتسرب إلى كلماتي.

(خاوية وغاضبة، هذا الخواء والغضب القابعان بداخلك، جاهزان للخروج)

يقبل الليل حول الكوخ وينعكس استجوابي لها على زوايا مختلفة في كل نافذة.

«لم آخذه يا «إيبلين»، أؤكد لك ذلك»، إنها على وشك البكاء. تستطرد: «لقد وجدته على مقبض الباب. لا بد أن أولاد الجزيرة قد عادوا».

«لا يا «رايتشيل»، لا يمكن لأحد أن يلمس شيئًا كهذا. مستحيل. يا لها من مشكلة! علينا إعادته».

«ولكن كيف وصل إلى هنا؟» تتحرك عينا «رايتشيل» من نافذة مظلمة إلى نافذة مظلمة، ثم إلى الرسم الذي رسمته للحبل.

«لا أعتقد أنك يجب أن تفكري في ذلك». هذه هي الحقيقة. لا أريد أن أفكر في الأمر أيضًا. أنا مندهشة لأنني فعلت هذا. ربما أنا أيضًا تحت تأثير قوة شديدة أخرى. هل هي قوة الصخرة الخطرة التي نقف عليها؟ ما الذي يمكن أن يدفعني إلى ذلك الموقع الفظيع لسحب هذا الشيء الشيطاني مرة أخرى من فوق الحافة؟

«ما هو بالضبط حبل جدار القبر يا «إيبلين»؟ لقد أخبرتني من قبل عن الجثث...».

أقول: «لا تفكري في ذلك. سأعتني بهذا الأمر»، بينما أشير بيدي إلى الحبل والرسم، وأستطرد: «وأنا في طريقي إلى المنزل. أنت بحاجة إلى الراحة. أنت متعبة جدًا». أربت على وجهها ثم أقودها إلى الفراش. خلال الساعات القليلة

التالية بين الرضعات، أغرف الماء المالح في فم الرضيع وأوقف صراخه بيدي ذات المفاصل البيضاء.

21

بقيت لفترة طويلة في منزل «رايتشيل» في الصباح الذي يسبق افتتاح المتحف. كانت الليلة مضطربة و«رايتشيل» و«شيماس» في حالة من عدم الاستقرار. عادة لا أبقى حتى الفجر لأن جدتي ستدرك أنني غير موجودة، لكن أصبحت أكثر جرأة مع مرور الأسابيع. لقد تعلمت بعض الأشياء. ماذا يمكن أن تفعل بي جدتي؟ لا شيء دون أن أرد الصاع صاعين.

«استحمي يا «رايتشيل» «، أقولها لها وأتجه نحو الأريكة، وأفصل الطفل عنها وأضعه على كتفي اليسرى، وبذراعي اليمنى أضع شرائح الخبز في المحمصة.

بينما تغتسل أحرك الزبدة المذابة في البيض على نار متوسطة، وعندما تظهر مرة أخرى في ثوب من الصوف النظيف وشعر مبلل مجدول، أتناول الإفطار على الطاولة. نجلس معًا كعائلة ونبتسم بنعاس لبعضنا بعضًا. تقضم البيض من على شوكتها، وتقول: «هذا رائع. شكرًا لكِ يا إيلز».

«كيف حالك اليوم؟» أصب الشاي، وأقدم لها كوبها بالحليب والسكر. يستمر الرضيع في النوم.

«بخير، أنا بخير. أتمنى فقط لو لم أكن متعبة جدًا هكذا. أشعر بالقلق أكثر عندما أكون متعبة».

«كل شيء سيسير بشكل رائع، وستبدو كل أعمالك جميلة جدًا». أحاول ألا أفكر في أن افتتاح المتحف وعرض أعمال «رايتشيل» يعني أنها ستغادر قريبًا. أفكر بدلًا من ذلك في اليوم الطويل المقبل. إنه يوم استحمام «الشيء» طريح الفراش، وقد أصبحت أنام أقل فأقل منذ أن لعبت دور الممرضة الليلية مع «رايتشيل» والرضيع. سيأتي بابا هنا الليلة ويجب تلميع الجثة اللعينة قبل وصوله. ألُف الإبر التي أخذتها من طاولة عمل «رايتشيل» بين أصابعي في جيبي. لديّ شيء مختلف في ذهني، فكرة جديدة.

(الحياكة مجرد فعل؛ ما يجعل شيئًا ما فنًا هو النية وراؤه)

أطوي بقية الخبز المحمص في فمي وأقف ببطء. أضع الطفل بعناية في منتصف السرير وأرفع البطانيات حوله. إنه يعاني الجفاف العام وجفاف البشرة، ولكنه شبه على ما يرام.

لقد أدركت ما هي الكمية المضبوطة لمياه البحر التي أعطيها له. إنها فقط الكمية المناسبة لإبقائه قابعًا على الخط الضيق بين المرض والصحة. «رايتشيل» تقلق إلى ما لا نهاية، ولكن هذا يُبقي الأمور على ما هي عليه. كل هذا يعني أنني لا غنى عني. أنا محبوبة. في كل مرة تذكر «رايتشيل» رحيلهما الوشيك، يتسرب الندم إلى ابتسامتها. ما زلت لم أقرر كيف أتأكد أنني سأرافقها بعد. أفكر في الأمر. ربما سيموت الرضيع وسأضطر إلى إعادة «رايتشيل» إلى البر الرئيسي ودعمها بينما تتعامل مع حزنها. قد يمرض الرضيع أكثر وتحتاجني معها لمواصلة المساعدة. السبب الصحيح سوف يأتي في وقته.

22

أعود إلى المنزل بعد الإفطار مع «رايتشيل»، وجدتي في حالة من الغضب الشديد.

تسألني: «أين كنت؟ تبدين غريبة».

أرد: «أنا لا أبدو غريبة». أكشف عن أسناني أمام وجهها، وأبتسم، فترتبك.

تقول: «عيناك...» في تردد.

أرد: «عيناي بخير». تتملكني الشجاعة اليوم. أوقن من أنني كل يوم أقترب أكثر فأكثر من نوع من الحل. لست متأكدة تمامًا من الأمر، ولكن التغيير قادم. لقد رأيت حياة أخرى الآن، وأعلم أنني لن أتعب من أجل أمي، «الشيء» طريح الفراش، أكثر من ذلك. كلما قرأت كلماتها المجنونة، شعرت بلامبالاة أكبر.

ألاحظ أن جدتي بعيدة عني.

رأيت أنها على حق في مرآة غرفتي القذرة: تبدو عيناي غريبتين. لقد نزف اللون الأسود الداكن منهما، الذي عادة ما يكون مجرد نقطة بالغة الصغر في وسط عيني، بحيث لم يتبقَ أي جزء من القزحية تقريبًا. أبدو مخدرة. أعلم أنها «رايتشيل» هي السبب. لقد تركتها تقتحمني. أقترب منها وأبتلع أنفاسها وهي تخرج من جسدها عندما تنام. أحمل الرضيع طوال الليل، الشيء الذي يحتوي على روحها بأكملها. إن كل سعادتها وأملها تحت سيطرتي. أنا إلههما. إله هادئ. إله محب.

(ذلك اليوم، تفعل الأيدي فعلتها)

الآن أعرف ماهية الرضيع. إنه استخراج لروح الأم بأكملها وتحريرها من جسدها، فتصبح خارجة عن إرادتها. إنه وجودها بالكامل وقد امتصته قطعة اللحم هذه، خليط من العظام الصغيرة والأعضاء الضعيفة. هذا هو الرضيع؛ جهاز

صغير لتعذيب أمه. قضمة من لحم الرضيع تنهش في الأم. اضرب هذا الشيء الصغير بالصخور، ثم ارمِه بعيدًا، وتنتهي الأم.

(حبل جدار القبر في سريري)

سأتبع طريقة إذا كنت أريد «رايتشيل» معي إلى الأبد. أذهب إلى «الشيء» طريح الفراش وأبتسم له ابتسامة كبيرة.

«أنت الشيء اللعين، كما تعلمين، وليس أنا»، أقول ذلك بوضوح. أستطرد: «ولكن سنجعلك جميلة لأجل بابا. سيأتي الليلة. لن يعرفك!».

«لقد كنت تأتين وتذهبين في الليل»، جدتي خلفي في الغرفة الآن.

أرد: «وماذا في ذلك؟ أنا أعتني بالعاهرة خلال النهار. هل ترين أي علامة على إهمالها؟».

ترد عليّ: «وماذا في ذلك؟ وماذا في ذلك؟ لا يمكنك رؤية أي شخص أيتها الحمقاء»، بينما تحاول استعادة بعض السيطرة.

«ولمَ لا؟» ألهث بينما أردد الكلمات، بينما أسحب قائم الفراش في وضع مستقيم وأربط الأشرطة حول أمي. أقول: «لمَ لا؟»، بأسلوب عدائي. جدتي كانت مستعدة لما سأقول، ولم ترتبك هذه المرة.

ترد: «لأن لا أحد يعرف شيئًا *عنها*، أمك، ولا يجب لأحد أن يعرف شيئًا عنها. وأنت... أنت لست على ما يرام. أنت مجرد خطأ. أنت تنقلين العدوى لتلك المرأة ورضيعها. أستطيع أن أرى أعراض ذلك عليهما. تمامًا كما أصبتنا بالعدوى»، ثم تبصق وتبصق وتبصق. تكمل: «سوف تتركيهما وشأنهما، إما سأحرص على أن يتركاكِ وشأنك. سأتأكد من أنهما سيهربان منك، وأنهما سيغلقان الباب في وجهك».

أحرك شفتيّ لأبتسم لها كما تعلمت. أقول: «لم يكن عليك أن تعلميني كيف

ألعب بشكل جيد»، فتحدق جدتي في وجهي.

تقول: «اعتقدنا أنه إذا لم تعرفي قط، فلن تتأثري، لكنني أرى الآن أنك تأثرت».

أقول: «إذن ماذا ستفعلين بي؟ ما فعلتموه بهذا «الشيء» المثير للشفقة؟»، وأشير إلى ذلك «الشيء» طريح الفراش، الجالس الآن على السرير ويصدر صريرًا ورأسه نحونا، وتعطينا الانطباع أنها تشارك في هذه المواجهة.

تبتسم جدتي بشكل مصطنع.

تقول: «أيتها الغبية، لقد فعلت هذا بنفسها»، تدور جدتي حول الفراش، وتلتقط الأطراف السوداء والجلد الخشن، وتلوح بيدها على جسدها القذر المتكتل.

تكمل: «كل ما فعلناه هو أننا حاولنا حمايتها، لكنها لن تتركنا نحميها. لقد فعلت كل هذا بنفسها».

(أجلس في حالة رعب. أنا لا أستحق الموت،

أنا أستحق أن أحيا. أبحث عن طرق جديدة للألم)

أظل ساكنة، رافضة أن أظهر ارتباكي الصارخ. لن أمنح جدتي الشعور بالرضا عندما ترى أنها أربكتني، وقلبت فهمي رأسًا على عقب لما حدث حولي لسنوات في هذا المنزل... فهمي لما شاركت فيه.

تستطرد جدتي قائلة: «ها ها، لكِ أن تعلمي...»، ويبدو عليها الاستمتاع، «لقد دمرتنا ذلك اليوم. لقد دمرت ابني. وبعد ذلك، وكأن هذا لم يكن كافيًا، فقد صارت ابتلاء لنا منذ ذلك الحين. كان لديها خيارات. كنا مستعدين للتظاهر، لكنها أرادت أن تكون شهيدة». تنتقل عينا جدتي إلى أمي وتقول بعنف: «الشهيد لا يُسقط من حوله معه». تكمل: «لقد حكمت علينا جميعًا أن نحيا نصف حياة أيتها الشيطانة، وقتلت ابنة أخرى»، وتشير جدتي إليّ. تفعل أمي شيئًا جديدًا وفظيعًا. عيناها تتحركان، وتنظران إليّ. إنها تحدق فيّ.

(الجزيرة تتحدث عنك.

تراقبك منذ أن بدأت.

تقول إنني السبب فيم أنت عليه)

تترنح جدتي إلى الوراء عند رؤية عينيها تتحركان، وتختنق صرخة في مؤخرة حلقها وتبدأ في البصق والبكاء. تتوسل إليها: «توقفي، توقفي، توقفي»، بينما تمسك برأسها. تصرخ في وجهي: «ابتعدي عنها»، وقد بدأت تهتم بي فجأة، وتكمل: «إنها شيء فظيع».

لا أتحرك. بالطبع لا أتحرك. أنا مذهولة. والدتي تنظر إليّ. تنظر إليّ أمي اليوم، ولأول مرة. يميل رأسه ببطء، قليلًا إلى اليمين، وكذلك رأسي، كما لو كنا نتبادل مزحة.

«لا بد لي من الاستمرار في تجهيزها يا جدتي. سيأتي بابا قريبًا».

جدتي هادئة، ولا تزال واقفة عند الباب. إنها تبدو مثل الجزيرة بعد عاصفة، كيانها انقلب رأسًا على عقب وخاوية.

لا تنظر جدتي إليّ، وتقول: «لقد فعلنا كل ما كان بيدنا»، ثم تستطرد: «لن أذهب إلى المتحف اليوم. إنهم جاهزون للافتتاح. أنا بحاجة إلى...».

وتتخلى عن كلماتها. تبدو أكبر سنًا من الأرض فجأة. تصبح رمادية اللون ومنهكة بسبب التغيير المفاجئ في مسار الأحداث بالمنزل. «يجب أن أستلقي». تتراجع إلى الخلف، وتبقيني وأمي في مجال بصرها حتى تتجاوز إطار الباب.

أعود إلى وظيفتي الأولى في اليوم؛ أن أحممها.

أرفع وأسحب وأرفع وأغمرها بالمياه. تظل عيناها عليّ. أقوم بتجربة بينما أحممها. أضع أصابعي على وجهها وأدفعها برفق إلى أسفل السطح. عيناها لا تتحركان حتى عندما تندفع المياه فوقهما. تنظر إليّ من خلال ماء الاستحمام

الضبابي. الفقاعات التي تخرج من أنفها وفمها هما العلامة الوحيدة على أنها حية، ثم يتوقفان.

أذكر أغنية تغنيها «رايتشيل» لرضيعها، أي الشيء الخاص بها الذي لا حول له ولا قوة.

(يا حبيب قلبي، عندما تكون بعيدًا عن البيت، ستغادر قريبًا ...)

ينتفض جسد أمي ثلاث مرات. لماذا يتشابه الموت والنشوة بشدة؟ أخرجتها من الماء من رقبتها. عيناها ساكنتان لكنها تتنفس. ألقي نظرة خاطفة على قروحها الحالية، ولكن في الحقيقة ليست هناك أي فائدة في هذه المرحلة، أليس كذلك؟

أضعها على مقعدها وأثبت فستانها في مكانه عندما أعود بها إلى غرفة النوم، فستانها الأحمر الداكن.

أقول لها: «سوف أعتني بك بشكل أفضل اليوم. سينبهر بكِ كثيرًا هذه المرة». أنا سعيدة جدًا بخطتي، وأخرج أدوات التنفيذ من جيبي. لطالما أنكر بابا حقيقة هذا «الشيء»، فأنا متأكدة من أنه لن يلاحظ أي شيء جديد عليها باستثناء مدى جمالها بعد أن لمّعتها له. سأقوم بتجديد هذا «الشيء» الميت الليلة كما هو الحال دائمًا، وسأصلح وجهها المُدمّر. لطالما اجتمعنا حولها، نقدم لها خدمات لا تنتهي. هذه هي نهاية تسعة عشر عامًا من الخدمة.

لا يهم أن بابا سيتجاهل جهودي. يخدع نفسه دائمًا. إنها جدتي التي أصنع هذا المشهد المروع من أجلها. يجب أن أبقي جدتي قلقة وخائفة حتى يتم كل هذا. لا أريدها أن تتحدث إلى «رايتشيل» أو تأتي لها فكرة تمنعني عنها.

«لديَّ فكرة رائعة» هكذا أقول لـ«الشيء» طريح الفراش. أمي. أسحب المزلاج الموجود على ظهر المقعد حتى يستقر رأسها إلى الخلف. يداها تتدليان أمام المقعد. أجمعهما في حِجرها وأحبك الأصابع لأصنع منها مهدًا لأدواتي التي أرتبها

على راحتيها، إنها ستة إبر كل منها مقاس بوصة واحدة سأستخدمها لمشروعي الصغير.

أنحني أمام وجهها، وبعناية فائقة، أدفع الإبر ببطء إلى داخل خديها، ثلاثة على الجانب الأيسر واثنتين على الجانب الأيمن، لا يوجد سوى لحم يكفي لاثنين على هذا الجانب مع كل الضرر الذي لحق بجسدها لسنين. أتأكد من أن كل طرف من طرفي الإبرة مدفون في أنسجة وجهها، بحيث يكون غير مرئي. ثم أعيد تثبيت الجزء الخلفي من الكرسي بحيث يستقيم رأسها. يتطلب الأمر القليل من التخطيط قبل أن تدخل الإبر بالكامل بين أسنان فكها العلوي وفكها السفلي.

لقد انتهيت. آخذ خطوة إلى الخلف وأنظر إليها بإعجاب. تبتسم مرة أخرى. لا تتوقف عن الابتسام الآن.

قلت لها: «جميلة جدًا. أخشى أنكِ لن تستطيعي تناول الطعام، لكن الأهم هو أن تبدي جميلة لجدتي وبابا».

أدفع مقعدها إلى المطبخ وأضعها أمام الطاولة بينما أبدأ في إعداد العشاء. فمها مفتوح الآن في شكل ابتسامة واسعة، ابتسامة فظيعة، بشعة، وتلك الابتسامة موجهة إليّ. يلهث الجدار إعجابًا بعملي أيضًا، فأرد عليه قائلة: «شكرًا لك»، وأومئ له بينما أقشر الخضروات وأقطع اللحم وأطبخه حتى يتحول إلى اللون البني. يخنة لحم الضأن جاهزة وستظل على نار هادئة حتى يصل بابا.

«ها أنت ذا»، يلقي عليّ التحية، أنا طفلته اللعينة. يخاطب أمي بالأيرلندية قائلًا: «وها أنت ذا»، بينما يمسك يدها مرتبكًا. يكمل: «تبدين على ما يرام يا حبيبتي». يقبل الباروكة ثم يعتدل ويسألني: «أين جدتي؟».

«في سريرها على ما أعتقد. أخبرها أن العشاء جاهز».

يذهب إلى الممر ويدخل إلى والدته. أنسل خلفه لأسترق السمع عند الباب.

يقول: «تبدو «إيف» على ما يرام»، فبابا لا يشكو أبدًا. لا يجرؤ أن يشكو، لأنه يستطيع الهروب من هذا المنزل الشبيه بالقبر.

تجيب جدتي قائلة: «الأمور تتغير مع هذه الطفلة. تأتيها الكثير من الأفكار. إنها تصبح مثلها، مثل «إيف». أستطيع أن أرى النظرة ذاتها في عينيها، تمامًا كما حدث مع «إيف». إنهما ليستا مثلنا؛ لا تستطيعان العيش هنا. الجزيرة اقتحمت رأسيهما».

يرد بابا قائلًا: «أماه...» ثم يستطرد مهدئًا من روعها: «هذه إشاعات حول الجزيرة. بالتأكيد كانت «إيف» مريضة...».

يرتفع صوت جدتي وترد: «نعم، لقد مرضت بسبب تلك الطفلة، والآن تلك الطفلة تسحب الحياة من أم أخرى. امرأة شابة في الجزيرة. إنها في محنة هي وطفلها، والآن اكتشفت أن هذه الشيطانة تزورهما. إن التاريخ يعيد نفسه. تلك الشابة المسكينة تعتقد أنها فتاة بسيطة تريد مساعدتها. نحن نعلم أنها لا ينبغي أن تكون بالقرب من رضيع».

«هذا غير حقيقي، كل هذا غير حقيقي، هذا أمر مختلف تمامًا. نحن نعلم أننا ارتكبنا أخطاء مع «إيبلين». لم يكن علينا أن نبقيها هنا. كانت نشأتها غريبة، وهذا خطأ ارتكبناه. لكنها لم تكن سليمة بشكل كافٍ للذهاب بها إلى أي مكان آخر أيضًا، كلانا يعرف ذلك. لقد وجدت مَن تتحدث معها وهذا أمر طيب، وجدت شخصًا لا يعتقد أنها... مسؤولة».

«حان الوقت لإخبارها». كان صوتها صارمًا، أما هو فكان في حالة من الإنكار.

أشعر بالملل. لقد سئمتهما. وهكذا عدت إلى «الشيء» طريح الفراش: أمي، أمي.

(وقع كلمة الندم خفيف ولا يصف ما أشعر به. أجلس في حالة رعب)

أغني لها: «أنت تجلسين في حالة رعب، ولذا علينا جميعًا أن نجلس في حالة من الرعب الذي تسببينه أيضًا».

تأتي جدتي وبابا، فأدير أمي لتحييهما.

أقول: «انظرا مَن هنا».

تترنح جدتي في رعب عندما ترى «الشيء» طريح الفراش الشبق المبتسم. بابا يهز رأسه فقط. لا يستطيع رؤية «الشيء» على حقيقته، فقط يرى المرأة التي كانت.

العشاء غير شهي في وجود الفم الفاغر، لكنني أجبر نفسي على ابتلاع الطعام، وكذلك بابا. تظل جدتي منتبهة وهادئة جدًا، لكني أستطيع أن أرى الخطط التي تفكر فيها في عينيها. إنها لن تتركني سعيدة.

أحضر «الشيء» طريح الفراش إلى غرفة المعيشة بعد العشاء ليجلس معه بابا ويلعب لعبة التظاهر. التفت للمغادرة لكنه يوقفني.

«أنتِ لا تفهمين جدتي، إنها خائفة، لقد شهدت الكثير من الأحداث السيئة. وهي لم تغادر الجزيرة قط، ولا حتى مرة واحدة. الجزيرة تسطير على عقول الناس، وقد وصل الأمر إلى عقل أمك. إنه خطئي أنني أحضرتها إلى هنا، أو خطئي أننا أنجبنا الأطفال. لم تستطِع التعامل معك».

أنظر إليه، حتى عينا «الشيء» طريح الفراش ترتفعان إليه. أسأل: «أطفال؟».

«نعم، أطفال» يكرر ويتنهد. يستطرد: «كانت لديكِ أخت. سميناها «إيتان»، لكنها لم تعش».

(لا تعيش)

أود أن أسخر منه ومن «لم تعش» التي قالها. إنه يتهرب دائمًا من الكلمات. يخشى أن يقول الحقيقة.

أسأله: «هل ماتت؟».

قال: «نعم»، والتقط يدي «الشيء» طريح الفراش، الذي خفض رأسه وعادت عيناه للحركة السريعة يمينًا ويسارًا. استطرد: «غرقت «إيتان» وألقت أمك باللوم على نفسها. لكن ذلك لم يكن خطأها. لم تكن على ما يرام».

(أيها «الشيء» اللعين، تقول الجزيرة إنني الملامة، لأنني لم أنجح وأصل إلى النهاية)

يكمل: «لقد وصلت إلى هناك، ولكن ليس في الوقت المناسب لإنقاذكما»، ترك يدها ووقف، ثم استطرد: «لقد كتبت أفكارها بعد ولادتك، ومن الواضح أنها كانت مريضة». ذهب إلى المكتب وفتح الدرج العلوي. درج فتحته عدة مرات. يمرر يديه على أسفل الدرج ويلتقط مظروفًا. يعود ويسلمه لي.

يقول: «لقد مر وقت طويل منذ أن قرأته. لا أريد رؤيته. يمكنك أن تقرئيه بنفسك».

أسأله: «كم كان عمر «إيتان» عندما ماتت؟».

يرد: «كان عمركما ستة أسابيع وثلاثة أيام. لقد كانت توأمك».

أتخيل لوهلة حياة مختلفة في هذا المنزل، حياة بها أخت في عمري، وأم في المطبخ وبابا على متن القوارب، حياة تنظر فيها جدتي إليّ، حياة ينادونني فيها باسمي، حياة لا يبصق فيها رجال الجزيرة عليّ، ولا توجد فيها رائحة حساء كريه أو حفاضات مبتلة.

لا يتجاوز عمر رضيع «رايتشيل» ستة أسابيع. إنه بلا حول ولا قوة. يدان صغيرتان بأصابع ملتوية بنعومة. إنه هش، فلأرميه، هذا سهل.

«هل كانت تقصد قتلنا على حد سواء؟»

احتد قائلًا: «هي لم تقتلها، هي فقط... لم تتدخل. كان يومًا جميلًا، صباحًا مثاليًا في يوليو. استيقظت «إيف» مع شروق الشمس. كانت دائمًا قلقة في هذا الوقت ومتهورة ومضطربة. تظل مستيقظة طوال الليل مع الرضيعتين ثم لا تستطيع النوم من شدة التعب. قالت أشياء غريبة وطرحت أسئلة غريبة حينها. سألتني إذا كنت أعتقد أن الرضيعتين بخير. طوال الوقت كانت تسألني: «هل تعتقد أنهما على يرام؟»، أو «هل تعتقد أنهما تحبانني؟» أدركت الآن أنها كانت خائفة جدًا».

أومأ برأسه نحو الظرف في يدي قائلًا: «الرسالة تشرح الكثير، ولكن بعد فوات الأوان. اعتقدت أنها أخذتكما في نزهة على الأقدام، وهو ما كانت تفعله طوال الوقت. لم أعتقد أن هناك أي مشكلة حتى ذهبت إلى غرفة الأطفال، غرفتك الآن. السرير الذي كنتما تنامان فيه كان مهشمًا. خرجت للبحث عنها، كنت خائفًا. كانت الشمس مشرقة جدًا، واليوم هادئًا جدًا، ولكن لسبب ما اعتقدت أنني أستطيع سماع بكاء الأطفال من كل مكان حولي. كان يهب البكاء كالرياح من خلال الجدران. قادني إلى تلك الطرق المحفورة التي لا تؤدي إلى أي مكان. لو لم أكن بعيدًا عنها هكذا...»، ثم هزَّ رأسه بقوة. لا حول له ولا قوة حتى الآن كما كان في ذلك اليوم. استطرد: «وأخيرًا، ركضت إلى الشاطئ الرملي الداكن ورأيتها. شعرت بالارتياح الشديد حتى أنني توقفت لالتقاط أنفاسي. ناديتها بينما مشيت في اتجاهها. حينها أدركت المشهد. كانت «إيف» جالسة على الرمال تراقب الأمواج. هناك شيئان صغيران ملقيان أمامها على مسافة بعيدة، حيث يلتقي الماء الرمال. اعتقدت أنها كانت أخشابًا طافية. ثم عرفت ما هي، وانهار العالم حولي».

يبتسم «الشيء» طريح الفراش طوال عملية إعادة السرد، بينما تتسرب دموع بابا البائسة على خديه. يلتفت إليها ويقول: «لا نلومك يا «إيف»، لا نلومك». يمسك بيديها وكأنها ستنقذه. يكرر: «لم تكوني على ما يرام. نحن لا نلومك».

(ألا نلومك؟)

تنتقل نظرته من جانبي إلى بابي النافذة، ويعود بذاكرته إلى اليوم الصافي الهادئ والأشياء الصغيرة التي تتمايل وسط الأمواج. يقول: «سمعت البكاء فركضت وركضت وظللت أصرخ وأصرخ. صرخت بها لكنها لم تستدِر ولم تتحرك. ابتعد أطفالي الصغار عن الأرض وبدآ في التدحرج بين الأمواج، وظلت هي تشاهد فقط. شاهدت الماء وهو يبتلع طفلتينا. دفعهما الماء نحوها ثم سحبهما بعيدًا. وعندها توقف البكاء تدريجيًا. كم كان مشهدًا بالغ القسوة. ليتها فقط مدّت يدها لتمسك بكما».

أكمل قائلًا: «صرخت فيها: «إيفِ، أرجوك!»، حتى وصلت أخيرًا إلى الرمال وألقيت بنفسي في البحر لمحاولة الإمساك بكما. حملتك بين ذراعي، لكن «إيتان» استمرت في الانزلاق من يدي، فغرقت وسحبتها الأمواج بعيدًا. لم أستطع أن أجدها وأنت بين ذراعي، فركضت وأعدتك إلى الشاطئ وعدت للبحث عن «إيتان». لم تتحرك «إيف» طوال الوقت». حدّق في الأرض بين حذائيه، ويداه تتدليان الآن بين ركبتيه وأشعر ببعض الشفقة عليه.

كيف لا يزال يستيقظ ويرتدي حذاءه كل يوم؟ كيف يأكل؟ كيف يستخدم هاتان الذراعان في أشياء دنيوية غبية، هاتان الذراعان اللتان فقدتا طفلته؟

«لم أجد «إيتان» قط، بحثت عنها لساعات. وجدتنا جدتي بعد فترة. احتَضَنتك وتوسلت إليّ للعودة إلى المنزل، لكنها لم تستطع إخراجي من الماء. لم أستطع الخروج من البحر من دون طفلتي. لم أستطع تركها في المحيط. جلست «إيف» في مكانها طوال الوقت. خرجت أخيرًا من الماء ولم تمر عليّ لحظة طيبة في حياتي منذ ذلك الحين. لم أشعر أنني بخير قط منذ ذلك اليوم. لا أذكر كيف هذا الشعور الذي يشعر به الناس وهم يستيقظون دون ثقل الغياب الرهيب».

يكمل: «لم يعرف أحد في الجزيرة القصة الكاملة على الإطلاق. تركناهم يعتقدون أن «إيف» ماتت مع الطفلة. لم نظن أنهم سيحملونك المسؤولية، لكنهم غرباء الأطوار، يؤمنون بالخرافات».

يهز رأسه بعجز مثير للشفقة. «يبدو أن «إيف» أدركت ما حدث في النهاية، وجن جنونها. لقد أرادت منا أن نسلّمها للشرطة، وعندما رفضنا، بدأ ذلك»، وأشار إلى «الشيء» طريح الفراش.

أقول: «من الرائع أن تجعل شعورها بالذنب مسؤوليتنا جميعًا».

رد قائلًا: «لا تقولي هذا يا «إيبلين»، لقد كانت جميلة جدًا ومحبة للناس للغاية». إنه لا ينظر إليّ حتى، بل يأخذ يديها مرة أخرى ويقول: «إنها لا تستحق هذا. ظللنا نضعك على صدرها لترضعك. لقد أعطتك ما في وسعها».

أشعر بالغضب الشديد، وتتبخر شفقتي القليلة. أنا أكرهه. إنه ضعيف جدًا وغبي. أتوق للهجوم على محبوبه طريح الفراش أمامه مباشرة. أتوق لإيذائه.

آخذ المظروف من يديه عديمتي الفائدة بدلًا من ذلك.

23

كَتَبَت:

لِمَ تطلَّعت إلى الإنجاب؟ كنت أرى جاراتي في باليجانجرا في طفولتي يمشون الهوينا بسبب بطونهن الضخمة، ولم أستطع الانتظار. أنجبت أمهات جميع أصدقائي الصغار في المدرسة أطفالًا بانتظام. تناثر الأطفال كالقمامة حول المنازل الصاخبة التي كنت أزورها بعد المدرسة. حملنا الأطفال في أحضاننا الصغيرة وكانوا رائعي الجمال. وبعد مرور عام، يسمنون ويثقل وزنهم للغاية، حتى يشعروا وكأنهم عمالقة سيئو الحظ بين أذرعنا الرفيعة. وبحلول هذا الوقت من حياة الطفل، تبدأ الأم في مشي الهوينا ثانية. كانت الأمهات يمسكن البطون بأيديهن طوال الوقت، وكأنهن يقدمن أطفالهن لنا جميعًا.

لم أرَ قط أجساد النساء. أنتج هؤلاء البشر الجدد وهم مختبئون بالكامل تحت طبقات من الفساتين والتنانير والمعاطف المعطرة بالورد. ظننت أن الأطفال الصغار يُزرعون في وسائد ناعمة ونظيفة محشوة بالأقمشة. ينسجون في أسرّة أمهاتهم. يولدون ناعمين ومغطين بالشعر وملفوفين بالأغطية بالفعل؛ يولدون آمنين ونُظفاء. يظهرون في عالمنا بشكل لطيف وآمن كي يدخلوا بين أذرعنا التي تتوق إليهم. اعتقدت أن الخصلات الدقيقة من شعر الأطفال كانت دليلًا على كيفية خلقهم، ظننت أنها كانت الأطراف الباقية والمقصوصة من النول. بدت النساء هزيلات، لكن حنونات ومرحبات بأن نأخذ الأطفال ونشمهم ونلمس ملامحهم المنمنمة.

لم يشهد أي رجال أو أطفال وصول الرُّضَّع إلى العالم، ولم يلفت وصولهم انتباه النساء الأخريات في البلدة، باستثناء أن تتنهد بعضهن أو يجفلن وهن لدى محل الجزار. ظننت أن هذا منطقي، لأن هذا حدث غير مزعج، مثل إخراج دمية طفل صغير من تحت ثنيات ثوب قطني.

لم تقدّم أمي أي أطفال لنا. لم يكن الأطفال ذوي الوجنات الوردية والأجساد الممتلئة متناثرين حول منزلنا. لقد كان مكانًا هادئًا جدًا. فضّلت أن أقضي وقتي في منازل الجيران حيث تدور الحياة بوتيرة مطمئنة وكان هناك أناس في كل مكان. عندما سألت أين أطفالنا، كان والدي يهز رأسه فقط. علمت أن إنجاب الأطفال لم يكن سهلًا على ماما.

كان منزلي هادئًا جدًا، والممرات والغرف مهجورة دائمًا. كانت ماما تبقى في غرفتها حتى عودة بابا في المساء. يغادر قبل أن أستيقظ ويقضي أطول فترة ممكنة بعيدًا عن المنزل. تنزل ماما إلى المطبخ وتعد العشاء قبل ظهوره، ونأكل في هدوء، ثم تشرد ثانية. كانت لطيفة دائمًا، ولكنها بعيدة عنا جدًا، حتى أنها كانت شاردة وهي جالسة بجوارنا. ماتت عندما كنت في العاشرة من عمري بسبب سرطان الدماغ. بكيت لأن غيابها آلمني على الرغم من بُعدها. لقد ترك غيابها خواء بداخلي، بئر من الألم أشعر بها يوميًا، بئر كان عليّ أن أتعامل معها بحذر حتى لا أفقد نفسي فيها. مشّطت المنزل بحثًا عن آثار لرائحتها، لكن كان وجودها ضعيف الأثر، لدرجة عدم بقاء شيء منها في أي مكان. لم تكتب ملاحظات أو مذكّرات. لم يكن لديها أي ممتلكات تقريبًا، ولم يكن لديها أصدقاء يذكرونها لي.

وقعت في حب فتى الجزيرة في مراهقتي. كان كائنًا جميلًا. توفي والده في البحر قبل سنوات، لذلك أتينا إلى الجزيرة بعد سنوات كي نعيش مع والدته. حاول والدي أن يتحدث معي عن الإنجاب يوم الزفاف، لكنه لم يستطع التعبير عن نفسه بشكل صحيح. قال إنه لا يظن أن الإنجاب يناسبني، وإن هناك طرقًا يمكن للمرأة أن تتبعها كي لا تحمل. قبّلته وأخبرته أنني سأعود، لكنني لم أعُد قط. وصلت الجزيرة وانتهى الأمر.

بدأتِ بداخلي في نهاية شهر أكتوبر تقريبًا، وأحسست بمشاعر سيئة؛ أعضائي تُجذب وتُسحب من الداخل، جاءني الغثيان واشتعل الألم. شيء ما، أنتِ، كان

يلتف حول أسفل بطني، ويتحرك بداخلي كالأسلاك الشائكة.

كنت أبكي وجسدي متقلص على الفراش وأقول: «لا بد أن هناك مشكلة، أتألم بشدة».

رد الجميع: «لا، إنها آلام تمدد البطن. كلها طبيعية».

أجبر إنكارهم مخاوفي على الاختفاء مؤقتًا. مرّت الأشهر وكبر الشيء بداخلي. لا يُقارن كل هذا بظهور الأطفال الرضع الناعمين بتلك الطريقة الدافئة والمريحة التي ظننتها في الحمل. كان هذا شيئًا يزحف في أعماقي. كان ينمو ليملأني أكثر فأكثر كل يوم. تمددت بشرة بطني وثدييّ، لدرجة أن الخطوط الشبيهة بشقوق الأرض، التي برزت من تمدد الجلد، بدأت في الابتعاد أكثر فأكثر عن المكان الذي رقد فيه هذا الوحش الأشبه بدمل. استلقيت بلا حراك لأيام وأيام. حاصرني الورم، وخفت من التحرك كيلا ينشق جسدي وينزلق منه هذا الشيء غير المرئي. ثم توقف النمو أخيرًا، بعدما شوهني بالفعل. شعرت بأطراف غريبة تصل إلى حلقي وتستقر فيه. ضغطت السيقان على قفصي الصدري. شعرت وكأنني ابتلعت خليطًا من العظام.

ثم بدأ الشيء يتحرك، وبدأ ذهني يتغير وينجذب لأشياء بشعة.

كان جلد البطن المنتفخ مشدودًا للغاية لدرجة أنه بالكاد يحتوي الحيوان البغيض الذي أصروا أنه طفل. كانوا يستمتعون بانزلاقه وزحفه تحت سطح البطن. مرر فتى الجزيرة السعيد يديه على الجسم الخشن الذي كان يتحرك تحت الجلد الرقيق. أصابني الرعب عندما رأيته وهو يربت على الوحش الموجود تحت البطن. بدا وكأنه رجل مجنون يداعب جثة طفله العفنة دون أن يدرك أنه مات.

أمضيت كل ساعة في حالة من الرعب. أفكاري لم تبدُ وكأنها أفكاري. قدمت الأفكار الغريبة نفسها كما لو كانت هذه بيئتها الطبيعية. اقتليه. اقتلي نفسك.

استنزفني هلع ليس فيه هوادة. أردت أن أستأصل الطفل المرعب، لكن ساورتني الشكوك إلى ما لا نهاية. المشكلة ليست في الطفل. أنا بخير، الطفل بخير. لكنني لست بخير، الطفل ليس بخير. هل أنا لست بخير؟ هذا كله في رأسي. هذا كله في رأسي. هذا كله في رأسي.

يبتسم فتى الجزيرة قائلًا: «هذا كله في رأسك». ترجوني أمه أن أصدقها وهي تقول: «هذا كله في رأسك».

تقول الجزيرة ساخرة: «هذا كله في رأسك».

صارت أفكار الجزيرة هي أفكاري. إنها تزحف وتعشش بين ذكرياتي عن حياتي القديمة وأحلامي لحياتي الجديدة.

انظري ماذا فعلت. أنت شيء منحرف، أنت غير لائقة. انظري إلى ما يتعفن في بطنك. أنت غير لائقة.

ولكن تذكري أن هذا كله في رأسك.

قيدتني الجزيرة. حوصرت تحت وطأة يقينها. لم أكن لائقة. انظروا إلى ما يمنحه جسدي الحياة: شيء غير طبيعي. أي طفل يستطيع أن يسيطر على جسد بشكل كامل هكذا؟ لقد كان وحشًا جاثمًا في تجويف بطني، وحش يتحرك فيها، كان هذا يقيني. ظللت أثرثر: «كل هذا خطأ. كل هذا خطأ».

كنت أصرخ أحيانًا قائلة: «إنه بداخلي». لم أكن أعلم أن هناك صرخة قادمة عندما أبدأ في الكلام. فاجأت صرخاتي فتى الجزيرة وأمه، ثم أخافتهما. لقد كنت في حالة من انعدام التوازن الشديد، فصار تمكني من الذهاب إلى المرحاض أو تناول لقمة من الطعام دون وقوع أي حادث أمرًا جللًا. أدركت أنني قد انقسمت. مضى جزء مني في حياته كالمعتاد، يمشي إلى المتجر ويبتسم لسكان الجزيرة ويعد الطاولة لوجباتنا. لكن في الليل، كانت الأفكار تدفعني بعيدًا عن الفراش وإلى الطرق والممرات المحفورة في الجزيرة. رافقني الوحش في كل مكان

بالطبع. لقد بنى عشه في داخلي، حيث رأى كل تحركاتي وعرف أفكاري. ربما كان الوحش هو أفكاري، هذا المستعمر. ربما تمدد للأعلى حتى وصل خلف عيني، حيث أنتهي.

هل أطاح بي بالكامل؟

همست لي الجزيرة بالعلاجات، بالاقتراحات، بالحلول. لقد تصاعدت كالبخار من صخور ومياه هذا المكان الرهيب.

انهي الأمر، انهي نفسك. بدا الحل واضحًا جدًا، ولا مفر منه إطلاقًا. كيف لم أرَ أن هذا هو سبب وصولي إلى هذا المكان؟ كي أموت.

قلت لهم: «تقول الجزيرة إن هذا هو المكان الذي سأنتهي فيه». حاولت أن أقولها بهدوء لكنها خرجت على شكل صرخة. هبت رياح القلق الباردة من وجه فتى الجزيرة إلى وجه الأم.

بدآ قضاء الليل في مراقبتي حتى لا أتمكن من المغادرة. كانا ينشطان في الصباح في المطبخ لإعداد الشاي والنقانق. صنع فتى الجزيرة سريرًا كبيرًا قويًا للأطفال. شاهدت كل ذلك، وكان الرعب يتدفق من عيني وأذني ويخرج من خلال أسناني المطبقة. كنت أرى تلك الأشياء البشعة ترقد عند فتى الجزيرة المستلقي بجانبي على السرير ليلًا.

وفي إحدى الليالي، حاول جسدي أخيرًا طرد الشيء الوحشي. كانت معركة مروعة، لكنهم في النهاية سحبوه مني وهو يصرخ.

رأيت أن الوحش قد انقسم إلى اثنين. ماكر جدًا.

خرجت مني أعضائي ودمي وأحشائي. كان هناك درب من اللحم يؤدي إلى مهد كل هذا الرعب، إلى الرحم الذي كان يسكن فيه الشيء طوال هذا الوقت.

قال فتى الجزيرة: «إنهما جميلتان جدًا».

24

أتباهى بعائلتي الجديدة عند افتتاح المتحف في اليوم التالي أمام بابا وجدتي. أحمل رضيع «رايتشيل» في أرجاء الغرفة الكبيرة حيث عُلّقت لوحات «رايتشيل» ومنحوتاتها، ولا يقترب مني أحد. يعمل الرضيع عمل الدرع. ينظر سكان الجزيرة غير مصدقين أن العاهرة الحمقاء من البر الرئيسي سمحت لي بلمس طفلها، لكنهم لا يتدخلون. لا يهتمون ما دمت بعيدة عنهم.

إنهم أنانيون للغاية. يتجولون في المساحة، مستمتعين بالأوصاف الجادة لـ«حياة الجزيرة القديمة» المكتوبة على بطاقات صغيرة ملصوقة بالفوم ومعلقة في جميع أنحاء الغرفة، بجوار صور مكبّرة للقوارب وسكان الجزيرة وهم يرتدون سترات وفساتين صوفية سميكة، تلك الملابس التي كانت تُصنع يدويًا في هذه الغرفة تحديدًا.

جمعت «رايتشيل» أشياءها استعدادًا للرحيل. أخبرتني عندما وصلت أن أرافقها و«شيماس» إلى المصنع من أجل الافتتاح. كان الأمر مفاجئًا، فقد ظننت أن لدينا المزيد من الوقت، ولكنها اتفقت مع موظفي المتحف أنها ستغادر الجزيرة الآن بعد أن انتهت من أعمالها في إقامتها الفنية ومع افتتاح المعرض، نظرًا لأن طفلها «شيماس» ليس على ما يرام هنا. لقد أخبرتها أنني يمكنني أن أوصل أعمالها إليها عندما يلزم فكُّها بعد انتهاء المعرض، ولكن ليست لديّ أي نية للقيام بذلك. أنا ذاهبة معها. ما زلت غير متأكدة كيف سأحقق ذلك، لكني سأفعل.

أفكر في أمي وهي جالسة على الشاطئ في ذلك اليوم، تراقب البحر. إن هذا النوع من الشر السلبي لن ينجح في حل هذه المشكلة الحالية، مع أنه يعجبني. لقد كان بالتأكيد حلًا أنيقًا (وإن لم يكن ناجحًا تمامًا) للخبث الذي ظننته في وفي أختي.

أنا متأكدة من أن أي حقد بداخلي قد تم زرعه في ذلك اليوم وبالتأكيد ليس

قبل ذلك بلحظة. لقد جعلتني كما أنا اليوم أيتها الأم.

أخفيت ابتسامتي الساخرة في مؤخرة رأس الرضيع.

أصبحت الحفرة الموجودة في أعلى رأسه الآن عميقة جدًا، لدرجة أنها يمكنها الاحتفاظ بالمياه. هذه البقعة اللينة كالنافورة الآن. هذا الطفل ليس بخير. أدور بالغرفة، بينما تقف «رايتشيل» في منتصفها، تتلقى التهاني من العاملين بالمتحف. سوف تركب القارب في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

أتوتر عندما أرى أن جدتي تقترب وتميل إلى «رايتشيل». أومأت «رايتشيل» بابتسامة مهذبة في البداية، فمن المفترض أنها تقدم نفسها على أنها جدتي. أستطيع أن أرى تغيرًا في تعبيرات وجه «رايتشيل» الودودة بينما تواصل جدتي حديثها. لا بد أن جدتي تتحدث عني كما وعدت. ماذا تقول؟ تنظر «رايتشيل» حولها بحذر. أدرك أنها تبحث عن طفلها. أتحرك إلى مجال بصرها وأرفع بيد الطفل حتى يلوح لها، تومئ لي وقد بدا عليها التوتر.

أغني بهدوء في أذن الطفل: «سأرمي جدتي من المنحدرات الخلفية من أجل هذا».

ثم تقاطعني صرخة جدتي الحادة بينما تنسحب «رايتشيل» وتسارع نحوي.

لم أفهم كلمات جدتي، فقط وصلني الغضب في صوتها. يستمر باقي الحشد في الكلام، ويبدو أنهم لم يزعجهم أن «رايتشيل» قطعت طريقًا سريعًا نحوي عبر الغرفة. أستعد للضربة. إنها قادمة لإنقاذ الطفل. إنها تعرف من أنا الآن.

أغني للطفل: «ربما سأرمينا جميعًا من الهاوية الخلفية إن حاولت والدتك أن تتركني».

تقترب مني بسرعة قائلة: «إيبلين»، وآخذ دقيقة لأدرك أنها لم تنتزع الطفل مني، ولكنها في الواقع تحتضنني بشكل عشوائي. دمعت عيناها.

أقول: «ما الأمر؟ جدتي...».

«جدتك ليست إنسانة طيبة»، تضغط «رايتشيل» بشفتيها على أذني فتسري المتعة بالجزء السري من جسدي. «لقد أخبرتني للتو بأشياء مجنونة عن...»، وتهز رأسها بغضب. تستطرد: «لا يهم. لا يمكنك البقاء معها يا «إيبلين». سوف تسممك».

أجد صعوبة في اختيار الكلمات. هذا مضحك جدًا.

تقول لي: «يجب أن تغادري يا «إيبلين» «، ويبدو عليها الحزن الشديد بينما تقودنا خارج الباب الجانبي للمعرض وبعيدًا عن نظرة جدتي البائسة. في الخارج نحن وحدنا، رابعتنا الجزيرة. لا أكاد أصدق مدى نجاح الأمر، فقد قدمت جدتي الحل بنفسها. أسقط عني ابتسامتي الشامتة. إنها لا تزال تتوسل إليّ... تتوسل *إليّ*!

«أنتِ بالغة، ليس عليك البقاء هنا يا «إيبلين». قالت إنك لست طبيعية، قالت جميع أنواع الأكاذيب الفظيعة. لا يمكن لهذا أن يكون صحيحًا. لا يجب أن تعيشي هكذا. مجرد انتماء الناس للعائلة لا يعني أنهم طيبون بشكل تلقائي. لقد أمضيت وقتًا طويلًا وأنا أعامل بهذه الطريقة من قبل المنافقين. لا أريدك أن تعاني مثلي».

أتنهد قائلة: «لا أستطيع المغادرة يا «رايتشيل» «، فإذا أظهرت الحماسة الشديدة، قد يؤجج هذا الأسئلة حول كل شيء بداخلها. ربما تساورها الشكوك. يجب أن أقاوم بعض الشيء. لا يمكنها أبدًا أن تعتقد أنني أجبرتها على ذلك. أهمس قائلة: «لن أعرف ماذا أفعل إن غادرت يا «رايتشيل». أنا حتى لم أذهب إلى المدرسة».

تقترب مني ثانية و«شيماس» بيننا وتقول: «هذا ما يفعلونه بك. إنهم يبقونك ضعيفة حتى لا تتمكني أبدًا من الهروب». تؤكد قائلة: «ولكن يمكنك ذلك. تعالي

معي يا «إيلين»، سأساعدك، أعدك بهذا، كما ساعدتِني».

تنظر في عينيّ مباشرة، فأبتسم ابتسامة مترددة في البداية، ثم أسمح لها بالانتشار ببطء.

أرد: «حقًا؟».

تقول: «حقًا! بالطبع حقًا. كنت سأفقد عقلي هنا لولا وجودك. لقد أنقذتِنا. سوف نذهب إلى البر الرئيسي ونعيش معًا وسيتحسن حال «شيماس». وسندعم بعضنا بعضًا، حتى تصبحي مستعدة للمغادرة بالطبع».

لن أخوض في هذه النقطة الأخيرة: يمكنني التعامل مع ذلك عندما يحين الوقت. سوف تحتاج «رايتشيل» إليّ دائمًا. أنظر إلى ما وراء «رايتشيل» من خلال الباب المفتوح لغرفة المعرض. يبدو أن جدتي قد رحلت. ربما كانت تسير مع بابا إلى المرسى حيث سيركب القارب في وقت مبكر من المساء.

قلت لها: «سأحتاج إلى تنظيم أشيائي».

تحتضنني أنا و«شيماس» وترد: «بالطبع! سيكون هذا رائعًا. أنت لا تعرفين كم يمكن أن تكون الحياة رائعة يا «إيلين» «.

هذا حقيقي.

أسألها «في أي وقت سنلتقي غدًا؟».

«في السابعة صباحًا كي نأخذ القارب الأول. ينظم رجال المتحف أغراضي لإرسالها إليّ، فهم يعلمون أنني حريصة على إعادة الرضيع إلى البر الرئيسي». تأخذ «شيماس» من بين ذراعيّ ويظهر شيء من القلق بملامحها وهي تنظر إليه. أستشيط ضيقًا. إنها دائمًا قلِقة على الرضيع، ولكن هذه *لحظتنا*.

أجاهد لرسم ابتسامة دافئة على وجهي. أقول: «سوف يتحسن كثيرًا عندما نصل إلى البر الرئيسي، وسوف تتحسنين أنتِ أيضًا. لقد كنت تفعلين الكثير هنا.

ستأخذين قسطًا أكبر من الراحة، ويمكنني القيام بالأعمال المنزلية. سوف نعتني بك ونجعل حليبك طيبًا ودسمًا».

تغمز «رايتشيل»، ثم تبتسم بسرعة.

25

في الظلام الدامس، أمشي إلى أعلى المنحدر نحو منزلي المتصدع، وأضع خططي.

أعتقد أنه لن يكون من الصواب المغادرة دون وداع مناسب. ضحكتي العالية تتدحرج على الطريق أمامي.

جدتي في حالة هستيرية في المطبخ عند وصولي.

«إنها لم تستمع لي! لقد رأيت ما فعلتِه بوجه أمك أيتها البائسة. سأحضر تلك الفتاة الساذجة إلى هنا لأريها بنفسي إذا اضطررت لذلك».

أضحك قائلة: «لن تفعلي ذلك! فإن فعلتِ، سيتعين عليكِ أن تقولي الحقيقة كاملة مرة واحدة في حياتك، وسيعرف الجميع ما كنت تفعلينه هنا طوال هذه السنوات وستزداد الأمور سوءًا بالنسبة إليك».

ترد: «ماذا تقصدين بالنسبة إليّ؟».

«سأغادر، لذا ستتحملين المسؤولية كاملة في الواقع». أذهب إلى غرفة نومي، بالكاد ألقي نظرة على «الشيء» طريح الفراش المبتسم الذي يجلس على كرسيه في منتصف الردهة. في غرفتي، أضع قطع الملابس القليلة التي أملكها في حقيبتي.

تتبعني جدتي متسائلة: «إلى أين ستذهبين؟».

أرد: «أنا ذاهبة مع «رايتشيل»، لقد طلبت مني أن آتي معها. أشفقت عليّ بعد سماعها لقصصك الفظيعة، لذا أشكرك».

ظلت جدتي متجمدة وأنا أحمل حقيبتي وأتجاوزها نحو الممر. تستدير لي.

تهتف: «لا تستطيعين...».

أقاطعها: «لا ينبغي عليك حقًا الاحتفاظ بهذا هنا»، وأنا أشير إلى رأس «الشيء» طريح الفراش. أستطرد: «إنه يسد الطريق». أميل الكرسي إلى الخلف ثم أقود «الشيء» طريح الفراش إلى غرفتها. تحتك ساقاها بالشقوق الموجودة في الأرض كما توقعت، وتوقف المقعد المفاجئ يسقطها من عليه فتتكوّم على الأرض. أرتجف من الشعور بالرضا. أملك زمام الأمور بيدي وأشعر بالقوة والشجاعة. أنا مستعدة للخطوة التالية.

«لا يمكنك الذهاب»، تتوسل إليّ جدتي، وهذا غريب. لم تبدُ ضعيفة قط طوال حياتي كلها. تقول: «لا يمكنك أن تتركيني معها».

أقول: «همممم. دعينا نتناول بعض الشاي. لن أذهب حتى الصباح على أي حال».

«لا يمكنك المغادرة، أنت لا تعرفين كيف تتصرفين».

أقول بغضب: «أنا أتعلم».

لا تتحرك جدتي بأي شكل كي تحمل «الشيء» طريح الفراش. ربما تعرف جدتي ما سيأتي.

أنا لا أهتم بحملها أيضًا، فلا حاجة لذلك. تقودني العادات القديمة في المطبخ إلى الخزانة المغلقة وخبز النهار. وبعد دقائق قليلة، نجلس إلى الطاولة. نمضغ ونشرب الشاي بينما يحل الليل حولنا. أسأل نفسي إن كانت جدتي ستتفوّه بأي شيء. ربما ستعتذر؟ لكن لا، فمع مرور الساعات، لا أجد أيًا مما يشير إلى الندم. يبدو أن تنهداتها من حين لآخر تشير إلى أنها تعتقد أنها بريئة من كل هذا، كما لو اتضح أن ما ظننّته حول طبيعتي الغادرة قد تأكد الآن.

نجلس، ولا نتفوه ببنت شفة. نجلس، وأفكر في مدى تشابه هذه الليلة الخالية من الكلمات مع كل الليالي الأخرى التي قضيناها معلقتين هنا في هذا المنزل الشبيه بالهوة الساحقة، معلقتين معًا إلى الأبد. أدرك أن الطاقة اللازمة للشجار قد

تركتها. إنها تريد أن ينتهي كل شيء، ولا شك أن جزءًا منها يشعر بالارتياح سرًا لأنني على استعداد للمغادرة.

وأخيرًا وَقَفَت.

تخاطبني بالأيرلندية قائلة: «ليلتك طيبة»، وتستدير وتغادر المطبخ. أستمع إلى خطواتها عبر الممر المظلم وإلى غرفة نومها. لم تتوقف حتى عند المرأة المهملة على الأرض في المدخل.

أغتسل كما أفعل دائمًا وأرتب الأشياء. أعيد السكين إلى الخزانة وأثبت المفتاح في الحائط. الجدار هادئ الليلة.

في غرفتي، أسحب حبل جدار القبر من أسفل أغطية فراشي. أنام وهو ملفوف حولي منذ الليلة التي سرقته فيها. لم أعرف بالضبط السبب إلا أن الجزيرة شجعت الفكرة، وشعرت أن الهدف من كل هذا سيولد بشكل طبيعي.

وهكذا وُلِد.

(الجزيرة لا تزال شريرة. أو أنا الشريرة والجزيرة مجنونة)

أعود إلى «الشيء» المستلقي على الأرض وأدفع رأسه وذراعيه عبر حلقة الحبل الخشن الكبيرة. حبال جدران القبور هي أقوى ما على الجزيرة. عليها أن تتحمل الوزن الذي تحمله على جانب المنحدر لفترات طويلة من الزمن. هذا عمره سنوات. من المحتمل أن العديد من الجثث قد تعلقت به. لا يوضع الحبل حول الرقبة أبدًا، لأنه عندما جربوا ذلك في البداية، تعفنت الرقاب بسرعة كبيرة وسقطت الجثث مثل الفاكهة غير الناضجة. امتلأ الخط الساحلي بإزعاج الموتى مقطوعي الرأس، وكان من المفترض أن يتحملهم حبل جدار القبر حتى يتحللوا ويتوقفوا عن العودة مع المد والجزر. الآن يوضع الحبل حول الجذع وتحت الفخذين أيضًا في بعض الأحيان. أسحب الكتلة التي هي أمي عبر المنزل بحبل جدار القبر، ما ينتج عنه ضجيج كثير، فهي تصطدم بالزوايا وبالسلم المؤدي إلى

الباب الخلفي. من المؤكد أن الضوضاء تصل إلى جدتي، لكنها لا تريد أن تعرف أكثر مما ينبغي. إنها تريد مني أن أستمر بلا شك.

انخفضت درجة الحرارة في الخارج. أتكئ على الحبل لأسحب أمي فوق المسار الحجري المتعرج.

أنظر إلى أسفل الجزيرة على يساري. لا يدرك كل الناس الغافلين هناك أن هذه الليلة هي الأكثر أهمية وإثارة في حياتي. أفكر في «رايتشيل» وهي تطوي ملابسها وتحزم ممتلكاتها وتعتني بكل الأمور الأخرى. سحبني الحبل بعيدًا عن أفكاري حول «رايتشيل»، ألقي نظرة على «الشيء» طريح الفراش لأرى إن فهمت ما يحدث. بشكل لا يصدق، شعرها المستعار لا يزال على رأسها. ألقي الحبل وأذهب إليها. أجلس القرفصاء بجوار «الشيء» وأرى أنها لا تزال مبتسمة، ووجهها إلى الأرض، وعيناها واسعتان وثابتتان. ذراعاها خلفها، وكفاها تشيران إلى الأعلى. سوف أستغرق الليل بأكمله إن استمريت في سحبها. أقف وأدور حولها، حول الجسد المليء بالجروح والقشور. لقد سئمت.

أسألها: «فلتسيري، ألا يمكنك ذلك؟». يطيعني «الشيء» طريح الفراش.

تنهض أمامي في صمت تام.

الصخور لا تتكسّر حتى تحت وقع قدميه الحذرتين.

ذراعا «الشيء» متدليتان، وكذلك رأسه القابع على رقبته.

يبتسم ويحدق.

لا أشعر بأي صدمة من حيويتها المفاجئة. أشعر فقط بإحساس مضحك بالحتمية، كما لو أنني بطريقة ما كنت أعرف طوال الوقت أن هذا ما سيحدث في النهاية.

أسحب حبل جدار القبر بخفة فيبدأ «الشيء» طريح الفراش في الحركة، وبعد

ذلك يبدأ في القيادة. عند جدار المنزل، يتجه يمينًا إلى المسار المليء بالشقوق البالية المؤدية إلى المنحدرات الخلفية. إنه يمشي مطيعًا، ولا يُظهر أي ألم عند لمس قدميه للصخور المسننة الموجودة تحت قدميه. بعد اثنتي عشرة خطوة تقريبًا، يترك بقعًا سوداء لامعة في أعقابه، قدماه تنزفان.

يمشي ويرتفع مع الجزيرة وأنا أتبعه. يا لها من شيء ملعون، تلك المسيرة، التي يبدو وأنها ستستمر إلى الأبد. تمامًا مثل بابا الذي يركض نحو طفلتيه وهما تتدحرجان وتسحبهما الأمواج. أخيرًا، توقف «الشيء» طريح الفراش، وفي الظلام أرى أننا وصلنا إلى الحافة العليا من هذا المكان، هذا المكان الفظيع وهذه الحياة الفظيعة.

تمتد مقدمة الجزيرة فوق الصخور والأمواج الموجودة بالأسفل. أميل إلى الأمام قليلًا لأقيِّم الهبوط وأرى ما قد يترتب على وفاة أمي، لكن لا أرى سوى الظلام الدامس. أستطيع سماع صوت أمواج المحيط والبكاء، البكاء الدائم. وأتساءل الآن عما إذا كان البكاء قد دخلني في هذا اليوم، دخلني ولم يفارقني. لم تأتِ الصرخات من حقول الجزيرة وصخورها كما ظننت، بل إن صوتها - صرخات أختي الصغيرة - ترددت بالبئر السحيقة بداخلي، هذه البئر التي لطالما كانت بداخلي.

(قرقرت، ثم غرقت، وغمرها المحيط الذي احتضن جسد الرضيعة وابتلعته. ثم لا شيء)

أقول لها: «يمكنك القفز إذا أردتِ»، وأشير إلى الفراغ بلا مبالاة «لا أمانع».

تستدير وتنظر إليَّ.

أعلم أن القفز ليس ما يريده «الشيء» طريح الفراش، فهو سهل جدًا وسريع جدًا.

تهز رأسها بينما تستمر في ابتسامتها الواسعة.

أقول بغضب: «حسنًا»، فأنا لا أطيق الانتظار.

أسحب الحبل بقوة نحوي، ما يدفعها للاستلقاء على وجهها وترفع رأسها إلى الأعلى. أعود بالحبل قليلًا إلى الخلف حتى أجد الصخرة المثالية البارزة من الأرض، تلمع مثل سكين مغروس. أتحسسها فأجدها صلبة. أربط الحبل حول الصخرة، وأعقده عدة مرات، ثم أعود إلى حيث لا يزال «الشيء» طريح الفراش مستلقيًا على وجهه. بدأ صريرها ولا تزال تبتسم لي.

(لا تدعِهم يظهرون لك ابتسامتهم أبدًا) (أنا أستحق هذا وأكثر. أعطني المزيد، أستطيع تحمله، أرحب به، أنا في حاجة إليه)

أجلس وأمسك الحبل في يدي بشكل غير محكم وأضعه في حِجري. أتنفس وأثني ساقيّ للأعلى. أريح قدميّ على كتفيها وأبدأ في الدفع. أتنفس وأدفع مرة أخرى، ثم مرة أخرى. يبتعد «الشيء» السعيد المحدق فيّ عن قدمي ويتقدم نحو الحافة. عندما يبدأ جسدها بالتحرك، أشعر بوزنها يثقل الحبل الذي يربطني بها. أتكئ إلى الخلف كي لا يسحبني وزنها. أذكر نفسي أن *أستمتع* باللحظة. أدفعها بلطف، بلطف بالغ، حتى يبدأ السواد أسفل الحافة في الوصول إليها. يبتلعها فأستمتع باللحظة أيضًا. أتلذذ باللحظة الأخيرة، حتى يسقط جسدها بالكامل ولا يزال رأسها فقط على الأرض. ابتسامتها كبيرة جدًا، وهي تغمز لي من الحافة. تركتها معلقة، متسائلة عما إذا كانت ستتوسل إليّ عيناها، ولكن لا، هي تبتسم فقط.

تركتها فسقط رأسها عن نظري واندفع الحبل فوق ساقي. أتركه بسرعة فيصير مشدودًا بشكل كامل.

أركع وأستمع إلى الليل. لم تصدر صوتًا وهي تسقط. كل ما أستطيع سماعه الآن هو صوت صرير الحبل الملتوي.

سيستغرق موتها وقتًا طويلًا. لن تغرق، بل ستذبل. الأمواج لا تصل إلى هذا

الارتفاع. إذا كان الطقس جميلًا فسوف تحرقها الشمس. سوف تتدلى من الجزء الخلفي من الجزيرة وتحدق في حيث ينتهي المحيط في السماء حتى تموت. سوف يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يقتلع العطش روحها. سوف تظل معلقة لمدة ثلاثة أيام على الأقل، وربما لفترة أطول.

وكيف ستشعر بمرور الوقت تلك الأيام الثلاثة وهي وحيدة ومعلقة؟ أتخيل أنها ستمر بسرعة بالغة مقارنة بحياتها في الفراش.

شارف الليل على الانتهاء، وأريد أن أصل في موعدي لمقابلة «رايتشيل». أقفز فوق الحبل السري، وأبدأ في النزول من جديد، نحو «رايتشيل»، ونحو خلاصي. أقرر أنني سأتخذ اسم «إيثان» من الآن فصاعدًا. أريد ألا أكون ملوثة. لقد هربت «إيثان»، والآن هرب «الشيء» طريح الفراش، وسأهرب أنا وجدتي وبابا أيضًا.

هذا هو المكان حيث تنتهي.

حيث أنتهي.